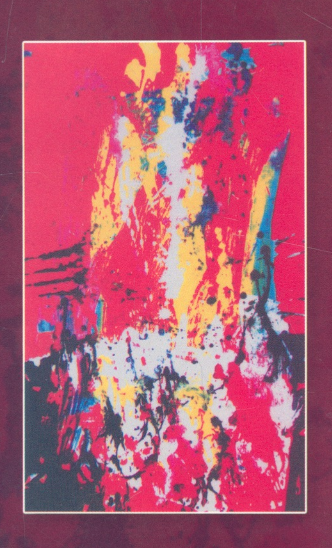
حكاوي أمدرمان



شوقي بدري



حكاوى أم درمان

حكاوى أم درمان

تأليف: شوقي بدرى

الناشر: الشركة العالمية للطباعة والنشر

المدير العام: الشيخ عووضة

تنسيق داخلى: صالح عبدالعزيز

تصميم الغلاف: سامر محمود

رقم الإيداع: ٢٠٠٨/٩٦٦٣

سنة الطبع: 2009

إدارة المبيعات: 0101219394

تليفاكس: 26989518

البريد الألكترونى:

Email: elshekh46@yahoo.com

حكاوى أم درمان

شوقي بدرى

الشركة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع

إهداء

إلى روح والدتى أمـــينة خليل أبتـــر الأم الأمدرمانيـة التى قدمت الكثير وفتحت بيتها لعشرات الناس من الأهل وطلاب العلم والأيتام فكانت أمًا للجميع دون تفرقة بينهم وبين أبنائها من رحمها ، علمًا بأنها لم تكن متعلمة .

وإلى أختى المناضلة خالدة زاهر الساداتى .

وإلى أختى الأمدرمانية الرائعة المناضلة فاطمة أحمد إبراهيم .

شوقى بدرى

أبو فقوق

تقديم

أن كتابات شوقي بدري و "حكاياه"، التي احتشد بها، هذا الكتـاب . والتي تستند علي نهجه الخاص، في الكتابة السردية وطريقته التلقائية في تحريـر تفاصيل السيرة الذاتية، تقدم لنا عالماً غنيا بأبعاد التجربة الحياتيـة والإنـسانية (بمختلف مستوياتها)، في مدينة فريدة التكوين التـاريخي والاجتماعـي، مثـل مدينة امدرمان .

هذه المدينة العزيزة عـلي كـل سـوداني .. لأنهـا تاريخيـا، كانـت الرمـز ومازالـت لوحـدة المجتمـع الـسوداني .. بكافـة أمـشاجه وتنوعـه الزاخـر . فأصبحت بما حدث فيها مـن تـداخل وتفاعـل ثقـافي، اجتماعـي واقتـصادي عميق-بـين أناسـها، المنحـدرين،من مختلـف التكوينـات الـسكانية للـبلاد- النموذج الاعلي لمفهوم "الشخصية السودانية"، ورمزهـا الـدال عـلي تحققهـا التاريخي. لذا كانت، بهذه الكيفية؛ مصدر إلهام للكتاب والـشعراء في التعبير عن رؤاهم وأحلامهم المنشودة والمنتظرة لوحدة الأمة السودانية .

ومع هذا الحب الكبير والمكانـة الخاصـة التـي تتمتـع بهـا امـدرمان في كتابات لمبدعين السودانين (خاصة كتابات ابنائها الذين ولدوا وترعروا فيها) الا أنه من النادر أن نجد من استطاع أن يعبر عـن (المجتمـع الامـدرماني)،(

المكان الامدرماني) و (القيم والأخلاق الامدرمانية) بمثل ما فعله شوقي في – هذا الكتاب – بحبه الجارف لامدرمان، الذي بلغ حد التقديس احيانا .

وليس أدل علي هذا التأثير الطاغي الذي تركته امدرمان في شخصية المؤلف وتكوينه النفسي والوجداني، في هذه "الذاكرة" الحية . الذاكرة الحديدية التي عبرت بكل هذا الوله، وهذا العشق الكبير، عن امدرمان المفقودة .. امدرمان التي ضاعت وطواها الزمن، ولم يبق منها إلا هذا الحب الثاوي في نبضات القلب وحنايا الوجدان. كما وأننا لا ندرك – كذلك – مدي هذا التأثير الطاغي لامدرمان علي الكاتب، وهو يتوسل " بالكتابة "، للحفاظ علي كل تلك التفاصيل الدقيقة والحميمة من زمن طفولته ومراتع صباه الباكر إلا حينما نعلم أن كل هذه " الحكاوي الامدرمانية " – بهذا الأداء المدهش للذاكرة – كتبها المؤلف وقد ظل بعيداً عن امدرمان ما يقرب الثلاثة عقود ونصف العقد، قضاها الكاتب، بعيداً عن وطنه – في بلاد الغربة منذ أن رحل للدراسة أول مرة . وكان لا يعود إلي امدرمان طوال هذه الفترة، الماماً. وعبر زيارات متقطعة، لا تسعف المحبوب النهل من معين محبوبته "امدرمان" . غير أن، العشر سنوات الماضية، والتي لم يستطع خلالها ملامسة تراب امدرمان– بسبب التحولات السياسية الأخيرة في البلاد–فجرت فيه منابع هذا الغضب النبيل لما آلت إلية أحوال امدرمان المدينة، وأحوال امدرمان الوطن ... فشرع من ثم يسجل بقلم محموم كل ما انطوت علية ذاكرته –المتشظية بالغربي– تفاصيل ومواقف وإحداث يفاعته الامدرمانية الطازجة، التي إنصهرت وإلي الأبد في تلافيف ذاكرته الحديدية .

وتبقى من ناحية أخري الخصائص المميزة لكتابة المؤلف-كما سيلاحظ القاري-تتمتع بنهجها الخاص-كما قلنا-كخطاب سردي إمتلك إنحرافاته اللغوية و طرائقة الأسلوبية، كنمط نثري متحرر من أية قواعدية للنوع الأدبي . حيث استطاعت هذه الكتابة، بطابعها هذا أن تملأ فراغا ظل قائما إلي اليوم في حركة ثقافتنا : بين ما هو مكتوب ورسمي " أي معترف به كسلطة كتابة نثرية " وبين ما هو شفاهي "شعبي" يعتمد في آلياته التوصيلة علي "الحكي" خارج نطاق الكتابة الرسمية السائدة .. بحيوية، سرد الروايات واعتماد وقائع السيرة الشخصية كمصادر مباشرة : للمعرفة بالعالم، الناس والجغرافيا "الأخلاقية / القيمة" للمكان الامدرماني .

وهذا الفراغ-الذي نقوله-حاولت أن تملأه التجربة النثرية التي يمارسها شوقي بدري بكافة خصائصها التي لا تقتصر علي مستوي الشكل والأسلوب كتابة "تروم تحويل ما هو شفاهي إلي مكتوب"، ولكن حتى علي مستوي الموضوعات "القضايا" المثارة في خطابة . باعتبارها موضوعات تم السكوت عنها أو هي بحكم طبيعتها "الشفاهية" مهملة وتقع خارج نطاق المدي التقليدي لما هو "مكتوب" أو رسمي ينتمي لما يمكن أن نطلق علية " الكتابة العالمة " . وبالتالي فأنها من حيث كونها كذلك، تصير أكثر دلالة علي المستوي التحتي أو ما هو "ثقافة شعبية" . ومن هنا تنبع المشروعية التي تعطي كتابة شوقي بدري قيمتها الأدبية والمعرفية بفضل محاولتها الإمساك بتفاصيل هذه العوالم التي تكون عرضة لأن تسقط من بين ثقوب الذاكرة الجمعية وتندثر . ولا نقول هذا الكلام " عن كتابات شوقي بدري " كإمتياز خاص

به.. ولكن هناك محاولات عديدة " في ثقافتنا " سبقته في هذا الاتجاه : أن كان ذلك في تجربة "جده" الرائد الشيخ بابكر بدري وكتابة "تاريخ حياتي" أو في جملة الكتابات التي اجتمعت ما بين : التاريخ الشعبي، التسجيل الوثائقي، السير الذاتية، رصد "المُلح"والطرائف، ووصف الظرفاء وغيرها . حيث يمكن أن نذكر في هذا المقام كأمثلة كتابات : عبد الله رجب، جسن نجيله، فهمي بدوي، د. خالد الكد، إلي جانب مساهمة كاتب ساخر مثل الدكتور محمد عبد الله الريح.

وتظل في النهاية مثل هذه الكتابات تؤكد أهميتها الأدبية لما تحمله من قيمة معرفية، غاية في الأهمية . عن دقائق التكوين النفسي والمزاجي والسلوكي وحتي نمط الذهنية وآليات التفكير في شخصيتنا الوطنية، ذات المرجعيات المتعددة، ثقافياً وحضارياً .

كما أنها تنزع بصدقها القناع الرسمي "الجاف"، وكشافة بطزاجتها وحيويتها عن أصالة الثقافة الشعبية .

فما أحوجنا اليوم في المرحلة الراهنة التي يمر بها شعبنا، إلي مثل هذه الكتابات الأكثر التصاقا بالحقائق المجردة لمحتوي ومضمون ثقافتنا الشعبية وعرضها بشجاعة كاملة دونما أية تزويقات أو تلاوين كاذبة ...

أحمد عبد المكرم

مقدمة الطبعة الثانية

بقلم هلال زاهر الساداتى

قاص وكاتب سودانى

لقد أكرمنى الصديق العزيز شوقى بأن أقدم لهذه الطبعة الثانية من كتابه (حكاوى امدرمان) ، وقد سعدت أن أتيحت لى فرصة قراءة الكتاب مرة أخرى ، واستمتعت بقراءته مثلما المرة الأولى عندما قرأته ، فقد أعادت لى محتوياته ذكريات حلوة ولذيذة فى أمدرماننا الحبيبة عشناها فى طفولتنا وصبانا فى أمدرمان الغنية بأريحيتها وكرمها وأصالتها وترابها (وكتاحتها) ، وتملكتنى خواطر شتى عند قراءتى عن بعض الشخصيات التى عاصرتها وعرفتها ، وضمنتها فى رسالة بعثت بها إلى شوقى ، فطلب من أن أضمنها فى هذه الطبعة .

وأحسب أن شوقى من حيث لا يدرى حملنى حملاً ثقيلاً ، ووقعت فى حيرة لا أدرى معها من أين أبدأ أو أنتهى ، فالرجل متعدد الجوانب الخُلقية والحياتية ، ويقتضى الحديث عن الكتاب المساس بسيرة الكاتب والتي ربما تنعكس على كتاباته ، ولاسيما أن الرجل ينفر من تناول مزاياه الطيبة نفور السليم من الأجرب .

أمدرمان هى مستودع الطيبات السودانية كما عشناها وعرفناها ، وشوقى عاشق أمدرمان عشقًا ملك عليه أقطار نفسه ولعله يماثل هيام قيس بليلى فى الأقدمين ، وهو من القلائل فى أمدرمان الذين يعرفون أنساب وأسر أمدرمان القديمة ، رجالاً ونساء . ويتطرق شوقى فى كتابه إلى العالم السفلى

فى أمدرمان حيث العرقى والبنقو والسرقة والنشل ، ويبرع فى تصوير هذا العالم لأنه اختلط بهم وعاشرهم واتخذ منهم أصدقاء ، فجاءت كتابته صادقة معبرة ، وهذا يذكرنى بكتابات الكاتب الأمريكى الساخر مارك توين وكتابيه (مغامرات توم سوير) و(هكلبرى فن) ، وأرى شبهًا شديدًا بين بطل كل من الروايتين وشوقى فى مغامراته وصولاته وجولاته ، فقد كان ولدًا شقيًا أو كما نقول فى أمدرمان ، شيطان وعصبجى .

وشوقى رجل بسيط وهذا هو سر تميزه ، وهو يكتب دون تعقيد وتزويق وبصراحة مطلقة ، ولن تستطيع أن تنسب كتاباته إلى أى من المدارس الأدبية المعروفة ، ولكن يبقى الصدق فى كتابته والذى ينفذ إلى القلب مباشرة ، وهو ينفرد بأسلوب خاص ينقلك من حدث لآخر دون تمهيد ودون أن تفقد متعة القراءة أو تحس بالملل ، كقطعة الفسيفساء تتحول بنظرك فيها من لون باهر إلى آخر جذاب ، وعلى الصعيد الإنسانى فإن الرجل مترع بالإنسانية والناس عنده سواء لا يفرق بينهم نسب أو حسب أو مال أو جاه ، ويبدو ذلك المسلك عندما يكتب عن المسكوت عنه فى صراحة مفحمة وشجاعة أصيلة وجرأة فى قول الحق ، وهذا الموقف هو ما يجلب له عداء وسخط المرائين والمنافقين والمدعين ، ولكن يكفى أن الشامتين له قطرة فى بحر المحبين له ولكتاباته .

ولا يفوق حبه لأمدرمان سوى وطنيته الطاغية وحبه للسودان وشعبه وبخاصة أهل الجنوب ، كما يعمر قلبه إلى درجة الجيشان وفاؤه لأصدقائه الأحياء منهم والذين انتقلوا إلى رحمة الله ، ويتجسد ذلك فى تذكره لصديقه المرحوم بَلّه والذى يدعوه بتوأم روحه ، ورثائه له نثرًا وشعرًا ، وكأننا نستحضر معه شعر الخنساء فى رثاء أخيها صخر .

ولا يفوتنى أن أذكر أن البروفيسير زفير لوفين أستاذ الأدب العربى بجامعة بروكسل فى بلجيكا قد ترجم لشوقى قصته القصيرة (المشبك) إلى اللغة الفرنسية ونشرها فى موقعه على النت للأدباء السودانيين . أمر آخر طلبه شوقى منى وهو أن أكتب نبذة صغيرة عن شخصيتين سودانيتين عظيمتين يهديهما الكتاب هما الدكتورة خالدة زاهر الساداتى والأستاذة فاطمة أحمد إبراهيم ، وعندما سألته بتعجب عمن من السودانيين يجهلهما أجابنى ضاحكًا أن أحد الشبان سأله من هو الدكتور طه بعشر ؟ ! فهناك مخطط لدى الأنظمة الشمولية منذ عهد عبود ونميرى والجبهة القومية الإسلامية لطمس تاريخ السودان وتجهيل النشء برموز الشخصيات السودانية من رجال ونساء ، ولكن هيهات فإنهم كالذين يريدون أن يحجبوا ضوء الشمس بأكفهم !

ومع ذلك فأدناه أسطر عن هاتين الشخصيتين :

الدكتورة خالدة زاهر الساداتى :

– ولدت بأمدرمان وهى أول فتاة سودانية تلتحق بالجامعة وتتخرج فى كلية الطب بجامعة الخرطوم فى عام ١٩٥٢ كأول طبيبة سودانية .

– أول فتاة أو امرأة سودانية تشارك فى العمل الوطنى ضد المستعمر وقادت مظاهرة ضده واعتقلت ثلاث مرات .

– كانت عضوا في اتحاد طلاب جامعة الخرطوم .

– أسست مع زميلتها فاطمة طالب إسماعيل رابطة الفتاة الثقافية فى ١٩٤٧ لبث الوعى بين النساء .

– أسست الاتحاد النسائى السودانى .

– وصلت وظيفيًا إلى وكيل الصحة المدرسية بوزارة الصحة .

– نالت دبلوم من إنجلترا ودبلوم أطفال من تشيكوسلوفاكيا ومثلت السودان فى عديد من المؤتمرات الطبية خارج السودان فى أوروبا وآسيا وأفريقيا .

- تزوجت وهى طالبة فى الجامعة من المرحوم الأستاذ عثمان محجوب عثمان ولهما ابنان وبنتان ، والابن الكبير طبيب استشارى فى إنجلترا والثانى دكتور بالجامعة ويعمل حاليًا مع الأمم المتحدة ، والبنت الكبرى تعمل موظفة بالأمم المتحدة فى جنيف ، والأخرى الصغرى دكتورة فى الآثار من فرنسا .

- ظلت تعطى دون توقف اجتماعيا ووطنياً ، وبعد أن استولت الجبهة القومية الإسلامية على الحكم فى السودان ذهبت الدكتورة خالدة لتعيش مع ابنها فى إنجلترا ، وقد حدّ من نشاطها المشاكل الصحية وكبر السن .

فاطمة أحمد إبراهيم :

- ولدت بأمدرمان .
- من أوائل الأعضاء المؤسسات للاتحاد النسائى السودانى .
- رئيسة تحرير صحيفة صوت المرأة التى كان يصدرها الاتحاد النسائى .
- أول امرأة تنتخب فى البرلمان .
- رئيسة الاتحاد النسائى السودانى لعدة عقود وإلى الآن .
- عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السودانى .
- مناضلة مصادمة لا تلين لها قناة وصلبة كالفولاذ ولقد تعرضت للاعتقال والمطاردة فى جميع العهود خاصة الشمولية منها .
- تزوجت من القائد العمالى الكبير الشفيع أحمد الشيخ والذى أعدمه جعفر النميرى هو وقادة الحزب الشيوعى ، عبد الخالق محجوب عثمان وجوزيف قرنق .
- لها ابن وحيد يعمل الآن طبيبًا فى إنجلترا .
- عينت فى مجلس الشعب الحالى عن التجمع الوطنى الديمقراطى ، ثم استقالت منه .

الفصل الأول

أم درمان زمان

«جزء أول»

الجزء الأول

دار الرياضة في أم درمان هي أول دار للرياضة عرفتها المدينة شيدها الخليفة في المهدية وعرفت ببيت الأمانة وكان الخليفة يحتفظ فيها بالمعدات الحربية حتي تكون في متناول يده. وبالقرب منها كان هنالك مبني مستدير بارتفاع 7 أمتار للاحتفاظ بالأعلام وطبول الحرب إلا أن هذا المبني قد أزيل .

في سنة 1935-1936 صار المبني إستاداً لكرة القدم . إلا أنها شهدت نشاطات قومية واجتماعية كثيرة ومن أكبر الأحداث القومية التي شهدت تخريج الدفعة العاشرة من الكلية الحربية سنة 1958 والدفعة تكونت من 60 ضابط وهذا عدد ضخم بالمقارنة مع الدفع السابقة مثل دفعة النائب الأول لرئيس الجمهورية الأسبق محمد الباقر أحمد المكونة من 7 ضباط فقط .

أول الدفعة العاشرة كان بابكر عبد المجيد علي طه وعندما تسلم السيف أستل والده الذي كان يجلس في الجانب الغربي من الاستاد سيفه وكبر عدة مرات . العم عبد المجيد علي طه من أسرة طه صاحب "العمارة" بلدة بالقرب من الحصاحيصا، وهو أول سوداني يصل إلي رتبة الميجر في عهد الاستعمار .

من تلك الدفعة أيضا فاروق حمدنا الله، بابكر النور، محمد محجوب عثمان، همرور الذي صار طياراً لنميري وخليل الذي تزوج من شقيقة صديقة

باباكر عبد المجيد . والفريق فابيان قاما لالونج ومعه بيتر وهما الوحيدين من جنوب الوطن وخالد حسن عباس، محمد ميرغني قامبرا، الفاتح عابدون مصطفي محمود الذي صار حاكما لكردفان، الفاتح المقبول وحريكه وآخرون.

ولأن همرور وخليل كانا من خارج العاصمة لا كانا دائمي الحضور إلي منزل العم عبد المجيد علي طه والد صديقهما بابكر في شارع العرضه حيث كانت شلتنا تجتمع طيلة أيام الأسبوع ولكن كنا نختفي تماماً في نهاية الأسبوع لحضور الأخوة الكبار .

أذكر أنني في نهاية الثمانينات كنت أزور الرجل الفاضل الفريق فابيان في منزله وهو أول جنوبي يصل إلي رتبة الفريق لكفاءته وليس لأي سبب سياسي وقديما كان غير مسموح للجنوبيين، أن يصلوا إلي الرتب العليا في الجيش إلي أن تغير هذا الوضع مع البطل جوزيف قرنق. وكنت أسمع فابيان يسأل ابنه "ياولد كنت وين وماشي وين" وأسمع الابن يرد بجمل ظريفة لا تعني أي شئ ولا تجيب علي أي أسئلة . حينها أتذكر حالنا قديما في ام درمان عندما يستفسر الأهل شباب ام درمان وخاصة شباب الموردة والعباسية من أولئك الذين كانت لديهم مقدرة فذة في التلاعب بالكلمات والتخارج من الورطات .

الاتحاد النسائي اقام عدة حفلات ومناسبات في الدار. حتي الفرق الكبري كالهلال والمريخ كانت تشارك في هذه المناسبات . والقصد منها الدعم المالي للمنظمات، وكنا نري النساء يملأن الدار، وهذه المباريات عادة ما كانت تتم بطريقة "الستوت" وهي 6 لاعبين ضد 6 لاعبين بدلا عن 11 لاعباً

والمبارة من شوطين وكل شوط عبارة عن عشرين دقيقة، مما تترك المجال لنشاطات أخري، مثل موسيقي الجيش، يتقدمها القائد مرتديا جلد النمر وهو يحرك عصاه بطريقة سحرية في يده .

ليس هنالك ضربات ركنية في مباريات الستوت بل تعبر الضربة الركنية عبارة عن نقطة واحدة والاصابة ثلاث نقاط. والمباراة تتم في جو ودي مرح. وقد شاهدت الثعلب طلب، يقف حارساً للمرمي يحاول صد ضربة جزاء لأنه ليس هنالك حارس مرمي في الستوت. فوقف طلب واضعاً يديه علي ركبتيه وحتي بعد أن دخلت الكرة في شباكه لم يتحرك، ووقف متسمراً ثم ابتسم ابتسامة عريضة وضحك بعض اللاعبين . وفي بعض هذه المهرجانات والاحتفالات كانت هنالك مباريات كرة سلة بين المريخ والهلال .

كرة الشراب كانت هي اللبنة الأولي للعبة كرة القدم "الدافوري" واستطيع أن أقول أنه كانت هنالك مئات المباريات في كرة الدافوري كل مساء في ام درمان . بعض الصبية كانوا بارعين جدا في هذه اللعبة وكأنهم حواة في السيطرة علي كرة الشراب أحدهم عبد الفتاح شقيق طلب إلا أنه يشتهر كلاعب كرة. سلطة في الفسحة الواقعة امام القلعة، محمد مكي الركابية، قاقارين الذي لا يحتاج لتعريف، في العرضة بسطامي في العباسية تحت ...

حارس المرمي سبت دودو الذي لن تجود البلاد بمثله شارك في أحدي احتفالات المرشدات وكان يقف حارسا للمرمي وعلى الآخرين بعد أن يدفع الشخص "شلن" خمسة قروش يسمح له بتسديد ثلاث ضربات جزاء. أحدي الفتيات ادخلت ثلاثة أهداف متتالية في مرمي سبت وسط فرحة وتهليل الجميع.

للمرشدات دار جميلة جدا بالقرب من دار الاذاعة السودانية الحالية وكانت لهن نشاطات رائعة . والمرشدات تنظيم مواز للكشافة بزيهن الأبيض الجميل ومنديل وكاب عال، حيث درجن علي تقديم المسرحيات في الأمسيات. فتحية وتحية زروق كانتا من المرشدات المميزات . تحية أول سودانية تحظي بشهرة كممثلة وأظن أن تنظيم المرشدات قد ساعد موهبتها كثيراً.

نشاط الكشافة كان كثيفا واشترك فيه كثير من صبيان وشباب ام درمان ولقد اشتركت الكشافة السودانيون في كل المؤتمرات العالمية كما كانوا يستقبلون زوارا من خارج الوطن. الاخ ابراهيم فرج الله شقيق الكوتش النعيم فرج الله كان كشافا لعشرات السنين .

من الاحتفالات الكبري التي شهدتها دار الرياضة ام درمان حفل استقلال نيجيريا في سنة 1960 وابتدأ الحفل أول المساء واستمر إلي منتصف الليل وقام اشقاؤنا الفلاته وكل من له صله بنيجيريا بالمشاركة في الحفل ووزعت المشروبات الغازية بالمجان. ونسبة لصداقتنا بأبناء فريق فلاته مثل اربع، الجقر وابكر وآخرين فقد كان نصيبي في تلك الليلة ثماني زجاجات وقد اشترك بعض الفنانين في الحفل إلا أن شرحبيل كان هو نجم الحفل الأوحد .

رقص حسن السروجي وطيوبة من فرقة شرحبيل الروك اند رول، ونمرتهما كانت تشمل "قلب هوبه" أثناء الرقص وقد كانا يرتديان القمصان الخضراء . وقدم النيجيريون في ذاك الاحتفال بعض الالعاب السحرية كالضرب بالسيف ودخال اسياخ حديدية في أجسامهم . وطبعا كانت هنالك

موسيقي الكيته والرقص النيجيري إلا أن شرحبيل قدم أفضل فقرة في الحفل وتألق بأغنيتيه "يا اللابس البمبي،وياما بكرة تندم" .

منقزه قدم عرضا لرفع الاثقال بطرقه الثلاثة خطف نتر وضغط، وبلغ أعلي وزن رفعه 145 كيلو جراما وكان ذلك رقما قياسيا وقتها. في كل يوم جمعه كان هنالك ماتش كبير بين أثنين من فرق الدرجة الأولي وفي وسط الأسبوع كانت هنالك مباراة أو مباريتان خاصة يوم الاربعاء. رسوم الدخول كانت خمسة قروش أيام الجمع وخمسة عشر قرشا للجلوس علي الكنب أما الأيام العادية فكان رسم الدخول ثلاثة قروش ونحن ابناء الحي لم نكن ندفع الا نادرا. فالحائط الجنوبي كان كثير الفتحات يسهل تسلقة أو أن يدخل أحد الصبية ويقوم بانزال عمة يتسلقون بها الحائط، أو ننتظر نهاية المباراة فمن العادة، كانوا يفتحون الأبواب قبل 15 أو 20 دقيقة من نهاية المباراة .

والعادة السارية في ام درمان كما في الترام أن لا يدفع الشخص للطفل المرافق له وبعض الصبية كانوا يتحايلون فيسألوا الكبار بقولهم : "ياعمي أخش معاك؟" .

الصبية كانوا يجرون خلف الحمير والعربات بهدف مراقبتها أثناء وجود أصحابها داخل الدار. وصاحب الحمار قد يدفع قرشين أو ثلاثة قروش إذا كان للحمار سرجا فاخرا بفروة مرعد أو إذا كان فريقه منتصرا . وصاحب العربة يدفع شلناً أو ريالا إذا غسلت له العربة جيدا .

أولاد الموردة كانوا يسيطرون علي الجزء الجنوبي ونحن من السروجية

والسرداريه والعباسية تحت، نسيطر علي الجزء الشمالي وهنالك خط وهمي يفصل المجموعتين والبوابة الرئيسية هي الحدود السياسية والإدارية بيننا ولا يستطيع أي شخص أن يتعدي هذا الخط الوهمي مهما علا شأنه .

العجلات كانت تعهد لبعض الصبية الكبار وهم بدورهم يدفعون نسبة من دخلهم إلي الدار يستلمها مسئول الدار الذي كان يحضر لعد العجلات واستلام الفلوس. العجلة كانت تساوي قرشا واحدا. ولأن بعض العجلات كانت بدون قفل فقد كان الأخوة الذين يتعاملون مع الدار مثل محمد عثمان ابراهيم شوقي وفيصل الخير وآخرين كانوا يطلبون منا أن نخبئ الدراجات الغير مقفولة في زقاق حبوبة حميدة ونقوم بارجاعها مرة أخري بعد عملية العد. هذا الزقاق يقع جنوب دار الأذاعة السودانية السابق. حبوبة حميدة هي جدة أبو اللمينه وأحمد "هبار" وأبوبكر طاكاص وهم من أسرة بطل ثورة "1924" عبيد حاج الأمين . هبار أشتهر كلاعب ليق في فريق الهاشماب ولا أعرف لماذا عرف بهذا الاسم (هبار) فهبار هو أشهر لص في تلك الفترة ولا يزال في ام درمان تستعمل كلمة "هبر" للإشارة للسرقة .

بعض الذين يخرجون من الدار غاضبين بسبب اداء فريقهم السيئ كانوا يأخذون سياراتهم ويذهبون بدون أن يدفعوا . أحد السيارات يحركها لأن البطارية نزلت فقد كنا نستمع للراديو واذكر أنها كانت أول مرة نسمع أغنية "أنشودة الجن" لسيد خليفة .

عندما تكون هنالك مباراة دائما ما يرفع العلم وتكتب اسماء الفرق

المتنافسة علي السبورة السوداء المثبتة علي حائط البوابة الغربية وأغلب اللعيبة كانوا عمالا لذا نجد اللاعب منهم يرسل أخاه الصغير أو أي إنسان للتأكد من المباراه ويذهب من عملة مباشرة للعب الكرة في دار الرياضة وقد كانوا مخلصين يلعبون بحمية عقائدية .

. هنالك شخصية عظيمة ارتبطت بدار الرياضة ولم تجد التعظيم الذي تستحقه. أنه الأخ طلب الذي كان لعشرات السنين يهرع بالحقيبة وبإمكانياته المحددوه ليسعف المصابين من اللاعبين في دار الرياضة ويخفف آلامهم وفي بعض الاحيان كان يقدم خدماته في الليق والآن عندما اري الدكاترة الاخصائيين والنقالات الالكترونية التي تسير بالعجلات وكأنها غرفة عمليات كاملة أحس باكبار واحترام للفارس طلب .

وطلب هذا لاعب قديم لعب للوطن مع ود الجراح وآخرين في الميادين التي صارت نادي العمال بام درمان فيما بعد ثم انتقلوا بنشاطهم إلي ميدان الكرة الواقع غرب جنينة السيد الهادي وهذا الميدان عرف بالبحيرة ثم صار يقام فيه احتفال المولد النبوي .

في هذا الميدان تألق كثير من اللاعبين أحدهم الأستاذ خالد أبو الروس الذي كان يلعب حارساً للمرمي ومدرساً في مدرسة شيخ الشبلي المجاورة لمنزل عبد الله خليل. غريم الاستاذ خالد أبو الروس كان الهداف عمار الجزمجى المشهور بمنديله الذي اعتاد ربطه علي رأسه وكما عرفت من محمد محجوب أن عماراً كان يحضر إلي المدرسة لكي يهدد الأستاذ بأنه سيسجل عليه عدة اصابات ثم يتبادل مع الأستاذ أبو الروس الكلمات الجارحة والتهديد .

اتيحت لعمار فرصة ذهبية في إحدي المرات ليحقق تهديده، عندما اتيحت ضربة جزاء فرجع إلي منتصف الميدان واتي مندفعا وقبل أن يصل الكرة تعثر في الرمل الذي ملأه ميدان البحيرة بسبب مياه الأمطار في الخريف فسقط محتضنا الكرة بيده. وعندما رأي الهلع في عيون زملائه والمشجعين قال بسرعة أنحن نلعب كيف مع الفقراء ؟" . الفكي كان أحسن لاعب قديما . وهو الوحيد الذي يتلقي أجرا أما الآخرون فكانوا يلعبون بدون أجر بل يتكفلون بشراء أحذية الكرة : الكدارة،الشنكار، والانكل .... إلخ .

أول شهيد لكرة القدم في السودان هو اللاعب عوض الله الذي ضربته كرة قوية في صدرة فقضي نحبه. وهنالك يافطة في دار الرياضة ام درمان تشير لتلك الحادثة .

الذي ذكرني بدار الرياضة مواضيع الدكتور بطران الرائعة في جريدة الخرطوم أحدها نشر في يوم 28/ 7/ 79 وذكر فيها الدكتور كيف أن اللاعب الصافي عندما قفز عاليا ولم يلحق بعصمت معنٌي الذي سدد اصابة برأسه وعندما لأمه ترنه قال : "أنا نطيت لح\دي ماشفت الترماج وشفت شقليني بيقطع في التذاكر" وكانت إحدي القفشات الرائعة. وشقليني هذا كان كمساريا مشهورا مثل العم وهدان الذي صار فيها بعد مفتشا بالترماج وكان يسكن في شارع الفيل .

وهذه القصة امتداد لقصة قديمة أخري وهي أن ود الشواطين الذي كان يلعب لاستاك بحري قال للقرود عندما لامه بعد أن سجل طلعت فريد

هدفاً برأسه "نطيت لحدي ماشفت سنجة الترماج" والمقصود بالسنجة هنا، البكرة التي توصل الكهرباء إلي الترام . والصافي كان يقصد أنه قفز عاليا لدرجة أنه لم يكتف بالسنجة كود الشواطين بل رأي الكمساري نفسه. الصافي هذه هو الأخ غير الشقيق لمحيي الدين أحمد عبد الله الذي قاد مع شنان الانقلاب في ذلك اليوم المطير الذي قلب ميزان القوة في حكومة عبود وقد تخلصوا بذلك من أحمد عبد الوهاب وهو لا يدري بهذا " الانقلاب داخل الانقلاب " .

كما ذكر الدكتور بطران أيضا كيف أن شاويش جمعه قد تصدي لأحدي ضربات الأمير صديق منزول وعندما اصابته الكرة في رأسه كاد أن يغمي عليه. شاويش جمعه كان معروفا بـ "جمعه طروره" وهو من سكان العباسية وقد أشتهر بخفة الظل. وبجسمه الرياضي صار ضابطا في عهد عبود ولكن بالرغم من أنه كان لا يشرب ولا يدخن إلا أنه كان "يحضِّر الملعب" كما يقولون والمزّة لأصدقائه الذين ينهون القعدة بسب عبود والنظام العسكري. فقال لهم أخيرا "هوي عبود مالو، بطال كيف؟ كل صباح بخت لي اتنين جنية في يدي. والبتتسمو فيه ده ما من القروش دي. أنتو عاوزين تدخلوني في مشاكل اترفد واتسجن ... تاني ماتجوني" .

فريق استاك الذي صار اسمه التحرير فيما بعد كان بعبعا يخيف المريخ ويهزمه ويخسر أمام الفرق الأخري. أما فريق الشاطئ فقد كان يخيف الهلال وعندما انهزم الشاطئ وتأكد نزوله إلي الدرجة الثانية كانت جماهير الهلال الأكثر سعادة وهتفوا "إلي الليق ياعو اليق" فريق الشاطئ ارتبط باسم

الرياضي الكبير طه حمدتو الذي كان يذيع الكرة في الراديو ولا يزال الناس في امدرمان يقولون عندمتا يتوقف أحدهم عن الكلام ويبدأ آخر وعندما ينصرفون لحضور شخص "والآن اترك الميكرفون إلي زميلي ابارو" وهذا ما كان يردده طه حمدتو قبل تسليم الميكروفون.

من الجمل الرياضية التي كان يرددها الناس في ام درمان حتي في المناسبات غير الرياضية بمعني أن الأمر يمكن أن يكون اسوأ عبارة "ولولا براعة الشبل بنضر ..." وذلك إشارة للمباراة التي خسرها الشاطئ بخمس اصابات فقال المعلق الرياضي : "ولولا براعة الشبل بنضر لكانت النتيجة اسوأ" .

الاستاذ خالد ابو الروس أشتهر اجتماعيا بجملة إرتبطت به وهي : "شوهد في المولد يتجول بمفردة" فقد كان للأستاذ خالد ابوالروس دكان في ميدان المولد لبيع الحلوي يقع في الركن الشمالي الشرقي بالقرب من دكان العم حجوج وخضر الحاوي وكان يكتب اسماء الطلبة الذين يشاهدهم يتجولون بمفردهم في المولد مما يعني أن عقابا صارما ينتظرهم . فالمدرسة والمدرس كانا مسئولين عن الطالب حتي خارج المدرسة وكم ضربنا لأن مدرسا قد شاهدنا نلعب البلي أو "طره وكتابة" .

كل الكبار كانوا مسئولين عن تربية الصغار في ام درمان ، ولقد أخذنا علقة في مرات كثيرة من أشخاص لا يمتون لنا بقربي. الأستاذ مكاوي حاج بلول من مدرسة سوق القش سكن جارنا في حي الملازمين وكان متزوجا من الجودلية أبو القاسم، قريبة والدتي، وسوط عرسه لا يزال جديدا ولقد استعمله في ضربي أكثر من استعماله للهز في عرسه .

ولبعد المسافة من سوق القش أراد أن يتعلم ركوب العجلة "علي كبر" وكنت أحضر له العجلة من ميرغني الريس العجلاتي في حي الملازمين ولأن العجلة كبيرة فقد كنت اركبها "مقص" تحت الكدر. وبعد عدة محاولات في الحوش أقتنع بأن العملية غير مجدية فلقد امتلأ جسده بالخدوش و (الظلطات). واحتفظنا سويا بالعملية "كسر حربي" . واقلع بعدها عن ضربي . وهذه أول مرة افشي هذا السر .

من النظار المشهورين في ام درمان، شيخ شعيب، ناظر مدرسة بيت الأمانة الأولية ويسكن ودارو وقد أشار إلية ابن الأخت دكتور عارف في أحدي مقالاته. شيخ شعيب كان مدرسا رائعا يشد الطالب لدروسة خاصة عندما يتحدث عن الصحابة فينفعل ويحكي لنا كيف أن سيدنا علي انتزع باب الحصن وحمله كدرع لمحاربة المشركين ثم يرفع التربيزة في حركة تمثيلية وكأنها باب ذاك الحصن. فقد كان قويا يرتدي دائما القفطان فوق الجلابية كما كنا نذهب لمنزله في المساء لدروس العصر .

وأصبح مضرب المثل في ام درمان. فعندما يحاول شخص ما تعليم الآخرين كانوا يقولون له : "خلاص يا شيخ شعيب" . لازمتنا هذه العبارة في شرق اوربا واسكندنافيا واستعملها حتي الذين لم يسكنوا ام درمان .

شيخ شعيب يمت بالصلة للعم حسين والد الباقر وحيدر وآخرين .. العم حسين شريك العم نورين والد الطيب وآخرين في مصنع الحرية الذي كان المصنع الوحيد في ام درمان الذي ينتج الليمونادة .. بعد أن توقف مصنع الارمني نظاريت ايمريان . وقبل هذا كان لمحمد صالح الشنقيطي مصنع

صغير لليمونادة . الحرية كانت صفراء اللـون وتناضـل عـن طريـق الدعايـة المكثفة ولهذا عندما يكثر أي شئ كانوا يقولون في ام درمان "كثـير زي دعايـة الحرية" .

من أحدي وسائل الدعاية، أنه عندما تنزع قطعـة الفلـين مـن سـدادة الزجاجة وتجد رسم الشعلة الذي هو ركز المشروب فيمكن أن تكسب خمسين قرشا .

لاعب الكرة المشهور عصمت معني كان مهذبا ويمثل ابناء ام درمـان في ذلك الوقت. وفي ايام ديكتاتورية عبود شاهد مرة الوسيلة وزميل آخر من زعماء الحزب الشيوعي. والاثنان كان مطلوب القـبض علـيهما . فنـادي عـلي الوسـيلة قـائلا "اركبوا،الحتـه دي مامـضمونة" واوْصـلهما إلي وجهـتهما . عصمت كان وقتها ضابط بوليس، كما أنه لـه موقـف آخـر إذ رفـض في ايـام الدكتاتورية أن يعمل في جهاز الأمن وجر علي نفسه بذلك غضب الحكام.

بعد القبض علي الاسلحة والذخيرة في بداية عهد مـايو كـان البـوليس يبحث بشدة عن يوسف عبد المجيد سكرتير القيادة الثورية "الصينية" وكـان معروفا أن من يقبض علي يوسف عبد المجيد-الذي كان مختفيا لمـدة طويلـة- سيكافأ بسخاء. وتصادف أن دخل الضابط الدابي بالصدفة في مكان ما بمدني فوجـد يوسـف جالـسا وعنـدما رأي انزعـاج يوسـف قـل ببساطة قبـل أن يجلس"يعني معقول يا يوسف ابلغ عليك؟"... هكذا كان الرجال قديما .

من الاحداث المشهودة في دار الرياضة في الخمسينات العـرض الرائـع الذي قدمه النمر السوداني باسم نـادي الهـلال. وكـان يمـسك بعـربتين كـل

واحدة منها تحاول الانطلاق في إتجاه مضاد.. كما رفع حمارا بأسنانه ورقد علي مرتبة من المسامير ووضع حجر طاحونة علي صدره وقاموا بتكسير حجر الطاحونة بمرزبات .. إضافة إلي فقرات أخري كانت حديث الناس . النمر طوّف كل العالم قبل رجوعه إلي السودان. وعندما كنت اذهب لاصطياد القمري بالنبلة في حمد النيل كان النمر نزيلا في المصحة وقد فتك السل بذلك الجسم القوي .

النبلة كانت مكملة لشخصية أغلب الصبيان في ام درمان.. في منطقة العباسية والموردة عرف "عكرا" بأنه أحسن من يستخدم النبلة. فقد ضرب قمرية وهي طائرة . في منطقة ودنوباري كان عمر بريمة صديق الطفولة من أشهر الذين حملوا النبلة .

سمعنا ممن هم أكبر منا قليلا عن حائط الموت الذي هو عبارة عن مبني اسطواني وفي داخله كان يدور حفيد الزبير باشا بالموتر بسرعة شديدة كما نشاهد الآن في الأفلام الأمريكية. ونمر الاستنت مان وكان الناس يأتون من بعيد لمشاهدة هذه النمرة .

سيف أحمد بابكر المعروف بسيف ماطوس رحمة الله عليه كان يقدم عرضا رائعا في دار الرياضة وهو لا يزال صبيا صغيرا. إذ يحضر وحيدا ويقدم فاصلاً بالكرة في فترة الهاف تايم. ويضقل بالكرة ويحتفظ بها في الهواء بين كتفية ورأسه وقدمه طيلة فترة الهاف تايم ... سيف ماطوس لعب للتاج والحريقة وكان من اولاد ام درمان المدردحين.

الحريقة كان أحد الايتام التي ضمت خيرة اللعيبة من منطقة حي العرب والمسالمة وغرب السوق وكانوا يشعلون الحريقة بعد انتصاراتهم. سيف ترك بصماته في كوبنهاجن في الستينات ورجع في نهاية الثمانينات ليدفن في ام درمان. في السبعينات كان له مطعم مشهور في ام درمان اسمه"سفاسف" حاولت البلدية أن تجبرة بكل الطرق أن لتغيير الاسم الا أنه كان يتحايل عليهم.

شيخ الدردحة في ام درمان هو عزالدين كبوشيه وهو من الأخوة الذين كانوا أكبر منا قليلا ويسكن مع أهله وأخيه خالد الأكبر الذي يعمل كجزمجي بالقرب من حوش القزاز ومنزل عبد الله خليل والصبية لا يزالون يغنون تلاته أولاد في الورشة وعزالدين سرق الكرشة. تلاتة أولاد في الظبطية وعزالدين سرق الطاقية ... إلخ" وفي النهاية يقولون "عز الدين كبوشية طلق مرته الحبشية".

عندما رفضت والدة عز الدين أن تغطية شلنا قام بالقاء نفسه بطريقة اكروباتية تحت قندران. فمر القندران والترلة من فوقة دون أن يمس بأذي فأنخلع قلب والدته واعطته الشلن. عز الدين كان صديقا لنميري في فترة من الفترات قبل أن يتنكر نميري لاصدقائة واعتقل صديقة مولي أحد ظرفاء ام درمان وكان يعترض موكب نميري بموتره.

الكل يتحسر علي الترام سواء من حضرة أو سمع به والتخلص منه كان من الغلطات الفاحشة. والترام كذلك قد سبب بعض المآسي لعدم الوعي.. الفنان عبد الدافع عثمان عاش أغلب حياته معوقا لأن ترام الموردة

قطع رجله وهو صغيراً. "ضُقنا" كان صبيا شقيا في بيت المال-منطقة دكاكين الطاهر خال العيال والطاحونة-قطع الترام يده اليسري فوق الكوع واليمني تحت الكوع ولا ادري كيف سلم رأسه .. ضقنا كان يلعب البلي بقدمه ويلعب الكرة كما كان كثير العراك .

رأيته مرة يلقي بأحد الصبية بين جوالات العيش في دكان الشايقي. ويضع يده اليمني خلف عنقه ويضغط علي حلقة باليسري إلي أن صرخ الصبي وكان بارعا في استعمال قدمية في الركل وفتح الباب ومسك الاشياء . ويلعب طره وكتابة بقدمه، وعندما يكسب يقذف بالتعريفة في الهواء فتسقط في جيب قميصه وكأنه لاعب اكروبات وإذا حاول أحد الصبية أن يخطف تعريفته كان ضقنا يضغط علي يده حتي يصرخ.

أغلب هذه الحوادث كانت بسبب محاولة تفادي الكمساري .. فمن العادة أن لا يدفع الصغار ولا أذكر أبدا أنني قد دفعت للترام إلا عندما نكون في طريقنا إلي الخرطوم أو يحدث أن نصطدم بالكمساري.

صديقي عبد العظيم مهدي عبد الرحمن كان هادئا مؤدبا إلا أنه ينقلب إلي أسد لأقل أهانه . ولقد رأيته يهاجم كبار فتوات العباسية .. أحدهم حسن دين رحمة الله عليه . أراد الكمساري أن يضرب عبد العظيم فدافع عن نفسه كعادته . عبد العظيم صار فيما بعد مديرا للكلية الحربية .

في يوم المحكمة رافقت عبد العظيم ولأننا توقعنا الجلد فأشرت لعبد العظيم بحيلة قديمة هي أن يسف كمية كبيرة من الشطة لتصير عيونه محمرة

وأنفه سائلا ولأن ميزان الحرارة يوضع تحت اللسان فسيقول الطبيب أن حرارته مرتفعه ويكتب علي الاورنيك "غير صالح للجلد علي الاليتين". وأحضرت كمية ضخمة من الشطة ولم يحضر الكمساري وشطبت القضية والألم الذي أحس به عبد العظيم بسبب الشطة استمر مدة أطول من الجلد الذي لم يحدث ... هذه الحادثة كانت في مارس 1957 علي ما اذكر .

ميدان البحيرة الذي خرَّج كثيرا من لاعبي كرة القدم، خاصة منطقة أبوروف وبيت المال والملازمين. كان يمتلئ بمياه الأمطار ويكُوِّن دلتا لعدة خيران أحدها الخور الذي يأتي بالأمطار من فريق اسحق والشهداء ويمر بمنزل الرئيس الأزهري ومدرسة الاهليه ثم جنوب سوق حي الملازمين حيث يصير واسعا وتنمو أشجار السدر والتنضب علي الجانبين. التنضب أشجار زاهية الخضرة لاصفق لها وتعرف ثمارها الحمراء بالحنبك .

كلما أقابل أحد أبنائي الكبار مصحوبا بإصدقائه أعطية نقودا وأعطي أصدقائه مما يثير دهشة الأصدقاء لأن هذا شئ غريب في السويد.

في ام درمان كان الأطفال والشباب يتلقون منحاً من أصدقاء العائلة والكبار في الحي ... في عيد الأضحى في سنة 1959 ذهبنا تاني يوم في العيد لزيارة الضابط خلف الله قسم السيد المشهور بـ "الكبتن" لأن العم قسم السيد كان نقيبا في الجيش وخلف الله من مشاهير أم درمان وهو صاحب المقلب المشهور الذي كان ضحيته اللواء دار صليح.

خلف الله كان جيس أشلاق في سلاح المهندسين بأم درمان وكلُّف

أشقاءه الصغار وأصدقائي محمود حليم بتوصيل بعض الملابس وكان يصحبنا من الموردة النيع، فضل الله العضلة، وهاشم .. فأعطانا خلف الله عيديه نقدية مساوية لاشقائة. تلك آخر مرة أقابل خلف الله رحمة الله علية ولكن تلك الروح لم تفارقني.

الأخ النور موسى من الإذاعة احتفل بداره الجديدة في الثورة واجتمع ظرفاء أمدرمان فطرق الباب شخص يسأل عن منزل شخص آخر فعرفه النور وطلب منه الدخول لمباركة الدار فبدأ مستعجبا وسأل عدة مرات: النور ده بيتك النور ده بيتك؟! ده بيتك؟! . فقال النور: «أنتا ليه مستغرب أنو عندى بيت؟ ليه ما يكون عندى بيت؟ أصله أنا سكينكم؟ ولم يفهم الآخرون. إلا بعد أيام عندما وضح لهم النور بأن الزائر جزاراً. وسكين الجزار ما عندها بيت؟!».

هنالك خور أصفر يحمل مياه حي الملازمين ماراً خلف منزل العم محمد أحمد عبدالقادر ليصب في ميدان البحيرة والفائض من المياه في الميدان يجد طريقه عبر الفتحة في الجزء المتبقي من سور أم درمان القديم وتحت الجسر على الشارع مخترقا جنينة السيد الهادى حيث ترسو باخرة السيد عبدالرحمن «الطاهرة» والرفاصين الصغيرين الصفا والمروة.

الخور الذي يصرف مياه الأمطار في السوق يمر بنادي الخريجين ومستشفي أم درمان ومدرسة الأمريكان ويجري بالقرب من منزل السيد الصادق المهدي ومستشفي الملازمين الخاص، ليصب في النيل شمال الإذاعة.

هنالك خور ثالث يمر بجنوب الإذاعة مباشرة وفي كوبري هذا الخور

كان يسكن العم بخيت المشهور بأبو الجوخ لعشرات السنين.. أبو الجوخ كان مثقفا. خور أبو عنجة كان أكبر خور وسط أم مدرمان لأن خور عمر وخور شمبات كانا خارج أم مدرمان.. وفي خور أبو عنجة تصب عدة خيران خور العرضة المبني بالحجر وعليه مايزيد على ستة كبارى.. خور العرضة يجرى من الشمال إلى الجنوب على عكس الخيران التي تجري من الغرب إلى الشرق،، فالسيول تأتي من المرتفعات والتلال مثل: كررى والمرخيات . خور العرضة يمر شرق السينما وزريبة الحطب لكي يلاقى خور أبو عنجه في فريق جبر الله وفريق حمد.

خيران حمد النيل تصب كذلك في خوار أبو عنجه، ومياه بانت كانت تصل النيل شمال مدرسة البوليس وجنوب كازينو النيلين أو جامع النيلين الآن.

مياه العباسية شمال والرباطاب تجرى في الخور الذي يمر "بشركة النور" الإدارة المركزية الآن ومدرسة المهدي للبنات،قبة الشيخ البدوي، سوق ام سويقو بالعباسية-لأن هنالك ام سويقو في بيت المال-ثم جامع قدح الدم عابرا شارع الفيل أمام منزل الأمير صديق منزول والقصر وجامع الادريسى ثم يخترق الموردة لكي يلاقي النيل جنوب الريفيرا.. هذا الخور يمر وسط الشارع وهو ليس عميقا مما كان يعطينا فرصة لأن نسابق الماء.

مياه الهاشماب والدايات ودار لرياضة وفريق ريد تمر ببوابة عبد القيوم لكي تصب في النيل جنوب الطابية.

أمطار ود اللدر ودنوباري وزمراوي والدومة تصب في النيل عن طريق حفر ود التويم والقماير.

خور المسالمة يأخذ الماء من حي العرب ويمر بدكان برعي المشهور رحمة الله عليه وشقيقه المقاول قدوره كما يمر هذا الخور بمدرسة ست فله وجامع الشيخ قريب الله في الهجرة ويواصل طريقه إلي روف .

مياه بيت المال وود البنا تصب في النيل عن طريق ام سويقة جنوب أبوروف والخور الكبير الذي يمر تحت كوبري شدرة آدم.

ولأن ام درمان لم تكن قد نفضت عنها رداء البداوة فلقد كان البشر يستبشرون بالأمطار والأطفال يخرجون وكنا نجري ونمرح في الأمطار ونرقص وندور كرقص الدراويش الاتراك ونغني " ديرا ديرا يامطيرا صبي لينا في عينينا" ولا يزجرنا الكبار.. ومع الخريف تكثر الطيور وتكتسي الخيران بالخضرة وميدان البحيرة يتغطى ببساط أخضر وتمتلئ البرك في العرضة ويسبح الأطفال في البرك في ام بدة وأماكن أخري وننصب الشراك للطير.. والأنسان في هذه الحالة "كاجي" وهذه العبارة كانت تستعمل في التجارة أو عندما يكون الانسان مترقباً مرور الحبيب.

الشرك المعهود هو القلوبية وهي حلقة من نصفين وياي يشدها وطعم وعندما يجذب الطائر الطعم تنطبق القلوبية عليه، ولهذا قد يقال عن شخص يقبض الناس أو يفرض رأية بأنه قلوبية، زي ما أنا دلوقت عامل مع القراء . القلوبية كانت تباع بقرش أو قرش ونصف ويمكن أن تقبض القطا، القمري

أو البلوم والثلاثة متشابهة إلا أنها مختلفة في الحجم .. للإيقاع بام قيردون كنا نغني : "ام قيردون الحاجة الكل صباحا داجا" ونغني للغباشي : "ياغباشي شركك طاشي .. با أبوحوة شركك لوا" .. ولا أدري لماذا أبوحوة ؟!

أم قيردون صغيرة الحجم بلون رمادي وخطوط سوداء أبو الكداد في حجم أم قيردون إلا أن لونه يميل إلي السواد وله قجة صغيرة قدوم أحمر يأكل الثمار ومشهور بمنقاره الأحمر . أبو سنيفة طائر ممتلئ غير حذر ولهذا يسقط كثيرا في الشرك خاصة شرك السبيب الذي هو انشوطة "زردة" من ذنب الخيل .. يقولون للشخص دباس بمعني أنه في غفلة وطير الدباس كان غبيا .

هنالك بعض الطيور التي لا تنزل أبدا إلي الأرض مثل قرين حشاش وشكله يشبه الملودة أو النجام الذي يستخدم في الحش . شاويش أبو صفارة له صوت جميل ومنقار معكوف وألوان جميلة ولا يأكل إلا الثمار ولهذا لا ينزل الأرض أبدا .. علاجه الوحيد النبلة .. إلا أن قرين حشاش يطير عاليا ولا يترك فرصة لاصطياده .

الزرزور وود ابرق كنا نصطادهم بالشبكة في ميدان البحيرة والشبكة مثلثة بوتدين وحبل طويل يسمي الحراب ويجرا أو يشد بعيدا وهنالك عصا اسمها التوار يثبتها وتد ثالث وعندما يرفع الحراب تنقلب الشبكة علي الطيور التي تكون قد حضرت لأكل الولفه . الولفه هي الحبوب التي تنثر للطيور حتي تتعود علي المكان وتطمئن ولهذا يقال لمن يحضر للزيارة "أنت والله الا يعملو ليك ولفه"

في أمد رمان القديمة لم تكن هنالك ألعاب أطفال جاهزة، إلا في نطاق

ضيق جدا، بعد أن أفتتحت شركة الطـوخي وشركـة وادي النيـل في المحطـة الوسطي والدراجات لم تتوفر إلا لعدد قليل من الأطفال. ولكـن كنـا نقـضي وقتا رائعا ولنا عالم كامل باقتصاده ونقده وضوابطه وقوانينه، حتي الراديـو لم يكن يشدنا في صباح يوم الجمعة،مع العم أبابين في برنامج الأطفال.

من الأسلاك والصفيح كنا نصنع عربات بدركسون طويل ونتباري في تزيينها وقيادتها والطفل عادة يتطور أكثر عنـدما يـصنع ألعابـه بنفـسه. ومـن القصب نصنع صفارة ونعزف عليها انغاما بسيطة وهنالك الزنانة وهي عبارة عن غطاء اليموناده المبطط بثقبين وخيط في الوسط.. الترتارة كانت لا تفارق يد بعض الصبية وهي عبارة عن "الحلقة الـسميكة" مـن البراميـل الحديديـة ونصنع لها مقبض من السلك المعكـوف يـسمي الكـاف.. والمحفـوظين مـن الأطفال تتوفر لهم ترتارة عبارة عن عجلة دراجة قديمة يسوقونها بالمسواك أو عصا صغيرة .

البنات كن يصنعن عرائس "بت ام لعاب" مـن الخـرق ويـصنعن لهـا شعرا طويلا وسريرا من القصب ودولاب وتربيـزة كـذلك.. الـبلي كـان لـه موسم كبير وموسم صغير والموسم الكبير في الأجازة الشتوية وهنالك نوعان من اللعب، الأول درداقي واللاعب يجلس علي الأرض ويـستعمل أصـبعين في اللعـب وهمـا الوسـطي والـسبابة والنـوع الثـاني وهـو المعتـاد ويعـرف بـ"طرنقاش" واللاعب يكون واقفا، البلي يباع خمسة بليـات بتعريفـة الحجـم العادي وظهر ما عرف بــ "ضراب كوريـا" وهـو ضـخم ويـساوي تعريفـة للقطعة الواحدة وهنالك ضراب الموية والجلة وهي من الحديد وكنا نـستخدم بلالي سيارات الشحن.

في الخريف تكثر الحشرات الملونة خاصة ما يعرف بالكدندار .. كدندار الحنة ويتواجد في أشجار الحنة المزهرة وهو في حجم عقلة الأصبع ويربطه الصبية بخيط فيطير ويطن في الهواء. كدندار البقر هو العادي وله أجنحة صلبة تحتها أجنحة شفافة . وطوله حوالي4أو5 سنتيمترات.. الكدندار الضاني بحجم كدندار البقر إلا أن علي ظهره خطوط طويلة . كدندار الطلح ضخم، لونة أحمر طوله يقارب العشرة سنتيمترات وهذا النوع يباع بتعريفة.. الكدندار البقري يمكن أن يباع ثلاثة أو خمسة بتعريفة .. الجوهرة نوع طويل رفيع بألوان جذابة جدا يطير في وضع أقرب إلي الرأسي وهو نادر ويباع بتعريفة أو قرش .. هذه الكدندارات كنا نضعها في صناديق ونطعمها فتضع بيضا .

من العاب الطفولة التي يلعبها حتي الكبار "صفرجت". وهي عبارة عن تسع حفر ولاعبين أثنين ولكل لاعب ثلاثة أحجار يحاول أن يضعها في خط مستقيم واللاعب الأخر يحاول أن يفسد خطته.. وعندما ينجح اللاعب يقول"صفرجت" وهي كلمة تستعمل في أوجه الحياة الأخري إشارة للنهاية أو عندما يشرب أحدهم مقلبا .

السيجة لعبة أخري تتكون من خمسة وعشرين بيتاً أو حفرة ولكل لاعب 12 حجراً أو كلباً ولهذا يقول المثل«السيجة ناقصة كلب» كما يقولون كذلك لمن يخطيء «السيجة غلطة» لأن من يخطيء في السيجة يفقد المباراة في الغالب.

المنقلة لعبة معقدة قليلا وتتكون من عشرين حفرة كبيرة لكل لاعب

عشر حفر وفي كل حفرة خمسة حجارة، في البداية . وتحتاج لعملية حسابية وسرعة بديهة.

• اللعبة التي كان يشارك فيها البنات والأولاد هي «هودنا» ولها كذلك خمسة وعشرين حفرة والغرض أن يمسح الإنسان حفرة من جفر الخصم في كل مرة يكسب، إلى أن تخلص . حفر الخصم وهذه اللعبة تحتاج لتعاون وقوة ملاحظة وقليل من علم النفس ولها أغنية «هودانا يا هودانا ما شبعت ياجنا، الليكو يا جرقاس الليكو ما كلبى الليكو كلب الناس.. إلخ» وأثناء الغناء من المفروض أن يتفق الزميلان على حفرة واحدة ويذهب أحدهم بعيد ليرجع محاولا أن يتعرف على نفس الحفرة التي أشار إليها زميله وإذا نجح يمسح أحد حفر الخصم وإذا فشل تمسح إحدى حفره هو ، إلى أن ينهزم أحد الفريقين.

بسبب هذه اللعبة يطلق اسم جرقاس على الكلاب، وعندما يرتبط اثنان ببعضهما يطلق عليهما الليكو وجرقاس. وعندما لا يفهم أحدهم ويطالب بإعادة الكلام يقول حتى الكبار «هودانا يا هودانا ماشبعت يا جنا».

«سكج بكج» أو الضقل عبارة عن عصا صغيرة لا تزيد عن عشرين سنتيمتراً تحفر تحتها حفرة صغيرة ويدخل أحد الصبية عصا طويلة تحت الضقل ويقذف به بعيداً ويحاول الصبية من الفريق المنافس إلتقاط الضقل في الهواء قبل أن يصل إلى الأرض.. والإشارة للاستعداد يصرخ اللاعب «سكج» ويرد الآخرون «بكج» ويقول اللاعب مرة أخرى «البلوله بت البيه» ويردون «طبتو وقامت بيه» وعندما يفشل المنافسون في التقاط الضقل في

الهواء يوضع الضقل في الحفرة ونصفه خارجها ويضرب اللاعب رأس الضقل وعندما يرتفع الضقل يضربه بالعصا لكى يطير لأ بعد مسافة .. وإذا ضرب الضقل ولم يرتفع يمكن أن يعيد المحاولة إلا إذا أسرع أحد الصبية قائلا : «قام ما قام شم الأرض نام»..وفي أم درمان سمعت حتى الكبار يقولون عندما يضعون شروطا لشخص في تجارة أو أي معاملة «قام ما قام شم الأرض ونام».

الفريق المنتصر في الضقل يمتطى المهزومين كحمير من المكان الذي سقط فيه الضقل إلى الحفرة وهذا كان يحدث بروح رياضية وتقبل للهزيمة . هذه الأشياء جزء من تراثنا ويجب أن لا نخجل منها وننظر إليها كسخافات وتفاهات والأمريكان والأوربيون يحاولون أن يحتفظوا بهذه الأشياء ويطوروها.

الكدة والعصا اختفت في أم درمان بعد أن ظهرت «الكورة» أو كما يقول الكبار «التيوه» .. الكرة والعصا تشبه لعبة الهوكى وكانت الكرة في الغالب تصنع من الدوم.

ألعاب الليل والمساء مختلفة عن ألعاب النهار.. أهمها سك بالتحية أو «حرينا» وينقسم الصبية إلى فريقين ويحاول الفريق الأول أن يقبض على كل أعضاء الفريق الآخر ليضعهم في مربع يقوم مقام السجن ولكن إذا أفلح الفريق المطارد في أن يمكسوا بيد أحد زملائهم الذين داخل السجن يطلق سراحهم. وتستمر اللعبة إلى أن يقبض على كل الفريق فيصير الفريق الأول حارساً للسجن والفريق الثاني مطارداً. وقد يقول الإنسان شاكيا من تعب الدنيا والجرى . «انحنا طوالى في سك بالتحية».

صديقنا رشاد في السردارية اختفي اثناء اللعبة حرينا حتى بعد أن قبض على كل زملائه. ثم أتت جدته تتوكأ على عكازها ملتحفة بثوب الزراق. وفجأة يطرح رشاد ثوب الزراق ويلقى بالعصا ويطلق سراح زملائه. رشاد الآن حداد ماهر في المنطقة الصناعية ويسكن العباسية وكلما أقابله نضحك على تلك القصة عندما تنكر في زي جدته.

«شدّت»: هذه اعنف لعبة والقصد أن يقفز اللاعب على قدم واحدة طيلة مدة اللعبة دافعا الفريق الآخر بيده وجسمه لكى يسقط على الأرض أو لكى يطلقوا القدم التي يشدونها بأيديهم خلف ظهورهم والقصد أن يصل لاعب معين إلى خط النهاية . وهذا اللاعب يسمى بالعروس وعندما يصل لخط النهاية تسمى هذه «بعرسه» .. شيء شبيه بكرة القدم الأمريكية.

«الرمة والحراس».. صبى يجثو على يديه وركبتيه ويحاول صبى آخر أن يدافع عنه «حراس» .. بقية الصبية يعقدون ملابسهم في أحد الأطراف ويقومون بضرب الرمة إلى أن يقبض الحارس على لاعب. فيصير هذا اللاعب هو «الرمة» لكى يضرب . أحد الصبية قد يعقد حجرا أو قطعة من الطوب لكى يصفى حسابات قديمة مع الرمة ومن الصعب معرفة من هو الضارب أو أن «يتغاتت» الحراس ويقف بسلبية وعندما يكثر الضرب يبدأ الرمة فى الجرى أو الهرب وسط ضحك الآخرين.

«شليل وينو» : هذه اللعبة مناسبة فقط في الليالى القمرية. وشليل عبارة عن قطعة عظم ضخمة ويصرخ أحد الصبية «شليل وينو؟» فيرد الأخرون «ختفو الدودو» ،، شليل وين راح؟ .. «ختفو التمساح».

ثم يقذف الصبى بالعظم ويبدأ الآخرون في البحث عنه ، ومن يعثر عليه يتظاهر بأنه لا يزال يبحث عنه، ثم ينطلق في غفلة من الآخرين على «لميس»، ثم يقذف هو بالعظم . عندما يجرى اللاعب نحو الميس يحاول الأخرون انتزاع العظم منه. والقصد أن اللاعب متماسك الأعصاب وهو يخفى العظم جيداً حتى ينتهز الفرصة المناسبة للاندفاع في هذه اللعبة التي يعتمد فيه كل لاعب على نفسه . الفكرة هي الاعتماد على النفس.

ومن العادة أن يقول الناس ساخرين عندما يضيع شيء : «شليل وين راح؟» . امتع شيء بالنسبة للأطفال قديما في أم درمان وكل السودان هو «الحُجى» وكلها تدور حول حسن الشاطر وفاطمة السمحة أو فاطمة قصب أحمر والغول . إلخ.

الحجى القصار عبارة عن ألغاز وهنالك المئات منها والمؤلم أنها لم تجمع .. منها مثلا : عريان ويكسى السلطان– المقص. طويل وما يلحق الكعكول، الإجابة:الدرب. دخل القش وما قال كش – الضل. فتحوها فتحة كتاب فيها الأكل والشراب – البطيخه. أولادى من الفزع رابطين رأسهم من الوجع– القطية. شيء رطب وشيء فضه وشيء دهب – البيضه . كان شالو ما بنشال وكان خلو سكن الدار – الرماد. كان خلو سكن وكان شالو رطن – الجنزير . عينى فيها دخلت واديها – القملة . قديما في أم درمان كنا نقضى ليالى طويلة بين الاحاجى الطويلة والقصيرة وهذا يشحذ ذكاء النشء.

أول مرة أذهب إلى طبيب الأسنان كان في السويد وأنا في العقد الرابع من عمرى ولم يصدق الطبيب عينيه وقال لي: أنك لم تكثر من أكل حلوانا

المفضلة. وحلوانا في أمدرمان كانت الدوم وكنا نشتريه خمسة بتعريفه أو أربعة مدقوقات «منزوعة القشر» وهناك قراصة النبق بتعريفة للقراصة والقضيم والقونقوليس واللالوب و15 تمرة بتعريفة والرطب قد نشتريه عشرة بتعريفة أو عشرين في بعض الأحيان إذا كان صغيراً.

عندما يتوفر لنا بعض المال في العباسيه كنا نحتفل بشراء «كنكنه ومررو»الكنكه هى البطيخ بلغة اخواننا الفلاته والمررو هو الفول السودانى المدمس وهذه الخلطة رائعة خاصة عند تناولها بعد السباحة في النيل.

عرفنا الدندرمه وهى تشبه الايس كريم تباع في عربات يدفعها صاحبها وينادى عليها بالبورى والكاس بتعريفه . قديما كان يمكن أن تجد مليما كحافز فى قعر الكاس.. حتى في بداية الخمسينات كان يمكن أن نشترى بالمليم .

والكبار ما زالوا يقولون «ماعندى فرطاقه». العم بدوى مصطفى وزير المعارف سابقا وتاجر الجلود لا يزال يقول عندما يناقش صفقاته «ما اديك فرطاقة زياده».

حلاوة قصب كانت تشبه القصب وهى إما بيضاء أو ملونة بالتفته . والسعر تعريفة للقطعة وهنالك عصاية موسى بخطوط حمراء وهناك أيضاً حلاوة جعبات سكينة وهى بنفس المواصفات ولكنها فى شكل كرات صغيرة وتباع خمسة بتعريفة .. كل شيء كان يدور حول التعريفه وقديما كان القرش يقسم إلى أربعين وحدة وهنالك شيء يسمونه عشرة فضة وتساوى ربع

القرش ولهذا يقول المثل «ملوخية بعشر فضة ولا جميلة الخولى». بمعنـى شراء الشيء بالمال خير من التذلل.

النساء كن يبعن كل هذه الأشياء ويجلسن في أماكن استراتيجية خاصة أمام المدارس.. وفي أم درمان يقول الحكام ، رجال الأعمال، الكبار والـصغار «ادينى تقرير النخيل»..النخيل كانت تجلس أمام مدرسة أبو روف لما لا يقـل عن أربعين سنة وتبيع هذه الأشياء.

نظار المدارس كانوا يحاولون الظهـور بمظهـر مـشرف أمـام المفـتش. ورجع أحد المفتشين بتقرير رائع عن مدرسة أبو روف. فقالوا لـه في الـوزارة «امشى جيب لينا تقرير النخيل» فالنخيل كانت تعرف كل كبيرة وصغيرة عن المدرسة والآن تستعمل هذه العبارة عندما يطالـب شـخص بالحقيقـة بـدون تزييف أو رتوش. هؤلاء النسوة يناديهن الصبية بحبوبة حتى إن لم يكن كبـارا في السن .. حبوبة النعيمة كانت تجلس أمـام مدرسـة الأحفـاد بـالقرب مـن المجلس البلدى ولأنها رباطابية فكانت تعتبر أنهـا المالكـة للمدرسـة. حبوبـة عزيزة كانت أمام مدرسة الهجرة بشارع ودنوباوى. حبوبه الصبر كانت أمـام مدرسة الارساليه.. حاجه حوا أمام مدرسة الأحفاد في العرضه.

حبوبه زينب كانـت تـدير بوفيـه مدرسـة الاحفـاد لعـشرات الـسنين وتساعدها ابنتها وهييه عبدالله أحمد وتمتاز بالاكل الجيـد والنظافـة الـشديدة ، وهييه ألمت بها مصائب السودان فقد اختفـى ابنهـا الوحيـد منتـصر مـع كـل الشباب الذي اختفى أخيراً وهي تعـانى مـن مـرض الـسكرى وقـد قطعـت رجلها اليسرى.

النخيل الأخرى التى حازت على شهرة في أم درمان شارع الفيل هي عمتنا الرباطابية والدة إبراهيم الشيخ رحمة الله عليه – من ظرفاء أم درمان شقيق عز الدين وآخرين – وهى جدة لاعب الكرة والدفعة محمد النقر والفاتح النقر اللاعب والمدرب وشقيقهم الاصغر مصطفى النقر لاعب الكرة الدولى.

الآن يختفى الشباب في السودان لأن الجبهة تسرقهم أو لأنهم يتفادون التجنيد في أيام الحرب العالمية الثانية اختفى بعض الأطفال والشباب وفي الخمسينات كنا نسمع عن السماوى الذي يختطف الأطفال.

من الأطفال الذين اختفوا ، عبدالرحمن هوارى ويسكن بالقرب من فريق الشهداء وكان يذهب في الصباح مع امرأة في الحى تدعى عشمانه ترعى الغنم. وفي أحد الأيام لم تخرج عشمانه لمرضها ولكن عبدالرحمن خرج ولم يعد واتهمت عشمانه بسرقة عبدالرحمن والى أن ماتت لم تثبت براءتها .. وفى الخمسينات رجع عبدالرحمن وهو يتحدث الإنجليزية باللكنة الأمريكية كمهندس للرى وعرف أمه وأهله وساعده عبدالله خليل للحصول على عمل إلا أنه لم يستطيع أن يعيش فى السودان. ومن النوادر أن أمه وضعت أمامه ملاح ورق لأنه كان يحبه في صغره . فلم يفهم الحاصل وكان يظنه الطلاء الذي يطلى به السودانيون شبابيكهم وأبوابهم فكلها خضراء اللون.

من أصدقائنا محمود وعصمت العالم أبناء خال الأخ عبدالله محمد زين فقدوا شقيقهم الأصغر . الدكتور الطاهر أبو حواء فقد شقيقه الصغير.. القائم مقام مصطفى الكمالى اختفى ابن أخته قمر الجيل واسمه بدر الدين.

مجموعتنا في زريبة الكاشف فقدت زعميها قريب الله ابن العم كـاورو شـيخ العرامـه وهـو صـبى حـداد قـوى البنيـه وتـرك أشـقائه عبـدالرحمن وعبدالغفار وأحمد وآخرين يبكون عليه. الشريف يوسف الهندى خـرج ابـن أخته أحمد محمد دفع الله شبيكة ولم يعد. ميرغنى الحاج جار الفريق محمد أحمد زين العابدين خرج ولم يرجع واعتبره الجميع ميتا إلا أنه ظهر فجأة بعد سنين عديدة بعد أن قتلت أخته ونجا والده من الموت بصعوبة بسبب قضية طلاق.

أثناء وبعد الحرب العالمية ظهر كثير مـن الأغـراب والجنـود مـن عـدة جنسيات في أم درمان وبدأت الحياة في التغير.. أم درمان التي كانت أقرب إلى قرية ضخمة صارت مدينة مزدهرة وربما كان هذا السبب فى أختفاء البعض.

أحد الجنود الإنجليز كان يـسير عـلى مـوتر فى طريقـه إلى المعـسكر في وادى سيدنا عاكس فتاة سـودانية مـن أسرة محترمـة يرجـع أصـلها إلى شرق السودان وهي أسرة «ح» تسكن بين القلعة وودارو فذبحه شقيق الفتاة بـدون تردد. وهاجت أم درمان وحتى بعد أن حكم على الشاب بثلاث سنين سجن كان أهل أم درمان يظنون أن هذا الحكم مجحف . لم يقض الشاب كل المدة في السجن.. العم السراج جلد إنجليزيا بالكرباج حتى بكى.

الإنجليز كانوا يعرفون أم درمان ستلتهب إذا لم يكـن الحكـم خفيفـا. هذا في الأربعينات.. تصور ماذا كان سيحدث لمثل ذلك الشاب في بلـد آخـر إذا ذبح إنجليزياً؟

الجنود الذين كنا نراهم كانوا لطيفين مهذبين.. لابد أن قيادتهم كانـت

تحذرهم من أثارة شعور أهل أمدرمان وبينما في الخرطوم كانوا يمرحون وينطلقون في الجنائين والمسطحات الخضراء. ولكن في أم درمان كانوا جد حذرين.

حبوبه زايد المال كانت تبيع الفول والدوم والنبق في بيت المال بين قصر الشريفه ودكان ود الجاز المشهور. كانت جارتنا لبضعة أشهر في نهاية الأربعينات قبل أن ننتقل إلى حى الملازمين واذهب أنا إلى المدرسة.. وكانت تعطينا الفول حتى عندما لا يكون عندنا نقود . وخلفتها في هذه المهنة ابنتها عشه بت الرفاعى.

ابن عشة بت الرفاعى هو الحاج بارا أحد كبار فتوات أم درمان وهو قوى البنية طويل القامة له «تفه» كبيرة ويضع الكريز على ميزان العجلة.. بعد احدي المعارك، انتزع دبورة ضابط البوليس الذي حقق معه ومضغها قبل أن يبصقها في وجه ضابط البوليس.

الحاج كان فنانا وصنعته صائغ وعندما رجع من السجن كان قد رسم على الكوز رسومات جميلة تمثله عندما كان واقفا أمام القاض. كما رسم صورة كلبته الحبيبة .

منذ صغرى كنت أعرف أن الحاج خالى . وكلما يخرج من السجن أو يرجع من السفر كان يحضر لمنزلنا للتحية بالرغم من تنقلنا.

وأسفاره كانت تأخذه إلى غرب السودان والسودان الفرنسى «تشاد» ، وأذكر أنه رجع من إحدى سفراته بزوجة من غرب السودان تكاد أن تكون

صورة طبق الأصل من حواء الطقطاقة التي هي كذلك من كردفان. وكانت زوجته هذه تسكن عندنا أثناء أسفاره.

والآن عندما أسترجع الأمر أفكر في أنه لم تربطنا علاقة دم بالحاج وإلا كان أكثر قربا من أهل أمى الكثيرين فى بيت المال. وفي أم درمان قديما كانت علاقة الجوار والعشرة أمتن من علاقة الدم. ولقد كنت أحب الحاج وأظن أنني تأثرت به في شبابي . وعندما سألت زميل الدراسة في الثانوي تبيدى – لأن أهله صياغ– عن خالي الحاج قال مباشرة الحاج بارا؟ ! ده في زول ما بعرفه؟!.

الحاج ضاق بالدنيا في إحدى اللحظات، وحاول الانتحار .فابتلع ربع أوقية دواشات وربع أوقية نشادر وهذه سموم تستعمل في صناعة الذهب وتكفى كمية صغيرة لقتل رجل. الحاج لم يصب بسوء إلا بمغص شديد ثم إغماءة . واستيقظ بعد يوم وأصيب بإسهال. وكان يتذكر القصة ضاحكا، لأن حظه عاثر حتى في السموم لا تقتله.

أحد صناديد وشخصيات أم درمان الفذة هو خلف الله أحمد أو «ود صافيات» نسبة على أمه صافيات.. فمنذ أن فتحت عيني على الدنيا إلا وكان خلف الله أمامى في منزل إبراهيم بدري وهو بمثابة شقيقي الأكبر.

الزقاق الضيق المحصور بين شارع سوق القش وشارع البوسته، معروف بزقاق خلف الله. وفي هذا الزقاق، سكن خلف الله لعشرات السنين وكانت له لوارى نقل، وكلاب صيد رائعة. ولقد تتلمذ على يده أعظم رجال القنيص في أم درمان العم الشيخ تاتاى خال لاعب الكرة محجوب الضب،

والعم البنا. وفي نهاية كل أسبوع كان لورى خلف الله ينطلق للقنيص ممتلئا بالكلاب والرجال ويدين له كثير من شباب أم درمان في تعليمهم القنيص.

خلف الله كان من أشجع رجال أم درمان وأكرمهم. وعندما ذكرته لمحجوب الضب في الشارقة ، قبل مدة. أكد محجوب ومجموعة من أولاد أم درمان بأنها كانوا عندما يقابلونه يضمنون حق الكرة والسينما.

عبد الرازق الذي كان يسوق سيارة إبراهيم بدري صار صديقا لخلف الله وعبدالرازق بالرغم من ضخامة جسمه لم يكن ثابتا. ودفاعا عن عبدالرازق وفي معركة لا تخص خلف الله، استل خلف سكينه في بداية الستينات . وكان الجميع يعرفون بأن ايقاف خلف الله، لم يكن ممكنا إلا بعد أن داسوه بسيارة لايقافه، مما أعاق حركته وصار يصلى جالسا بقية حياته. ولفترة طويلة كانوا يرفعون الحمار في اللورى لكي يركبه خلف الله في القنيص.

خلف الله كان يكثر الحديث عن «الزمن الكعب» حتى قديما.. والمؤلم أنه عاش الزمن الكعب عندما تغيرت الدنيا واضطر إلى الرحيل من الزقاق إلى خارج أم بدة. وفي فبراير 1996 مات خلف الله ولم يمشى في جنازته سوى بعض الأفراد أقل بكثير من العدد الذي كان يأخذه للقنيص.. إلا أنه خلف ثلاثة من الأبناء، هم : محمد ومدثر ومصطفى وابنته سمية.

القنيص كان من ثقافة ونشاطات الرجال وأعمارهم المختلفة ومن المؤلم أن هذا التراث قد ضعف بعد موت الرجال أمثال العم البنا وسفر الفرجونى وآخرين.

الفرجونى يذكر خلف الله ولقد كان أحد الـذين حـضروا رفـع حمـار خلف الله. وأول أغنيه أشتهر بهـا الفرجـونى وهـى أغنيـة القـوز، غنيـت في إحدى رحلات القنيص. رحم الله خلف الله لقد كان أم درمانيا عظيماً.

الطيار خليل مدنى زوج السيدة انصاف حسن كرار «جكـسا» الأول. كان يتحدث عن خلف الله باعجاب قبل مدة لأنه رافقه في رحلات قنـيص . فاستغربت عدم معرفته صلتي بخلف الله. فخليل كان كثير الـتردد في صـغره على منزلنا.

العم صديق كان شيخ فتوات أم درمان وارتبط اسـمه بقهـوة الحريـق خلف البوستة الملاصقة لمحل دنيا الموسيقى وصـاحبه قريـب الله الـذي يبيـع ويصلح ويؤجر الأدوات الموسيقية. العم صديق كان قويا تهابه الرجال حتـى بعد أن تخطى السبعين وهو من صناديد حي العرب حيث الشجاعة والرجولة مكملة لشخصية البشر . العم صديق قتل رجلا وهو لا يزال يافعاً لأنه سـبّ أمه وهذا النوع من المساجين كـان يعـرف في الـسودان بــ «شريـف».. للعـم صديق عدة منازل في حـى العـرب وأم بـدة وكنـت أزوره بانتظـام في منزلـه بالقرب من مركز البـوليس في أم بـدة . وفي إحـدى المـرات قابلـت صـديقى صديق حدوب المليونير وتاجر الماشية وهـو ووالـده قـد بنـوا جـامع أم بـدة الفاخر. وعندما عرف أنني في طريقي للعم صديق قال «صـديق ده عمـى ده عم ابوى وصديق ده اسم جدنا الكبير.. لكن الراجل ده انحن بنخاف منه».

رجعت مرة للمنزل في سنة 1987 وكان هنالك خروف جميل الشكل في انتظارى بلون ناصع البياض وبقع سـوداء جميلـة وذيـل يـصل إلى الأرض

وعرفت أنه لابد أن يكون هدية العم صديق فذهبت لشكره فقال لي «جيت وما لقيتك ولقيت زولا غليد في بيتكم» فقلت له: هذا أخي الشنقيطي .. فضحك بشدة وسألني مرة أخرى عن الاسم وضحك أكثر. وقبل أيام ذكرت الأخ عبدالله محمد زين بالعم صديق ففسر لي قصة سبب ضحك العم صديق. إذ حكمت مع العم صديق في شبابه وصديق له أن يسطوا يسطوا منزل محمد صالح الشنقيطى الذي كان قاضيا وقتها ويسكن منزلاً فاخرا في شمال غرب أم درمان ولهذا عرف الشارع بشارع الشنقيطى . ولسوء الحظ أحس بهما الشنقيطى فأطلق النار فقفز العم صديق من فوق الحائط ولكن عندما أحس بأن صديقه قد جرح، فرجع مرة أخرى ليحمله وواجه الشنقيطى ومسدسه. ويقال أن الشنيقطى أعجب بشجاعته ونكس مسدسه.

الفتونة لم تكن قاصرة على الرجال. حواكرنقو كانت فتاة قوية في العباسية صرعت كثيرا من الصبية.. بل كانت تربط للأولاد وتقلع قروش فطورهم والأولاد كانوا يخجلون من تبليغ ذويهم. وامتازت حوا كرونقو بضربة رأس تصرع أقوى الصبية. أحد أصدقائى الذي صار ضابط في الجيش كان يتفادى منطقة نفوذ حوا كرونقو في صغره ولازلت اداعبه بأنني سأفشى سره لزوجته وبأن حوا كرونقو قد قلعت فلوس فطوره.

حوا اختفت من حياة العباسية بعد أن كبرت ووقعت في غرام شاب خجول هزيل البنية وانجبت منه طفلا.

استعمال الرأس في العراك شيء يجيده كل الصبية في المورده، والعباسية وأغلب مناطق جنوب أم درمان مثل فنقر، تاما، عتالة، سروجية... الخ. في

شمال أم درمان كنت متعودا على المصارعة «ادينى ملكه» والحريف يرمى الثاني وتنحصر العملية في أم دلدوم والخنق «اقبض الخرزه» أو الضغط على القصبة الهوائية «كربون» وتعنى لف الذراع حول الرقبة والضغط عليها.

وبالانتقال إلى جنوب أم درمان، واجهت فجوة حضارية فليس هنالك استعداد بل هجوم وخاطف خاصة عندما لا يكون الخصم متوقعا وهنالك الملاكمة العلمية بالهوك والاسوينق والابركت والركل في الأماكن الحساسة واستعمال الركبة وسيدة الموقف هي «الروسية» التي تجعل الصبية متساوين بالرغم من اختلاف البنية.. ولقد أخذ مني الأمر كثيرا من الكدمات الفظيعة قبل أن أتعرف على الممارسات والقوانين الجديدة.

إحدى النساء كانت لها سطوة على الرجال ويقابلونها باحترام ويفسحون لها مجلسا.. هي الخالة حليمه بت بشه شيخة الظار في أمدرمان ولقد ورثت الشياخة من والدتها بشه وكنت أراها تجالس الرجال أمام دكاكين الطاهر خال العيال مع عم عمر المكوجى ومحمد صالح صاحب الدكان . الخالة حليمة خلفت ابنتها ست البنات بت سمح جيبو على عرش المملكة.

أحد شباب أم درمان الرائعين الذين اختفوا، الضابط عصمت بحيرى الأخ غير الشقيق لمأمون بحيرى وزير الاقتصاد .. اختفى لأكثر من أربعين عاماً وكانت والدته السهوة إدريس في انتظار رجوعه إلى أن توفاها الله. وهي شقيقة الناظر المرهوب صاحب الشهرة الأسطورية إبراهيم إدريس بمدارس الأحفاد . جملته المفضلة لوصف الكسالي وحالة كثير من السودانيين «تاكل ترقد» .. عصمت اختفى في حوادث الجنوب عام 1955.

الأستاذ ياسين – من أسرة أحمد محمد صالح الشاعر والذي لا يحتاج لتعريف – اختفى كذلك. والأستاذ ياسين كان مشهوراً بالأغنية الدكاكينيه «يا أستاذ بالقزاز وللريفيرا عدنا جينا ....» هذه الأغنية كانت مشهورة جداً في الخمسينات وتطرقت لحوادث الجنوب وتقول «وفي الجنوب كم ماتواشباب وبالنشاب . وفي الجنوب كم ماتوا رجال وبالحراب . وفي الجنوب كم ماتوا حريم وبالمكسيم » كما تتطرق الأغنية لخوجلى أبو الجاز الذي كان يلعب للمريخ وانتقل للهلال، وعندما أراد أن يشوت ضربة جزاء ضد المريخ خلع الكدارة فصرخ جمهور المريخ «ملصا ملصا».

خوجلى أبو الجاز رجع للمريخ مرة أخرى في سنة 1960 على ما أذكر.. وشاهدته في رمضان يلعب الكرة في ميدان الباسكتبول لوجود الإضاءة إلا أنه كان «خرخارا» يغالط في الأقوان علي عينك يا تاجر.

أغلب الأغاني الدكاكينيه في السودان ألفت في أم درمان. في الستينات كانت الأغنية المشهورة «أوفرجاز» وهي تشير إلى الشاحنات القوية التي ظهرت وقتها . والأوفرجاز كانت ثورة وقتها مثل شاحنات التوربو الأن والبعض يغلط ويقول «بابورجاز».

هنالك أغنية دكاكينيه أخرى كانت لها شهرة في نهاية الخمسينات والستينات وهي «وين ياشباب الحاجة» واشتهر بها حسن الطيب الصادق وغنتها كل أم درمان. حسن كان وقتها طالبا في مدرسة المؤتمر ومن ظرفاء أم درمان وصار فنى أشعة ويسكن العباسية فرق فلاتة. وهم في الأصل أنصار من الجزيرة أبا.

ومنزلهم مفتوح يمتلئ بالضيوف.

العم الطيب الصادق كان لطيفا يعطى أبناءه حرية كبيرة . ويسلفنا البوكس.. الذي كان معروفا لحراس جنينه السيد الهادى مما يتيح لنا دخول الجنينة. وأول مرة أشاهد جاموسة من النوع المعروف في مصر كانت في تلك الجنينة وتلك أول جاموسة أم درمانية.

قبل أيام تكلمت تلفونيا مع صديقى الأول جاك أو «بله» في مكتب معتصم قرش ابن أم درمان وصهر الفارس عوض عبدالرحمن صغير رحمة الله عليه. وعرفت أن بله قد باع المنزل في الثورة واشترى منزلا في العباسية لأنه لم يستطع أن يعيش بعيداً عن العباسية.

وسألته عن الموقع فقال «جنب الطاحونة القديمة فريق فلاتة» فسألته وين من بيت ناس حسن الطيب وأخوه عبدالقادر «أسطى ركب»؟ فكان الرد «أنحن فاتحين نفاج على بعض» فانتشيت وقلت: حاجة عظيمة تكونوا فاتحين نفاج على بعض.. فضحك بله ببساطة قائلا «دى العباسية.. كل الناس فيها فاتحة نفاج على بعض » فأحسست بمرارة البعد عن أم درمان.

عبدالقادر «اسطى ركب» عرف بهذا الاسم لطول ساقية.. استفزنى مرة وأنا في الخامسة عشرة من عمرى وهو يكبرنى بعدة سنوات ووسط مجموعة من أصدقائه وعندما رجعت بالعكاز كان قد ذهب لحاله.

ولأننى كنت أعرف أن العم محمد التجانى سلوم قد انتقل بأسرته إلى مشروع الزاندى وبقى ابنه التجاني المشهور «بتجز» في المنزل وحده لأنه كان يستعد لامتحان الشهادة. وصار المنزل نقطة تجمع لكثير من الشباب خاصة

لعيبة الباسكت في نادى الموردة.. أحدهم بـدوى المشهور بـ «الـون» شـقيق كوفاديس وحدوقه .. ومن اللعيبين ود اليمانى وآخرين.. ولعدة أيام كنت في أنتظار عبد القادر أمام المنزل.

وحضر عبدالقادر مصحوبا بود اليمانى واظنه قـد نـسى المشكلة لأنـه رجل لطيف ومسالم . في العادة وعنـدما ضربتـه عـلى رأسـه بالعكـاز فـوجئ «ونقز»فعنمت حذاءه الجديد ولأن صديقى عبدالله الذي صـار ضـابطا كـان يحتاج لحذاء أعطيته له.

وبعد سنوات صرت صديقا حميا لعبدالقادر .وكثيرا ما كنـت أحـضر فطور الجمعة في منزلهم وسط مجموعـة كبـيرة مـن الأصـدقاء .. وفي أحـدى المرات قال لوالدته : «تعالى يايمـة شـوفى الولـد الـضربنى بالعكـاز» وكـدت أموت من الخجل إلا أنها قالـت بـود «مـالو ؟ مـا اخـوك» ، ولهـذا نحـب أم درمان.

العم محمد التجانى سلوم سكن بالقرب منا لفترة قـصيرة في ام درمـان وصرنا بمثابة الاهل ولا تزال صلتنا متصلة. ابنـاء العـم محمـد التجـانى هـم عبداللطيف، التجاني« تيجز»، صلاح والفاتح السياسى والصحفى المشهور.

كثير من أبناء أم درمان كانوا يستمتعون بالمقـدرة عـلى روايـة النكتـة وتأليف الأغاني ولو كانوا في هوليوود لاصابوا شهرة وثروة. فما أن تظهـر أي أغنية حتى يؤلف شخص غير معروف أغنية حلمنتيـشية عـلى نفـس الـنغم. فأغنية ابو دواد «أنا من شجونى» غنتها أم درمان: «انا مـن جنـونى وارمـات عيونى يا ناس فكونى ما تكتفونى...الخ».

وأغنية رمضان حسن «الزهور صاحيه وانت نايم» غناهـا النـاس «الله خلق للنعجة ضنب والكـوم بقـرش والدقـة بـلاش». وأغنيـة وردى «بينـى وبينك والايام» صارت «بينى وبينـك جـوز حمـام وحلـة رز كبـيرة شـدديناها بالتمام... الخ». وأغنية الشفيع «اللـون الخمـرى» صـارت : «بـت التكاسـة الليلة.. سمحة ورقاصة الليلة.. الخ».

أغلب الاغانى كانت لها أغنية موازيه غير معـروف مؤلفهـا والراديـو ساعد في نشر النكات . والرائد في هذا المجال هو أحمد سعيد ضربا وفي عهـده ظهرت النكات من ماركة اشمعنى فيبدأ المتحـدث الجملـة في شـكل سـؤال ويرد عليه الآخرون: اشمعنى ؟ مثـل « قملتـين في شـنب أبـوك! اشـمعنى» عاملني جر حبل».

عبدالكريم بلبل الذي خلف ضرباً أشاع نكاتاً من ماركة «بالذمـة؟» . فيقول مثلاً: «شايف الخواجه الماشى ده أنا بنيت ليهـو بيـت بعـشرين ألـف جينه.. بالذمة؟ .. لا بالطوب الاحمر».

وازدهرت في ام درمان النكات البايخة مثـل: واحـد صـينى ماشـى في شارع الظلط وقع ادشدش.. واحد جه يقعد في قهوة قعـد في شـاي.. واحـد صارى وشو وقع منه. واحد جه يقطع البحر مالقى سكين و... و .. الخ.

وساعد بلبل كثـيراً في نـشر النكتـة . وصـار النـاس يتقبلـون الدعابـة والمزاح وعرفنا المنولوج ويقول بلبل مثلا: «ياربى بهم وبـآلهم عجـل بـالفتح وبالفرج.. سألونى عن المتنبى فأجبت كان في المهدية كهربجى. والماكل ويكـه

أنا أعرفه من مشيته بالسايكولوجى»... الخ. وتتوج هذه الأعمال بود أبو قبورة والبعيو .. واحبتهم أم درمان كثيراً.

يندر أن تكون العداوة دائمة في ام درمان لأن المناسبات كالعيد والأفراح والأتراح تجمع الناس. ولا تنعدم الوساطة والروح الطيبة.. في سنة 1969 وقبل انقلاب مايو بأسبوع كنت في زيارة شقيقى بله في منزلهم بشارع الاربعين. وكان معه صديق يؤانسه ، ويهتم به اهتماماً شديداً. وعندما انصرف الضيف سألنى بله إذا كنت قد عرفته واستغرب عدم معرفتى للضيف لأننى في العادة لا انسى وقال بله: «ده ما محمد اخو الرضيه الشاكلناه زمان». الرضيه كانت رئيسة كورس الأذاعةأو الشيالات وسكنت جارتنا في السرداريه في المنزل الملاصق لمنزل موسى بدرى والمواجه لمنزلنا . وفي هذا الزقاق كان يسكن الصناعي المشهور وادريس الهادى.. الرضيه كانت قد رزقت في تلك الأيام بابن اطلقت عليه اسم نهرو زوجها رجل مسالم اسمه كمال جابر بشعر طويل وبشرة اقرب إلى البياض.

لأن الغناء لم يكن مقبولا من الجميع، خاصة بواسطة النساء. تعرضت الرضية وصديقاتها للتحرش من بعض أهل الحى.. ولقد جُلد صديقنا عوض خوجلى في المحكمة بسبب تلك التحرشات.

في أحد الأيام وبعد انقلاب عبود بمدة تعرضت بثينة صديقتها وزميلتها لبعض الاستفزاز في الحى. وبثينة هذه مذكورة ف ياحدى أغانى ام درمان الكاكاكينيه وهي فتاة جميلة والأغنية تقول: «.... الشراب اسكوب

كب بأعلى في كبابي الشوب». وفجأة يخرج شاب طويل قوى البنية ويسب كل اهل الحى ويتحدى أي رجل في الحى لأن يبرز له. الشاب كان يرتدى بنطلون عسكريا فنيلة وكان وقتها ارتداء البنطلون العسكرى قاصرا على الضباط فقط ، وكان يسير بين منزل العم عبدالقادر عمر الصادق والد اللواء محمد، وعبدالماجد أحمد الذي كان وزيرا للمالية في حكومة عبود وفي الحى كذلك منزل القائم مقام مصطفى الكمالى .. ولم يبرز له أي رجل في الحيى ووقتها كنت أنا في الرابعة عشرة من عمرى ولم أكن أظن أن الأمر يهمنى . ثم أخيرا برز له صديقى بله الذي كان ملاكما جيدا وفي السادسة عشرة من عمره الا أنه من المؤكد لم يكن ندا لمحمد.

بعد قبول بله للتحدى صار الأمر يخصنى فوقفت خلف بله متحفزاً فواصل محمد طلبه بأن يبرز له رجل فقال بله « ماتكتر كلامك الرجال قدامك» فوقف محمد محتارا ونحن لم يكن عندنا ما نخسره.. بل لقد استمرأت أنا الوضع. ووقفنا لمدة طويلة ومحمد محتاراً. ومن المؤكد أنه لم يكن خائفا من أي شيء سوى أن يدخل في معركة مع صبيان كما لم يكن في امكانه أن يتراجع.. وعندما ارتفعت اصواتنا خرج جارنا العم الطيب جبارة الله وحاول أن يطيب خاطر محمد يزجرنا لأننا بمثابة أبنائه جعفر ومعتصم. ثم خرجت والدة محمد. وقالت له «الولد الاحيمر ده ولد أمينة ديل ناس أهلنا» ولم أقابل محمد بعدها إلا في سنة 1969 ثم سمعت بخبر اعدامه في السبعينات في الغزو والانقلاب الذي قاده هذا الضابط هو محمد نور سعد رحمة الله عليه. لكم كنت أود أن أقابله لاعتذر منه عن تطاول الخمسينات .

بمناسبة اسم والدتى أمينة.. سمعت مرة شخصا في ميدان الربيع يقول لأحد أصدقائى «تبارى لى ود الشعبة.. ده يغطس حجرك» ثم ذكر هذا الاسم عدة مرات فأردت أن أعرف من هو ود الشعبة فاكتشفت أننى أنا المقصود لأن الشعبة التي تسند العرش تسمى أمينة كذلك.. زميل الدراسة عبدالعظيم زمراوى في براغ كان سليط اللسان لاذع النكتة وهو من اولاد العرضه وكا يدخل في مهاترات ومشاحنات مع زملائه في براغ ويصر على أن اقضى معه الليلة في غرفته في براغ. ويقوم باستفزاز الآخرين مغنيا «يصيح ديكى.. يصيح ديكى. ... الخ» ولم اكن انا أفهم الحاصل، إلى أن شرحت لى القصة بعدما يقارب العشرين سنة في امدرمان . فعبد العظيم كان يقصد النشيد المدرسى «يصيح ديكى بدرى... الخ» ولم يسعنى إلا أن أضحك على غفلتي وحرافة أولاد ام درمان.

بعد رحيل الرضية من الحى، سكن في ذلك المنزل ميرغنى سوار الذهب ووالدته الشول . وميرغنى مشهور بود الشول وهو صاحب أسلط لسان في كل السودان... ومن العادة أن يشترى الناس رضاءه ويخطبون وده، ولا يزالون .. أما الخالة الشول فقد كانت صاحبة أسلط لسان في العالم.

شاهدت مرة غنماية حدتى مربوطة بجنزير ثقيل لأن الغنماية تقطع الحبل. فقالت بلهجتها شبه المصرية، عالم مقانين غنماية ولا وابور بحر؟».

في ام درمان يقولون فلان قرح وتعنى انه قد اتجه إلى الاجرام .. أول زملائى الذين قرحوا ونحن في مدرسة بيت الأمانة الاولية كان إبراهيم حسيب ، واتجه لقطع «المفاحض» في الترامج، بما أن الترام القديم كان مفتوحا

والركاب يجلسون على كنبات عالية وهنالك عتبة طويلة بطـول الـترام يقـف عليها الناس، فمن هذه العتبة كان الصبية يـستعملون مـوس الحلاقـة لقطـع المفاحض التى تتدلى من أعناق النساء عند جلوسهن.

ابراهيم ذهب إلى الاصلاحية في الجريف وواصل اشقاؤه ربيع وعباس الدراسة . عباس رجع كجندى من حرب الجنـوب في الـستينات وهـو مختـل العقل وربيع واصل بهدوئه المعهود حياته في العباسـية وبانـت، أمـا شـقيقهم الأكبر فهو محمد حسيب الذي صار وزيراً بعد انقلاب ما يو 69؟.

وكان قبلها ضابطا في سلاح الهجانـة وشـارك في إنقـلاب ضـد عبـود وعندما عرف عبود بأن الضباط الذين شاركوا في الانقلاب كانوا قد قرروا أن كل واحد منهم «يوضب » واحداً مـن أعـضاء المجلـس العـسكرى العـالى- وعبود كان من نصيب محمود حسيب- أرسله بحكـم مؤبـد إلى سـجن كـتم حتى يكون بعيد ا عنه

محمود حسيب وجد مقتولا في مكتبه وكانت هنالك عدة روايات عـن سبب موته ، إلا أن العباسية عرفت السبب الحقيقى.

في سنة1964 ظهر ابراهيم حسيب بعد أن صـار مجرمـا كبـيرا وكنـت أتواجد في الريفيرا بالنهار ويجالسنى الاخوة حـسن عبـدالفراج المـشهور بــ «شجره واحمد باب الله خال عازف الكمان ابراهيم كتبتـا – رحمـة الله عليـه – وكتلة شقيق يوسف عبدالله عطا. وهـو مـن خريجـى الاحفـاد وكـان زمـيلا وصديقا للاستاذ حـسن التـاج وكلهـم مـن اسر محترمـة إلا أنهـم اتجهـوا إلى الشرب. وفي بعض الاحيان ينضم إلينا عبدالسلام ابو حوا لقـرب داره وهـو

تاجر في الابيض وقتها وكان في فترة اجازة والآن أصبح صاحب المتجر الكبير في الموردة وهو صديق طفولة شحره.

لاحظنا أن ابراهيم حسيب يراقب أحد أهل البادية وللبدوى خراف كثيرة في المنطقة المحصورة بين بوابة عبدالقيوم والريفيرا. وبعد أيام ظهر اب دربين وهو لص أكبر سنا وأعلى كعبا من ابراهيم .. وانصرف ابراهيم بعد أن استلم مبلغا من اب دربين الذي كان خير من يضلل القصاص بأن يلبس احدى فردات حذائه بالمقلوب أو قدام وورا ولهذا سمى اب دربين.

وبينما البدوى يحاول أن يبيع احد الخراف لرجل يرتدى عباءة بالرغم من الحر، أخذ صاحب العباءة البدوى بعيدا عن مرقده واغراضه. وفجأة راينا أبو دربين يجرى بسرعة ويختفى خلف الحمامات في الجزء الجنوبى الغربى من الكازينو، وماء الفيضان كان قد بدأ يحيط بالريفيرا واتى البدوى جاريا والسكين مسلولة في يده وبسرعة اختفى صاحب العباءة فأتى البدوى نحونا والشر في عينيه وقال انه يعرف اننا نعرف اللص وإذا لم نأخذه إليه فسندفع الثمن.. فوقف حسن عبدالفراج شحره ببطء وتأن وقال بهدوء كامل « ايوه بنعرفه لكين ما حنوديك ليهو. انا شفته لمن رمى جزلانك. إذا عاوز جزلانك حاوريك ليهو».

وخلف الحمامات وجدنا الجزلان في ماء النيل بدون عناء، وانتهت المشكلة.. وعرفت ان ابراهيم عندما فشل في سرقة البدوى باعه لأب دربين.. وقبل ان اترك ام درمان جعلت ابراهيم يدفع بدمه للمشكلة التي ادخلنا فيها ولمر لم اقابل اب دربين.

مع الاستقلال شاهدنا لأول مرة اشارات المرور المضيئة في الخرطوم ولم تأت إلى ام درمان الا متأخرا، لكنهم حاولوا اصلاح الطرق ووضعوا خطوطاً للمشاة واحدى هذه الخطوط كانت في الموردة. وعندما عرف فتوات الموردة بأن هذه الخطوط تعطيهم الحق في العبور صاروا يتبخترون ويسيرون على مهمل وعندما يحتج أصحاب السيارات يقولون لهم «الحق ده» مما جعل هذه الجملة ام درمانية. وعندما تفاقمت المشكلة ازالوا الخطوط في الموردة فشمت بهم أهل العباسية ولم يكن وقتها شارع الاربعين قد رصف وشارع العرضة لم يكتمل بعد . وشارع الموردة كان الشارع الوحيد. ومعروف بشارع النهر حيث يبدأ منه وينتهى إليه. وهناك شارع ودنوباى وهو كذلك مرصوف . يبدأ من المستشفى وينتهى في سوق ودنوباوى.

جنوب أم درمان كان يغص ببنوك الدم وهي المنازل التي تبيع المشروبات مثل المريسه التي تعرف بـ «البغو» والعسليه والقام زوت . المريسه تخمر طبعا وتصفى ولكن النوع القوى يعرف بود العود لأنه يحتاج لنار ومايتبقى من البغو هو المشك الذي يباع كعلف للأغنام وهو مِغذ جداً وما يتبقى من ود العود لا يصلح لشيء ورائحته كريهة ويعرف بالمونة والتخلص منها مشكلة وعادة يحدث ذلك في وسط الليل وله متعهدون احدهم جمعة في فريق فنقر.

المفتش الانجليزى برامبل هو الذي نظم الانادى وكان يفتشها بانتظام ويتذوق المريسة وخصص لها أماكن جنوب أستاد المريخ الحالى وحرم بيع ود العود فيها والانداية عبارة عن حوش كبير به عدة دانقات والدانقة عبارة عن

غرفة كبيرة من الجالوص بدون نوافذ فقط فتحات لتمرير الهواء وفتحة كبيرة جداً لدخول ولا باب لها، وعكس الدانقة الدردر، وهو غرفة صغيرة من الجالوص مستديرة .. والكركور هو غرفة صغيرة بدون نوافذ وعادة توضع فيها الجرار للتخمير صديقنا كركور من مشاهير بانت لا أظن أنه قد أخذ اسمه لصغر حجمه.

اندابة فاطمة كانت الاولى من الجهة الشمالية وكنا نذهب اليها باستمرار بزعامة عثمان عبد المجيد على طه «كوارع» ومجموعة صاحبات بنوك الدم النساء اللاتى يصنعن ود العود فقط ويبعنه لآخرين. هن في العادة شخصيات فذة بينهن مفارقات لطيفه .. في العباسية فوق التقت في منزلنا فضل الساتر مع صديقتها أم سعيد، فسألتها عن سبب انقطاعها . وام سعيد صارت في وضع جيد وابنها سعيد الطباخ تزوج فاطمة مسمار النص وهي سيدة جميلة لونها فاتح، فقالت ام سعيد: اعمل عندك شنو؟ فقالت فضل الساتر: تلوجى زى زمان!

اللواجة في العباسية المقصود بها الاكل بشراهة أو بكثرة .. وقد تفرغت ام سعيد واقتنت كلبة اسمتها «مايقولوا» وكان الرد كلبة اخرى اسمها «اللقانشى».

هنالك كلاب في العباسية تحمل اسماء مثل «اخوة فلوس» ، «ماهامينا» و «شوفونا» من طلبة الاحفاد الذين صاروا دكاترة وحملة شهادات عليا وفي اندابة فاطمة تعلمنا الاغاني القديمة منها أغنية «برد الليل ياالحبيب» هذه الأغنية كانت مشهورة في الاربعينات وبداية الخمسينات وكان لنا كراس نسجل فيه اغانى الانادى.

من العادة أن يدفع كل شخص العدل حتى إذا لم يكن يشارك في الشرب مثل حالتى، بل لقد كنت ادفع اكثر من الآخرين لأننى لا اشرب، وكلمة عدل تأتى من الحمل الذي يحمله الجمل، فهو عادة عدلتين أو وزنين متساويين والمثل السودانى يقول « انا عدلك» بمعنى أن الشخص ليس بأقل من الآخر.

في احدى المرات أراد كوارع أن يبحبحها فاشترى ثلجا وسكرا واشترينا دلقاً.. والدلق اناء فخارى كبير يسع ما يقارب الصفيحة وعندما تشترى الدلق يعطونك عبارا من المريسه مجانا.. والشراب يحدث عادة بالكنتوش ورفع كوارع الكنتوش لكى يشرب ونسبم الدعاش يهب وفجأة يطلق كوارع الكنتوش لكى يتحطم وضفدعه تقف على الأرض ولا بد أن الثلج قد شل حركتها.

واصرت فاطمة على تعويض الكنتوش واصر كوارع على ثمن السكر والثلج والمريسه. وبعد أن حطم كوارع بعض المقاعد التي هى عبارة عن صناديق فارغة ارجعت لنا نقودنا، وكوارع كان يردد كالمهووس «أول حاجة شفت العيون بعدين جاتنى القعونجة سباحة.. سباحة.. سباحة».

بعد مدة تصالحنا ورجعنا لفاطمة التي عزمت على كوارع بود العود الممنوع بيعه في الانادى.. ود العود كان يساوى عشرين قرشا للزجاجة والبكرى هو الانتاج الاول ويحتفظون به لخيرة الزبائن وعندما يقولون في العباسيه «ضارب ورنيش» فيقصدون الزجاجة الصغيرة بأربعة اضلاع التي يعبأ فيها الورنيش من ماركة الكيوى وهو الطائر الذي يعيش فقط في

نيوزيلاندا وهذه الزجاجة الصغيرة تباع بقرشين. وعادة ما يطلبها الانسان لكى يتذوق البضاعة ولكى يتأكد من ان ود العود غير محروق او داشر والبعض قد يضيف له السيكران لكى يصير قويا.

وعندما يقولون « ماشى اعمل مسحه» فالمعنى شُرب عبار او عبارين بغو.. ولما الواحد يكون «عامل سنة» يعنى ذلك انه ضارب سيجارة.

احدى صاحبات بيوت العرقى غضبت من أحد الزبائن لأنه لم يحضر لدفع الفاتورة بعد عملية جرورة طويلة . ففى الصباح، ولسه بايته معاها وانعشتها «بنصية» داهمت منزل الزبون الذى كان متحذلقاً وأكثر من «إذا كان » فقالت له « اكان انت جان انا بخور لبان وإذا أنت «إذا كان » انا لو كان وإذا أنت الخرطوم انا امدرمان».

الجلد الذى كان يمارس في ام درمان. وكثير من نواحى السودان تعرض له أحد سكان ام درمان في سنة 1886 تقريبا في بداية المهدية وهو الايطالى روزونيولى.. وهو رجل إيطالى بسيط عاش حياة عادية في ام درمان وترك صورة لحياته في ام درمان وكان يبيع العيش والفول في سوق ام درمان في المنطقة بالقرب من المشانق قديما أو سينما الوطنية الآن. عندما اختلف مع احد الزبائن الذي دفع بعملة الدمور وأراد الباقى بعملة فضية وهذه المعادلة خاسرة بالنسبة لروزونيولى.. فانتهى الامر بمشاجرة وفقد روزونيولى اعصابه وشتم الزبون قائلاً «ياوسخ» فأخذه خفراء السوق إلى ساحة القضاء حيث يجلس أربعة قضاة وأمامهم مصحف وينظرون في القضايا فحكموا عليه بالجلد بالكرباج، وعندما تحمل الجلد بشجاعة وجد الاحترام والتقدير من الجميع.

روزونيولى وصف السوق والحياة العادية في ام درمان ولقد استعان الدكتور ابو سليم كثيراً بكتاباته.. ويقول «يتركب سكان ام درمان من كل العناصر والقبائل التي يعرفها السودان بالإضافة على مصريين وهنود وبعض العرب من مكة وسوريين واغاريق وايطاليين وترك واثيوبيين واخيراً آكلة لحوم البشر من النيام نيام والمانقبتو ، وكانت ألوان البشرة تتدرج من السواد الشديد حتى الابيض. لقد كان حقا معرض لصنوف البشر .. ففي داخل هذا المعرض يمر الإنسان العريان كما ولدته امه ومن هم في مصاف الطوطم، والنساء المحجبات اللائى لا يكشفن الا اعينهن وآخريات ليس عليهم الا خرق حقيرة تستر العورة فقط، وهناك النموذج السامى بالانف المدبب واللحية الكثيفة بجوار نموذج الزنجى الوسيم بجمسه القوى العتيد والانف الافطس والشفاه الغليظة.

وفي الغالب كان كل جنس في حى خاص به، ولم يكن الزواج المختلط بين الأجناس عملية سهلة. وكان المرء يسمع لغات كثيرة ولكن اللغة الوحيدة التي يتعامل بها الكل هي اللغة العربية، وهي لها ذاتية رسمية ومقدسة معا. وفى اعتبار الانصار انها اللغة التي تكلم بها ادم وحواء وانه ليس في الجنة لغة غيرها.

ما كتبه روزونيولى بخصوص وجود قبيلة في مكان معين لا يزال واضحا في ام درمان إلى اليوم. فاهلى من الدناقلة تمركزوا في منطقة بيت المال أمثال الاسر المعروفة : البلك، جارنتوت، سوركتى، نقد، وآخرين والرباطاب تمركزوا في حيهم بالقرب من العرضة والجموعية وكثير من الجعليين تمركزوا

في منطقــة شــمال ام درمــان ، حــى العــرب، العمــدة، ودنوبــاوى ، بانــت والفتيحاب،.. أهــل تامــا تمركــزوا في العباســية المنطقــة بــالقرب مــن خــور ابوعنجة وقــد تخصــصوا في صــناعة الازيــار والــبرام ويقولــون في ام درمــان «امشى كده عامل راسك ده زى التقول عملو في تاما».

أهل فنقر الذين يرجع أصلهم على جبــل فنقــر تمركــزوا في حــى فنقــر بالعباسية، الفلاتة انحصروا بين خور أبــو عنجــه جنوبــا وميــدان الربيــع وام سويقو بالعباسية وهنا كانت تسكن الفنانة عاشة الفلاتية .. هــذا عــلى ســبيل المثال فقط.

يخبرنا الدكتور ابو سليم في كتابه «الخرطوم» فيقول إن «اسم ام درمــان اسم قديم، وقد وقفت عليه في وثائق ترجع إلى العهد السنارى ، وقد ذكــر ود ضيف الله المتــوفى في ســنة 1224 هــ في معــرض كلامــه عــن الــشيخ حمــد ودمريوم ، وفي مواضع أخرى من كتابه مما يعنى أن الاســم كــان معــروف في زمنه، بل هناك من الروايات عن الاسم ما يفيد انه يرجع إلى أصل العنج، أي العهد السابق لعصر الفونج وقد ذهب الناس لتفسير هذا الاسم مذاهب شتى وأكثر هذه المذاهب رواجا هو القول بأنه راجع إلى امرأة كانت تسكن في تلك الجهة ولها ولد يدعى درمان، وقد ذهب قوم إلى أن هذه المرأة كانت بنت أحد ملوك العنج وانها كانت تــسكن منــزلا مبنيــا بــالحجر ومحاطــا بــسور متــين، وذكروا ان آثار هذا المنزل كانت ظاهرة بحى بيت المال إلى وقت قريب.

عندما سقطت مدينة الخرطــوم كــان معــسكر المهــدى في ابوســعد إلى الجنوب من ام درمان.. وقد قيل في مناسبة اختيار الموضع، أن الأمام المهــدى

خرج في جماعة من أصحابه وهو على جمل فأطلق له العنان فسار الجمل من أبي سعد شمالا حتى برك في الموضع الذي به القبة الآن.

وبدافع الاعتزاز والفخر وصف الانصار مدينتهم بقولهم: «بقعة ام درمان امان الخايف مايا باها غير الخايب»، وقالوا أيضاً « ام درأمان» وبعنون بذلك مكان الدر المأمون . وقد اشاروا إليها في مكتوباتهم بأسماء أخرى كمدينة المهدية ودار الفلاح ومركز الارشاد وما إلى ذلك من الأسماء الدالة على الاعتزاز والفخر. أجمل تعبير سمعته أنا عن أم درمان هو قول الخال عبد الرحمن «أم درمان طرواه» والخال عبالرحمن كان قد حضر إلى أم درمان وتزوج زهراء شقيقة الدرديرى و عبدالعزيز نقد وسكن في ود البنا في منزل فاهر وله بنات وأبناء رائعين وازدهرت تجارته الاسبيرات. ولم يرجع إلى دنقلا إلى أن مات .. وكان يقول بلهجته الدنقلاوية المميزة « ام درمان تراوة» وصار اسمه عبدالرحمن طراوه وعرف ابناؤه وكل أسرته بهذا الاسم رسميا وبكلمة طراوة كان المقصود أن أم درمان سهلة لطيفة . وحقيقة أن ام درمان قديما كانت طراوة.

فريق اسحف هي المنطقة المحصورة بين ودارو ومنزل الرئيس الأزهرى وعبدالله خليل، والاسم من المؤكد راجع إلى البلدة اسحف في غرب السودان من الشخصيات التي اذكرها من هذا الحة حبوبة مكة وهي امرأة تخطت التسعين من عمرها وتفضل أن تجوب الحى باستمرار ، وهي والدة العم هاشم مكى ، ومن الصدف ان اسمها مكة وزوجها مكى.. واحفادها فاروق ومكى وآخرون. كانت حبوبة مكة كثيراً ما تضل طريقها ولكن كان

هناك دائما من يرجعها إلى منزلها وعندما تتحدث كانت تبدأ العبارة وتغفو قليلا.

الحى الصغير الملاصق لفريق اسحف هو فريق المغاربة وهذا اسم غريب لأن المغاربة الذين اتوا مع الغزو التركى سكنوا في منطقة حلة كوكو في بحرى. . ومن الممكن انه بعد سقوط الخرطوم انتقلوا إلى ام درمان مع الآخرين . من مشاهير فريق المغاربة كيلوه ، وهو شقيق الفنان كمال ترباس.

الزيارة للمستشفى أو يوم الزيارة كانت حدثاً كبيرا «والاسبتالية» الوحيدة كانت مستشفى ام درمان المعروف. يساعدها مستشفى الارسالية الذى صار مستشفى التجانى الماحى وفي يوم الزيارة يتجمع الباعة والمتسكعون وبعض النشالين ويباع كل شيء من المرطبات والحلوى والاوانى المنزلية والأقمشة والفاكهة وعصيرمصانع معلوف والمساويك والتسالى.. وكان فرصة جميلة للعشاق للتلاقى واختلاس النظرات.. وتستعرض النساء والفتيات زينتهن وحليهن وهناك أغنية الكاشف «أنا آه وقلبى تاه في يوم الزيارة» الانضباط كان شديدا ولا يسمح لاى إنسان بالدخول في الأيام العادية الا المرافق للمريض وهؤلاء لهم جواز مرور يسمونه «الباص» ولونه احمر يسمح بالدخول في كل الأوقات واللون الأزرق لاحضار الطعام فقط.

والدتى كانت تشكو من تعنت حراس المستشفى ، وفي احدى المرات اعطته احدى السيدات ريالاً « أبو عشرين» إلا انه رفض ولصغر سنى بدأت أفكر في أن حراس المستشفى شخصية كبيرة ومهمة.

وعندما سئلت عن ماذا سأكون عندما أكبر رددت بدون تردد «حراس اسبتالية».

وقبل سنوات سألتنى احدى الخالات بعد أكثر من 40 سنة «اها يا ولدى ربنا مافتح عليك في بلدك ديك وبقيت حَرَّاَس اسبتالية؟»."

أحد أهلنا الرباطاب حضر لزيارة قريبة فرفض الحارس أن يسمح له بالدخول ولم يهتم بأن الرباطابى قد حضر من بعيد، فتسلق الرباطابى الدرابزين، فقال الحراس « بجيب ليك البوليس » فرد الرباطابى قد حضر من بعيد، فتسلق الرباطابى الدرابزين، فقال الحراس « بجيب ليك البوليس» فرد الرباطابى « الغبيان ده أنا داير اسرقلى موررود؟!»

بينما كنا في اديس ابابا مع بض الأصدقاء في مقهى الطاووس ، اشار صديقى عبدالمنعم مالك إلى شاب وقال «الود ده شكلوا سودانى» وتأكد لنا أنه سودانى ومن ام درمان بعد الحديث معه، قال : انهم يسكنون بالقرب من عبدالله خليل واسمه علاء حسن، ولكن قديما كانوا يسكنون في منزل جدهم المعروف بحوش الأسد، فقلت له «عمك الصينى لسه بيصفر».

صلاح الصينى كان في عمرى له شعر ناعم وقامة قصيرة وعيون تشبه عيون الصينيين ويستطيع أن يعزف أي مقطوعة بمهارة الصفير بالفم.. ومنزل جده مواجه المنزل الشيخ عوض عمر الذي كان يقرأ القرآن في الإذاعة وشقيق ياسين

عمر الامام رجل الجبهة القومية الإسلامية .

في بداية سنة 1957 كنا نذهب لحوش الأسد لمداعبة شبل الأسد الصغير الذي احضره جدهم من جنوب النيل الأزرق. وعندما كبر الشبل

اعطوه لحديقة الحيوان في الخرطوم وعاش هناك لعشرات السنين . الا أن هذا الأسد قبل كل شيء أم درمانى بشهادة حديقة الحيوان.

بعد تلك المقابلة بشهور حضر علاء للسويد وما أن رآه محمد محجـوب عثمان حتى تعرف عليه لأنه يشبه والده.

الذين عاشوا الأربعينات ، هم الذين صنعوا أم درمان ، وشكلوا الهوية الأم درمانية ونحن الذين اتينا بعدهم وجدنا الطبخـة جـاهزة الا أن حيـاتهم كانت أفضل من حياتنا، من ناحية اهتمام الناس وشعورهـم بـالانتماء والأمـن والكرامة.

العميد يوسف بدرى كان يقول «يا اولادى الشفتوه ده كلـو، وزى مـا تفتكروا انتـو اسـتمتعتوا مـا حتكونـوا شـفتوا واسـتمتعتوا زينـا زمـان في ام درمان».

حسن دياب رحمة الله عليه كان من أبناء ام درمان العظام وهو صـديق ولصيق بالاستاذ محجوب عثمان ابن ام درمان الأكبر. وفي وفاة حـسن ديـاب اجتمع عدد كبير من أهل ام درمان واتى صديقه الفنان الـشفيع وكـان يبكـى بطريقة تقطع القلب. ولم يتوقف من البكاء حتى خاف الناس أن يقضى نحبـه في المقابر . وكان يرتجف ويهتز وكأنما روحه ستخرج في تلك اللحظة.. ووجم أهل ام درمان وتفرقوا صامتين.. وقال صديق « الـشفيع كـان يبكـى عـلى ام درمان والدنيا الفاتت » وهذه حقيقة ولكن تركنا نحن نبكى كل لحظة.

الفصل الثاني

أم درمان زمان

(جزء ثاني)

جزء ثاني

بعد قراءتى لكتابات خالد الكد وأحاديثى ، مع محمد محجوب عثمان حيث سكنا. تحت سقف واحد في ظروف الغربة والمنفى ولقاءاتى مع أحد السفراء من ابنا ءامدرمان العريقين، صار الاحساس بالحنين إلى ام درمان طاغيا.

واذكر في بداية الثمانينات والانفتاح والمبانى والتنافس على تشييد القصور والمنازل على أشده، حاولت أن اشترى منزلا في أحسن المواقع بالخرطوم وبعد أن دوخت أحد السماسرة بالبحث قال لي السمسار لتحقيق هذه الرغبة «أنت زول ام درمان وما بتشترى في الخرطوم انتو ما يعجبكم غير تراب ام درمان وعجاجها وزبالتها » لقد كان السمسار محقاً، فلم استطع شراء المنزل، إذ كنت احس بأن الخرطوم بلد غربه مثلها مثل نيويورك أو طوكيو.

في زياراتى لأمدرمان في الاجازات كنت اذهب إلى أخى الطيب سعد في سوق الشوام زقاق الصابرين وطبعا كنت اتوقف لكى احيى عبدالسخى السمكرى والخير العجلاتى والترزية: الخير ومقبل وآخرين، وعندما سألت مداعباً عن آخر مرة ذهبوا فيها إلى الخرطوم كان رد البعض «الخرطوم مشيناها في أكتوبر وبعد داك ما عتبناها، نسوى حنو ؟ الدنيا ما امدرمان».

وعندما كنت استعد للذهاب إلى المكتب في الخرطوم لاجتماع مجلس إدارة توقعت أن يصحبني أخي الأكبر الشنقيطي إلا أنه رد قائلا : « انحنا بالليل ما بنقطع كوبري وما بنطلع من امدرمان».

وانا في زيارة مدام أوجين وهي أرمنية من آل كوركيجيان تسكن الآن في لندن وكانت جارتنا في ام درمان وابناؤها وبناتها بمثابة الأخوة لنا ، وجدت معها سيدة قبطية من المسالمة، السيدة القبطية تستجدى ابنتها المضيفة لكى تتركها ترجع لأم درمان وتحلفها وتستعطفها ، والإبنة تقول : « كل الناس بتحلم تجى لندن ، في زول يخلى لندن كان ماجبور؟ «خليك مع مدام اوجين والسفرية الجاية ترجعى معاى» والسيدة المسكينة تقول « يابتى ما في حته في الدنيا كلها زى امدرمان ، انحنا هناك معروفين وامرنا يهم كل زول. انحنا كان ما المطرة صبت وشمينا ريحه الزباله مابنرتاح، مابنرتاح».

الشيء الذي يجعل امدرمان عظيمة ومختلفة ليس هوالطبيعة الساحرة والمناخ الرائع، إنما البشر أنهم نوع خاص جداً وعظيم لقد قال سينا ذات مرة: «إذا الجنة ما فيها امدرمان ما عايزنها» وانا صغير كنت اكره أن اذهب إلى النوم ، الحياة كانت جميلة مثل الأحلام السعيدة.. وعندما اقتنع بالنوم كنت امنى نفسى بصباح جديد مليء بالبهجة خاصة أيام العطلة، ومملكة طفولتنا كانت تشمل كل أم دمان حيث الأهل والأصدقاء والمعارف، ولكن منزل جدتى في بيت المال كان له طعم خاص حيث الجيشان الكبيرة التى يسكنها عشرات الناس وأبوابها مفتوحة بصفة دائمة، كحوش ابوالقاسم والحاج حمد، كركساوى، الأسد، نقد، الفكى، الطاهر خال العيال، البلك، سوركتى، جارينتوت، شمشوم ، ابو جبل ، الكل يعرف الكل حتى الأطفال.

كان آل كوركيجيان يسكنون بالقرب منا، وعندما كانت والدتى تقول «نادى اخواتك للأكل» لم نكن نفكر ابدأ في أنها لا تقصدهم أي : قارى ارتين والبنات اناهيد شوشيف أو هناران .. هكذا كانت امدرمان.

كبشر ضعيف شعرت بالفخر عدة مرات، وانتفخت – عندما قال لى أحد شيوخ الخليج- وهو سفير – بأنه تعرف بأحد الشيوخ- وهو وزير – في بلده عن طريق ذكر اسمى. وكذلك عندما عرفت من أحد مسلمى البوسنة في السويد بأنه تلقى مساعدة من أحد الصرب- وهو من تمور آركان الذي رشح نفسه لرئاسة صربيا – وكا ن يسكن بمدينة مالو وينهب البنوك ، حيث ساعد ذكر اسمى كثيراً في إذابة الجليد والمساعدة . ولكننى لن أحس أبداً بالفخر كما حدث عندما دفع إلى ميرغنى ريس معدية توتى بالدفة وانا في الثامنة عشر من عمرى ، وصرت ادير المعدية في فترة الضحى عندما يرتاح الريس، وأنا جد سعيد مما دفع ود الزين «السايح» الذي يطلق شعره في ضفاير طويله تصل إلى ظهره لأن يقول «اسع المجنون منو؟ أنا ولا أنت.. شغال بلا فلوس وفرحان؟ انا شدة ما مكجن الخدمة رضيت بالشحده».

عندما احضر الأخ هاشم محيى الدين شحنة كبيرة من المانجو من كينيا إلى أبو ظبى اصر المصريون الذين يديرون المعمل الصحى لسبب مصطنع على حرقها فاتصلت بجعفر السلمان مدير بنك الاعتماد في البحرين. وافهمته بأن المشكلة مشكلته، وأننى لن أقبل أي عذر، وعندما احتج بأنه مدير بنك وليس بائع خضار واراد أن يعرف لأى سبب هو ملزم بحل المشكلة ، كان ردى : (كيف.. هاشم دا ما من امدرمان« جعفر السلمان كان أحد الطلبة البحرانيين في

السويد وقد التصق بنا حتى صار يتحدث اللهجه الامدرمانيه مع أهله كما كان يقدم نفسه «جعفر من امدرمان».. وباع جعفر المانجو وحوّل الفلوس إلى هاشم في أبو ظبى في ظرف ايام من استلام المانجو.

رفض صاحب مطعم يهودى في حى تكفه في تل أبيب أن يأخذ نقودى وأصر على أن اتناول الطعام في مطعمه في أى وقت بدون مقابل، لقد كان من أسرى الحرب في القدس سنة 1948، وكان يذكر بالخير مجموعة من الجنود السودانيين طوال القامة محترمين مهذبين، لم يتذكر اسماءهم ولكن يتذكر انهم من امدرمان..

في أحدى الاجازات سمعت بعض معارفى يودون الذهاب إلى «داموق» بعد حادث سطو ، لأنه ابن امدرمان ويعرف المجرمين .تذكرت أن أولاد الاغا كانوا يسترجعون المسروقات من اللصوص لأصدقائهم ومعارفهم. بدأت معرفتى «بداموق» عندما كان حارس مرمى «الزهور» وزبونا في قهوة «شديد» ؛ خاصة عندما توج صديقنا عبدالفتاح معلما على مقهى «شديد» ؛ واذكر الليله التى ذهب فيها داموق لقضاء مدة طويلة في السجن ، سنة 1964، فقد كتبت أنا وعبدالفتاح/ وآخر من قابله. لذلك طلبت من معارفى ذكر اسمى مقورنا بعبد الفتاح.

نُصِّبَ عبدالفتاح معلما بالرغم من أن أحد أولا فؤاد وود النوبه والمعلم قدوره كانوا من المرشحين، اذكر عبدالفتاح قائلا « تعرف يا شوقى في مدنى ما ممكن زول يجى من برة والناس تقبلوا كده، ناس أمدرمان أولاد ناس».

اذكر أن فتوة مدنى الأكبر عوض حلاوة كان قد حضر لأمدرمان بعد خروجه من السجن وتضعضع حاله بعد فترة السجن في الستينات . لقد كان موضع حفاوة لمدة طويلة في امدرمان، مرتدياً قبعته حتى في نصف الليل.

«الدين» ظهر فجأة في مقهى مهدى حامد بعد أن غادر السجن بعد الاعتداء بالضرب المبرح على الاستاذ عبدالله رجب، كأنصارى لم يقبل هجوم الاستاذ عبدالله رجب على الصديق المهدى. كإبن لرجل متدين كان اسمه «ياء الدين»، وسقطت الياء وعرف كأحد مشاهير امدرمان «بالدين» لقد كان يصطحب معه كثيراً من مشاهير ودنوباوى امثال كاتوحه.

عندما انتقل الفنان عوض الجاك من ودمدنى لأمدرمان سمعته يقول لمن لامه «يازول امدرمان حلوة وناسها حلوين»..

عندما استغرب أحد الموظفين في مكتب الخرطوم لماذا تعطى كثير من الاحترام للأخ حطب، قلت له «ديل أخوانا الكبار وأهل امدرمان الأصليين».

من الشخصيات المعروفة في الموردة رب السوق، لأنه كان يعرف كل كبيرة وصغيرة في السوق، له مجموعة كبيرة من الابناء، سعدت عندما عرفت أنهم صاروا رجال أعمال معروفين.

هنالك مثل في امدرمان يقول «الماشاف جادو يشوف وليداته» والعم جادو كان كثير العيال يبيع الفاكهة في عربة صغيرة، ويتخذ مكانه أمام الأجزخانه في المحطة الوسطى، مما أتاح لأحد الظرفاء أن يقول أن الموقع كان لسبب عملى، ففاكهة العم جادو كانت جد رخيصه.

كنا نذهب إلى العم حسين الجناينى في جنينة السيد الهادى ويستخرج لنا الديدان (الصارقيل) وأنا في طريقى إلى أب دبر (مرتفع صخرى) في الموردة سمعت العم بخيت مناديا « يا شوقى العار جا» والعار هو الاسم الصحيح لسمك البلطى. العم بخيت المعروف بـ (ابو الجوخ) كان يسكن لسنين عديدة تحت الكوبرى الصغير أمام المسرح القومى. سمعته مرة يقول لشخص (روما ما في فرنسا يا بليد ، روما عاصة إيطاليا).. كان العم بخيت واسع المعرفة ولقد كان من رواد صالونه متعلمون وأصحاب سيارت يأتون في الأمسيات .. إنها أم ردمان.

من شخصيات أم درمان رئيسة كورس الإذاعة السيدة الرضية. جاورتنا في السرداريه. وعندما رزقت وزوجها طفلا اسمته نهرو، تيمنا بالرئيس نهرو، بالرغم ن أنها وجدت المضايقات من بعض صغار النفوس الا أنها كانت لطيفه ومتسامحه لا تطلب أكثر من أن يتركها الناس وشأنها. وقد كان منزلنا مفتوحا لها.

العم حليم القبطى صاحب بار حليم في الموردة كان اجتماعيا ساخراً ولقرب باره من حديقة الجندول والريفيرا والموردة ازدهرت تجارته، وكان يقول عندما يكثر الزبائن: «عالم عجيب جينا لبيع الأدب ما نفع أهو نبيع قلة الأدب».. وقد بدأ العم حليم باره كمكتبه لبيع الكتب، وبالرغم من أن الريس قد فتح باراً بالقرب من حليم الا أن بار حليم كان الأكثر نجاحاً.

بالقرب من حليم كان دكان عبدالعزيز الحلاق، وهو ألطف خلق الله ومن شخصيات الموردة البارزة.. لم استمتع بخدماته لأن العم عبيد عبد النور

كان يجرنا إليه ونحن صغار لكى نحلق « جبنه» . وتجنبت الذهاب إليه لأنـه لم يكن يرضى أن يتقاضى منى نقوداً لأننى صديق أخيه عبدالرازق.. هكذا هـى أمدرمان .

«كربيت» الارمنى كان يسكن بالقرب من نادى الخريجين . كان يضرب به المثل في القوة، ونعتبره بطلا مثل عنترة أو شمسون الجبار، ولم يكن الـدين أو الجنس يفرق بين الناس.

التيهان الذين يبيعون البخور والعـلاج البلـدى لم يكونـوا تـوأمين بـل أشقاء فقط وهم أعمامنا الجنيد والنفراوى وأظنهم قد عـالجوا مـن البـشر مـا يفوق عدد من عالجهم العم الطريفـى مـسئول مخـازن الأدويـة في مستـشفى امدرمان اما العم جاد الله فقد كان دينمو مستشفى الارسـالية، العـم حـسن كان يبيع الزجاج الفارغ أمام المستشفى في أم درمان.

التوأمان الآخر اللذان حصلا على شهرة واسعة هما « تيهان الاسبتالية» حسن وحسين.. أحدهما طويل والآخر قصير . يبدأ أحدهما الجملة ويكملهـا الآخر . ينامان في الجزء الشرقى من المستشفى، ولهما حرية الدخول والخـروج إلى المستشفى . ويتواجدان طيلة اليوم في السوق.

العم جادين صافى الـدين المعـروف «ديـن في ديـن» لأن لافتـة منزلـه مكتوبة بطريقة لا تقرأ إلا هكذا.. كـان يجلـس تحـت الجميـزة الجنوبيـة أمـام الظبطية ويكتـب العرضـحالات ويعطـى الاستـشارات القانونيـة ، ويعمـل كشاهد زواج وطلاق .. صديق وغريمـه العـم حجـازى كـان يجلـس تحـت الجميزة الشمالية ويؤدى نفس الخدمات ، ويمتاز على العم جادين بأنه يـصنع

الأختام النحاسية، ويكتب العرضحلات متضمنة عبارة «بحيث ليس» أو بدون « حيث ليس» كل بسعره كان يستفسر الزبون الذي يريد العرضحال مضمنا بتعبير «حيث ليس» أو بدونه وكأن التعبير يضفى على العرضحال أهمية كبرى.

تفوق أم درمان في كرة القدم والرياضة ناتج عن جهد كثير من الرجال الذين كانوا يدفعون الشباب للرياضة ويصرفون ما لهم وجهدهم ووقتهم بطريقة عقائدية أمثال: عبدالقادر هاشم، حسن جبريل، مهدى، كامل، النعيم فرج الله، حاج بهوية، عبده جعفر «أبو الحديد» والاستاذ بدر الدين عبدالرحيم وآخرون. كان هؤلاء يقدمون عطاءهم بدون أن يتوقعوا شكراً أو فائدة ماديه، أمثال «منقزه» وفيصل الخير في كمال الأجسام ، وفي الملاكمة أمثال: برناوى، رزق معبد، إدريس جباره، هاشم عوض الكريم، خالد ارنب، ككس، ومحمد ألفى وآخرون.

في أم درمان كان الجميع يقدمون دون أن يتوقعوا أي مقابل. والدنا ناصر بلال رحمة الله عليه، بالرغم من عائلته الكبيرة وعمله كنجار في الفندق الكبير كان يقضى الأمسيات يُعلِّم رجال المورده والعباسيه أمور دينهم ودنياهم.. لقد كان عظيما سهلا في دينه ، يحب الدعابة والنكتة. كنت ككثيرين أسعد بتقبيل يده.

كان رجال الدين متسامحين يحببون الناس في الدين ، والمورده كانت تهتز يوم الخميس مع نوبه الشيخ جدو وننتظر حوليه الشيخ مرسى في زريبة الكاشف بفارغ الصبر. ويجمع أهل الحى الفلوس وجلود الأضاحى لعمل

الخير، كالنوادى الرياضية أو ترميم الجوامع الصغيرة كجامع «مرفعين الفقراء» أو «قدح الدم» ونتخاطف البليلة في يوم الاربعاء في جامع الدعيته في بيت المال. العم دوكه كان يصطاد الشباب الأقوياء من ميدان الربيع في طريقهم للعب الكرة، ويأخذهم لحفر القبور في حمد النيل، ولم يكن هنالك من يتجرأ على الرفض.. وأمثال العم دوكه كثيرون في امدرمان الذين يخرجون عندما تهب الأعاصير أوتهطل الأمطار لتفقد الجيران والأطفال والنساء.

.. وحظيت أم درمان كذلك بالعديد من نسائها العظيمات .. فجارتنا الحاجة بتول التى كرمتها الأمم المتحدة لأنها عملت كقابلة لمدة 67 سنة، ومدرسة في مدرسة القابلات في امدرمان، ومن رحمها أعطت السودان خير رجاله: الصناعى إدريس الهادى، وجارتها وزميلتها ست السرة كانت قابلة كذلك وهي صاحبة رأى قاطع في النظافة، دفعها لأن تخصص مرحاضا عموميا في دراها لعابرى السبيل، حتى يتعلم الناس النظافة ويتركوا التبول في الطرق العام.. وكانت لها ابنة بالتبنى بيضاء اللون بضفائر طويلة.

الخالة حنينه الصحة كانت تركب دراجة بالرغم من أنها سودانية صميمة بشلوخ واضحة ومن أسرة محترمة، تطوف المنازل وتقدم خدماتها ونصائحها، كانت موسوعة متنقلة تعرف كل فرد في أمدرمان وأهله... ومن القابلات المشهورات الخالة قسايه، بخيته ، الشول، ست دنيا، بت التهارى، وزنو، وآخريات.

أين يمكن في العالم أن يطرق الإنسان أي باب دار ويطلب ماء كما كنا نفعل في أمدرمان، وأين يبنى الناس المظلات والأزيار لخدمة الآخرين كما كان يحدث في أم درمان.

حظيت أمدرمان بـأعظم المدرسـات اللاتـى خلـدوا اسـماءهن وعـلى رأسهن : ست فله المسيحية، ست سورى الراهبة وسـت عمايـم ادم، وسـت بثينة بمدرسة المعلمات ، فاطمة دكة وثريا إمبابى ومدينة الغالى وآخريات.

لقد اشتهرت بعض النسوة في أم درمان بأنهن صاحبات مهـن أمثـال: بنت الريس التي يضرب بها المثل «بت الريس حوتا كويس» وهي أشهر بائعة سمك في امدرمان. مستورة في العباسية تحت هي صاحبة الطعميـة المـشهورة التي قال عنها أحد الظرفاء «أنهـا زى الـدبرياش». زكيـه المـسيحيه صـاحبة المتجر أو الدكان في المسالمة ، لم تكن ترد طفلا حتى بدون فلوس. هجوة ملكة الكسرة في الأنجيرة يقال أنه كسرتها زى القرمصيص. حاجة كلثوم السمسارة والمحسنة.. لقد تبنت كثيرا من الأطفال وساعدت الأرامل، ولم تغلق أمامهـا حتى أبواب الحكام.

من الشخصيات الفذة الاسطى نقش، بقامته التى تفوق المـترين، كـان أشهر اسطى مواسير في شركة النور والماء.

التسامح من أعظم الأشياء في أمدرمان ، بالرغم مـن أن بـابكر بـدرى كان لايزال حيا فقد ارسلنا والدى إلى مدرسة الأمريكان ، كما أرسل اخـواتى إلى مدرسة الارسالية وعندما استوقفنا ابارو، وهو وقتها كان ضابطا صغير في البوليس واستفسر عن عدم اعتراض أهلنا في الذهاب إلى مدارس المسيحيين؟ وعندما أكدنا له عـدم وجـود أي اعـتراض، ارسـل ابنـاءه سـمير ومنـير إلى مدرستنا.

أغلبية آل بدرى كانوا أنصاراً يبـايعون الإمـام سـنويا ولكـنهم كـانوا يعطون أصواتهم السيد حسن عوض الله وزير الداخلية وأحد دعائم الحـزب الوطنى الاتحاذى. فقط بحكم الجوار والعشرة . إنها أمدرمان... لقد كان العم عوض عمر الذي يرتل القرآن في الإذاعة ويؤكد كل أهل أمدرمان في صـلاة الاستسقاء والمناسبات الدينية ، يتوسط لأبناء الحى لكـى يقبلـوا في مـدراس الأقباط، كما كان هو مدرسا في مدارس الاقباط.

والآن يشرد الاقباط من السودان وتعتبر مضايقتهم نوعا من الجهاد.

قبل أكثر من مائة سنة كان جدنا بـابكر إدرى يـستأجر متجـرا مـن آل بسيونى اليهودي، وقد استلف مبلغـاً مـن صـديقه ليفـى اليهـودى المقـيم في سواكن ليقوى موقفه المالى . آل إسرائيل وآل منديل وآخرون من اليهود كانوا يعتبرون من أعيان أم درمان ونتعبرهم أهلنا . اليوم نعيش كجيران مبـاشرين مع فتحى عازر «أبو جيمى » وكان من الأقباط كما فعل جدودنا منـذ التركيـة السابقة. أن التسامح الذى وجد في أم درمان لم يوجد في أي مكان في العالم.

الأستاذ شوقى الأسد، بجانب شهرته الوطنية والتعليمية، كان خطاطا تؤخذ إليه لافتات الحكومة الخاصة بقسم الحركـة، ولقـد وجـدت اللافتـات وبعض الزوار طريقهم إلى دارنا ، بطريق الخطـأ لتطـابق اسـمى معـه، لكـن الاستاذ شوقى الأسد الذي صنع لنفسه مجداً قبل أن تولـد والـدتى ، والـذى جند السودانيين للحرب في فلسطين ، لم يكن يغضب للخلط في الاسـماء مـع صغر سنى، بل كان يقول لي «ابقى عشرة على الاسم »، أنها أم درمان.

العم جريس مسيحى كان يسكن بالقرب من حوش «القزاز»، مقابل لطاحونة كلوبس، وبالقرب من منزل عبدالله خليل وطابونة حاج البخيت، تصادف أن سأله سينا ونحن في طريقنا إلى المدرسة أن كان عنده شطة. ولأن دكانه فاخر فقد طردنا العم جريس، وصرنا نعاكسه كل يوم بزعامة سينا وابشر . عرفت أخيراً من محمد محجوب أن له أبنة بالتبنى اسمها الرحمة وهي مسلمة . لقد كان موظفا بالمعاش يملأ وقته بالعمل في الدكان وكان شخصا محترما في حى السيد المكى.

«البوليس» ليسوا من الناس المحبوبين في كل العالم . ولكن في أم درمان كنا نعظمهم ونعتبرهم ابطالا كعمنا الصول « شنب الروب» والجاويش ميرغنى، والعم عبدالله دلدوم، الذى خلفه ابنه عطا المنان بعد وفاته في نفس المهنة. العم سيد أحمد كان مسئولا من النظام أمام السينما الوطنية، وعبدالله بون أمام سينما برمبل وصاحبها قديس عبدالسيد المسيحى وأبو داود في الحركة.

أشهر مطاعم السوق للفول المظبط كان محلات صبر وجعفر ، ويتربع بين بقامته الطويلة على عرش الباسطة ، ويرتبط اسم العم أبو الفتح مع الانصارى ومحمد على والغالى في التاكسى، وفضل المولى وشواش وسقيد في الكارو. فرقعون وسورج في التمباك. العم رضوان كفيف البصر كان ملك لحمة الرأس «النيفه».. كان يجلس في المساء في سوق العناقريب على ضوء لمبة الكيروسين. شريف الذي يسوق العربة البيضاء الي يجرها الحصان كان يوزع رغيف «كوستى كريانى» في المحطة الوسطى على المنازل . العم سعيد صاحب

الحمار الابرق الذي كان يجوب به كل ام درمان، يوزع ليموناده من مصنع نظاريت ايمريان خلف الجامع، وبالرغم من أن العم سعيد كان يكسر بعض الزجاجات وأن أحمد ومحمد بدأ يوزعان اللموناده بالدراجات إلا أن وفاء نظاريت لم يدفعه للتخلص من العم سعيد.

بعد وفاة والدى كنت اذهب إلى الظبطية لإستلام معاشه. وكان عبدالعظيم الصراف بهندامه الانيق وابتسامته يخدم كل أرباب معاشات أم درمان وكذلك مرتبات كل العاملين في البلدية وبقية مصالح الحكومة في امدرمان بدون هويات أو بطاقات اثبات شخصية وكان العمل يتم بدقة وامانه وكان عبدالعظيم يعرف كل ناس ام درمان.

لم تكن عندنا مشاكل صعبة تحتاج للقضاء، وجرائم القتل كانت أحداثا بعيدة ومتفرقة ولايحضرنى الآن إلا ثلاثة جرائم قتل، منها ذلك الشاب من الشيخ الطيب الذي قتل رجلى بوليس وسيدة اثيوبية في مشاجرة . وهناك قتيلة الشنطة «عائشة هارون» وقتيلة الكوشة . ولم تكن القضايا آنذاك تزيد عن المخالفات والمشاجرات التي تجد طريقها إلى المحكمة القروية أو مجلس القضاء الاوسط الذي يتكون من أعيان امدرمان وعلى رأسهم عبدالرحيم محمد خير صاحب مصنع العطور. هؤلاء كانوا يؤدون هذا العمل دون مكافأة مالية مثل إدريس الهادى، والعميد يوسف بدرى الذي كان مسئولا عن محكمة الأحداث.

كنا نعظم اسكندر فهو أحد سائقى الترام، وكذلك العم منور الذي اصطدم بالشيخ السراج الذي كان يسكن في منعطف ترام أبو روف، والذي كان يتضايق من صليل العجلات في ذهابه وايابه أمام منزل الشيخ السراج.

العم عقارب كان يقود ترام نمرة 28 المتجه إلى أبوروف. وكانت الأمهات في حالة الغضب من ابنائهن يدغين عليهم بعبارة «يدوسك 28» .. ومن سائقى الترام المعروفين العم الزبير والعمدة.

العم سليمان النيجيرى كان يمتلك ويدير المكتبة الوطنية مقابل السينما الوطنية . كنا نذهب إليه لشراء الكتب والمجلات وكان لا يجيد القراءة والكتابة، ومع ذلك كان يحفظ كل اسماء الكتب واسعارها.. والعم سليمان بدأ حياته بائع كتب جوال يحمل كتبه على ظهره، وهو الذي باع ديوان أحمد شوقى إلى الشاعر التجانى يوسف بشير، والديوان سبب طرده من المعهد.

العم عثمان بدرى عم السيدة حاجة كاشف من الاتحاد النسائى كان من رواد الثقافة في ام درمان وكان يمتلك ويدير مكتبة الثقافة في مدخل سوق أم درمان قبل أن تهدم العمارة وتبنى بطريقة حديثة وتشمل محل خيرات للمرطبات.. بعدها انتقل إلى سوق الجلود بـ«الملجه» ثم اتخذ مكانه الأخير خلف ستديو دينو.

ابراهيم البوسته بحجمه الصغير، ووجه الهادئ، والشال الضخم على رأسه والبردلوبة الكاكى والحذاء الباتا، كان يجوب كل أم درمان على قديمة ويعرف كل الناس ويوصل الخطابات حتى للذين غيروا عناوينهم.

خوجلى «ساحوته» الحمّارى، كأن طويل القامة تتدلى رجلاه قرب الأرض وهو على ظهر حماره الصغير، كان معلم من معالم أم درمان بشهيته الخيالية وقدرته على التهام كميات كبيرة من الطعام. في المرات التي تكون فهيا البضاعة خروفا محمراً أو جوالاً من التمر لا يقّدر للبضاعة أن تصل. فقد كان يلتهمها في الطريق ومع ذلك لم يقاضه أحد أبداً.

بعض أهل امدرمان كانوا ذى اقدام راسخة في احتساء العرقى، وكـان بينهم كثير من المتعلمين وبعضهم مـن أسر عريقـة، وبـالرغم مـن ادمـانهم لم يفقدوا احترام المجتمع، ومن بينهم الاستاذ عبدالله عشرى «دابى الليل» كتلة، حسن عبدالفراج شحره، و «ضيعوك» الذي سميت عليه محطة ضيعوك بحى الرباطاب.

من معالم أم درمان مجموعة الضباط المتقاعـدين بخطـواتهم العـسكرية ولبسهم المهندم أمثال العم سليمان ابراهيم ، كافى ، زاهـر سرور، عبـدالفراج وآخرين.

حتى الحيوانات كان بينها مشاهير، كحمار العم هريدى الذي يـضرب به المثل وخيول السوارى ليـل وكاسـح، وكـلاب العـم البنـا أمثـال برميـدو وكـبرى وكلـب اشـلاق البـوليس الـضخم المـسمى جبـل. تمـساح كلـب الشينتاتاى.

حتى الدراويش والمجانين كانوا يجدون عناية.. المكشكش أبـو طالـب كان يركب كل المواصلات بدون أن يدفع شيئا.. مـن مجـانين أم درمـان كـان كرضم . ميه ، بت التور، وتامبلا، وطلقها ، وسلطه، ود الفتير العملاق، حبل الفار ، ابو العفين، ابو الدفاع، الدخرى وآخرين.

على رأس ظرفاء أمدرمان الأخ كمال « سينا» وصديق مـولى ، إبـراهيم الشيخ « ود النخيل» بالقرب من شارع السيد الفيل كان قبلة كل الناس حتـى رجال الدولة والوزراء ، مثل صديقه وقريبة وغريمـه أدريـس شـكاك، كـان عنده قوة مغنطيـسيه لجـذب البـشر، يـشاركهم في هـذا حـسن الطيـب « ود الحاجة» ، الهادى الضلالى ومحمد عبيد وآخرين.

الفاضل أب أحمد صاحب المخبز الصغير في حى الرباطاب، يعرفه الجميع ويحبونه ، بالرغم من مواصفات الخبز الصارمة التي فرضتها كل . الحكومة والعقوبات المتوقعة. كان أب أحمد يصنع خبزاً خاصاً بمواصفات خاصة . الفاضل ككل مشاهير امدرمان كان فوق القانون وقد أحبته امدرمان.

في أحد الأيام قبل الظهر بقليل فكرنا في أكل شيء ونحن (جالسين) في حديقة الريفيرا، ولم يتوفر لنا أكثر من شلن.. فكرنا في شراء رؤوس السمك المقلية من السكى، وبالرغم من مناداتى عدة مرات « ياالشيخ يا الشيخ عاوز ريسين» إلا أن الشيخ كان مشغولا بالصاجين الكبيرين وقلية الظهر ، وهي القطع الصغيرة التي تباع في الشوارع والانادى «بنوك الدم»

عندما لاحظنى العم عثمان «السكى» قال لابنه «يا كحل.. ادى الولد دا ريسين ، املأ ليه الورقة وماتشيل منه فلوس دا اخو منعم». منعم هو ابن المقاول عبدالله حسن عقباوى وابن اخت العم عثمان زوج ابنته فيما بعد.

هكذا كانت امدرمان.. الكل يعرف الجميع.

ونحن في حولية الادريسى بالموردة افسحت الطريق لأ حد الراقصين في حلقة الذكر، وقلت باحترام «أهلا عم عبدالرحمن» وعندما سمعت الرد «أهلا أهلا يا شوقى» أحسست باننى قد صرت أطول من مئذنة جامع الادريسى العم عبدالرحمن أو مريخ كان يدفع عربة التسالى والفول وحب القرع والحمص ويجلس أمام السينما الوطنية إلى منتصف الليل وأمام دار

الرياضة في العصريات.. كل أم درمان كانت تعرفه وهو يعـرف أغلـب أهـل أمدرمان خاصة منطقة المورده.

في احدى اجازاتى كنت جالسا مع أخى اسماعيل الفيل أمام منزلهم في حى السروجية.. اقترب منى عثمان طه قائلا «هات» وعندما دفعـت الاتـاوة أحسست بسعادة .. وأنا صغير تمنيت أن يأتى اليوم الذي يطالبنى فيـه عـثمان طه بالاتاوة التي يفرضها على بعض سـكان امـدرمان . عـثمان طـه شخـصية أسطورية فهو صديق قائد الجيش السودانى حمد النيل ضيف الله وكـل مـنهما سمى ابنه تيمنا بالآخر.

بدأ عثمان طه حياتـه كعربجـى ، وأول سـيارة تاكـسى اغتناهـا كانـت بمساعدة الرئيس الأزهرى وآخرين، ايـن يحـدث مثـل هـذا في أي مكـان في العالم؟ انها الامدرمان.

وأنا طالب في الثـانوى حـضرت والـدتى عـدة مـرات بـسيارة أجـرة ورفض السائق أن يأخذ أجرته لأنه يعرفنى، كـما رفـض الجرسـون في بعـض المطاعم أخذ الفلوس لأن أحدهم كان مارا وتكفل بدفع الحساب لا لشيء إلا لأنه يعرفنا وهو يفعل ذلك حتى دون أن يكشف عن هويته.

في بداية الستينات حضرت إلى المنزل للغذاء وعلى سريرى كان يستلقى ملاحظ الصحة الذي ما أن رأى صـورتى معلقـة عـلى الحـائط حتـى صرف العمال ومعدات الرش واستلقى على سريـرى وطلـب الـشاى المظبـوط، انـه الزين هيبه. وكنت قد تعرفت به قبل مدة قصيرة بواسطة اصـدقائى بـالموردة

أولاد مسار، حسن النمر، برقودى، ابراهيم بالا لايكا، وعبدالسلام.. ومن مشاهير الموردة كثيرون أمثال: ختم، ود الزبير، شواش، اميقو، المحينه، ود الاشول، شامبى، الصينى، الريفى، رحال الجزمجى عبدالواحد صاحب المطعم، عبدالقادر الجزولى الخياط، سيد صربندى، اطرش قديس، توتو الخياط، بنضر، وقناطه الذي كان يتحدث فقط باللغة العربية الفصحى.

عندما تضايقنا من الزبالة «الكوشة» أما منزلنا في السردرايه، طلبنا من زوج اختى الذي يسكن معنا وكان قاضى جنايات امدرمان وأول السودانيين الذي تقلدوا منصب ضابط مجلس بلدى امدرمان، أن يتخلص من الكوشه. ولكنه قال «أنا ممكن احول الكوشه دى بكره، لكن حيختوها قدام بيت زول تانى وهو كمان حيتضايق» لم نتطرق للموضوع مرة أخرى. فقد كنا نهتم بالآخرين وفي بعض الأحيان نفضلهم على أنفسنا.

العم كردمان كان من تجار الماشية في امدرمان ولقد اتفق معه ابن خالى صلاح بطريقة مبدئية على شراء كمية كبيرة من الضأن بدون أي شيء كتابى، وفجأة فتح باب التصدير مما جعل الأسعار تتضاعف، ولم يجد الذين طلبوا شراء الضأن بالأسعار الجديدة سوى الطرد من العم كردمان لأنه قد أعطى كلمته. وحتى عندما طالب صلاح برفع الأسعار لم يواجه سوى غضب العم كردمان.

في الأعياد والمناسبات وليالى رمضان كانت الدوارات «النوامات» وبعض الألعاب مثل البريمو والألواح تنتشر في المقاهى مثل مقهى شديد، على شلوفه «السمانى سابقا»، مكى، مهدى، حامد، الحريق وغيرها.

كان العم خضر الحاوى يتحصل على نسبة معينه وكثيرا من الاحترام ، وعندما سألت المعلم بقارى تفسيرا لهذا كان رده: « الرخصة لكل امدرمان كانت تستخرج تحت اسم العم خضر أيام الحاكم العام البريطانى الذي كان بابه مفتوحا للعم خضر» وكنوع من العرفان بالجميل والعشرة تستخرج لأن نسبة للعم خضر».

في زريبه الكاشف كنا نجتمع بعد الدافورى تحت اللمبة، ونجمع ما يتوفر من النقود للذهاب لسينما العرضه، وشلتنا كانت تضم أولاد العم كاورو شيخ العرامه والدباغين ومحمد ودوكه، وعبدالله «دواى» وآخرين.. كان رسم الدخول «شعب» قرشين للفرد وعندما تنقص الحسبة ننطلق إلى دكان الحلاق عنبر في المحطة الوسطى ويقوم عبده أخو دواى الأكبر بتكمله المبلغ.

العم أحمد كان يدير البوفيه في مدرسة بيت الأمانة، يطوف المدرسة في فسحة الفطور ليرى إذا كان هنالك طفل بدون فطور سائلا «أنت ما بتاكل مالك؟ قروشك وقعت ولانسيتها في البيت؟ تعال شيل حاجة تاكلها». امدرمان كانت مليئه بأمثال العم أحمد.. فالعم «لورى» الذي كان حارسا في مدرسة العباسية الأولية للبنات كان يحمل بعض الحلوى في جيبه ويستمتع عندما يطارده الأولاد الصغار «ياعم لورى ادينا حلاوه» لقد كان بالرغم من عمره المتقدم جداً يعمل بهمة وبوجه بشوش.

في المرات التى حضر فيها الحاكم العام لشرب الشاي في منزلنا. لم يكن مصحوبا بأكثر من مساعده والسائق السودانى، بدون هيلمانه وموكب وحماية

.. وعندما تأخر الرئيس أزهري ومبارك زروق نصف ساعةن لم ينتظرهم والدى، وترك الدار لزيارة صديقه توفيق صالح جبريل في القلعة، وعندما قلت للرئيس بأن أبى خرج قال الرئيس ضاحكا «أبوك ما بلعب في المواعيد» ولم يبد عليه حتى أقل الاستياء.

مهنة الطب لم تكن تعنى للدكاترة الأوائل غير الاحترام والفخر وكثيرا من المتاعب، الدكتور على بدرى محمود حمد نصر وعبد العزيز نقدو الهادى النقر، والباقر على أرباب وآخرين لم يكونوا يتقاضون فلوسا على أتعابهم، والذين أتوا بعدهم أمثال على أرو، نابرى ، النور عبدالمجيد، كانو يخدمون الناس بدون تأفف.

أكبر ورشة للنجارة كانت للعم بشير محمد أحمد، الذي كان محسن كبيرا مثل عبدالمنعم محمد، يهتم بتعليم أطفال أم درمان الصنعه، وكان ناصر الحداد معلما لكثير من الصبية وقد احرز البعض منهم نجاحا أمثال سليمان «قلاووظ» صديق أخى عمر وصديقهم الفنان إبراهيم عوض الذي بدأ حياته حداداً.

كل مشاهير أم درمان كانوا بشراًعاديين، يجوبون الطرقات ويختلطون بالناس، ونحن صغارا في بداية الخمسينيات أخذنا دكتور محمود حمد نصر في جولة في سيارته في احدى أمسيات رمضان، وعندما شاهدنا أنوار الباخرة «الطاهرة» دخلنا على السيد عبد الرحمن المهدى للتحية، وكان بدون حرس وبابه مفتوحا للجميع. الوزراء والزعماء السياسين كانوا في صدر كل المحافل

وبسهولة في أي مكان كان يمكـن أن تـشاهد مـشاهير الفنـانين أمثـال أحمـد المصطفى، والكاشف، ابراهيم عوض، وسيد خليفه أو يبـادرك المنلوجـست عبد الكريم بلبل بالتحية ويحكى لك آخر نكته، وبلبل كما هـو معـروف هـو الذى واصل سيرة الفكاهى «ضربة» في العروض الفكاهية. صـديق منـزول الذي اختير ضمن أفضل عشرين لاعبى كرة في العالم، كان يعيش في امدرمان في بساطة ودون هالة من الدعاية. كابتن المـريخ برعـى «بريقـع» كـان يجلـس يوميا بجوار «اب ربح» صديقه الجزمجى في برنـدات الـسوق، الرسـام جحـا بملابسه الخاصة ولوحاته التى كانت تزين أغلب جـدران مطـاعم أم درمـان الشعبية كان مثالا لابن أم درمان بشاشة وتواضعاً .

ونحن في مدرسة الأحفاد الثانوية كنا نتلقى العلم من معلمـين أجـلاء وبارزين أمثال العميد يوسف بـدرى، النـصرى حمـزة، العـالم والدبلوماسـى عوض ساتى، المناضل الجاك عامر، والمؤرخ موسى المبارك، والشاعر الفحـل عبدالله البنا، والأستاذ مكـى فـوزى ، الأسـتاذ الـصادق عبـدالله عبدالماجـد والأستاذ محمد سعيد معروف والشاعر العالم عبـدالله البـشير وآخـرين، أيـن يمكن في أي مكان في العالم أن يتـوفر معلمـون في مثـل هـذه القامـة لتعلـيم النشء.

عندما توفى والدى وجدنا أنفسنا كما هـو موقـع تحـت وصـاية غريمـه السياسي محمد صالح الشنقيطى، ورغم أن السياسه في الخمسينات قد دفعـت أبى والشنقيطى إلى خصومة ومقاطعة ولكن الأخير كان أول من طـرق بابنـا

في الليلة التي أسلم فيها أبى الروح، بالرغم من عدد آل بـدرى الهائـل وأهـل والدتى أمثال الدرديرى نقد، وعبدالعزيز نقد وآخرين صـار الـشنقيطى هـو الوصى علينا لأننا كنا قصر.

لقد أطلق أبى علينـا نحـن ابنـاءه أسـماء بعـض خـصومه الـسياسيين كمحمد صالح الشنقيطى، محمد على شوقى، وعبدالسلام الخليفة كـما سـمى أحد أبنائه باسم محمد سعيد العباسى احتفـاء واعجابـا بـشعر ذلـك الـشاعر وكان أبى يخدمه بنفسه عندما يحضر للزيارة.

علاقة الجوار كانت لها قدسية واحـترام مـن الجميـع.. موسـى «رأس حرية» كان من أشهر بائعى البنقو وكان يعمل معه البلطجيـة أولاد الحنـاوى التوائم. كـان هـذا الرجـل لـسنين مجـاورا لـوزير الخارجيـة مبـارك زروق.. «الوش» البلطجى وبائع البنقو كـان جـارا لخلـف الله خالـد ووزيـر الـدفاع آنذاك..«الكلس» كان يبيع البنقو ويسكن سوق الشجرة، كان شهما وأول من يهب لتقديم المساعدات في المآتم ويضع سيارة شحن تحت خدمة أهل الحى في مناسباتهم، قريبه «علبو» بالقرب من دكاكين الطاهر خال العيال كـان محبوبـا وسط الحى.

عندما اتجه لاعب الكرة حـسن العبـد إلى المقـاولات الـصغيرة كنـت أساعد بعض أصدقائي الكهربائيين لتوصيل الكهرباء لمنـزل نـور الله في حـى العرب الذي أطلق عليه «أخر بيت» لأنه كان آخر مبنى في حى العرب. وما أن انتهينـا مـن تركيـب العـداد حتـى حـضر أغلـب الجـيران وطـالبوا بمـد توصيلات إلى بيوتهم ؛ مع العلم أن نور الله كان تاجر بنقـو شـهير مثـل أبـو

الدرداق بالقرب من زقاق المنفلة بسوق الحدادين، بشير الحلاق بود نوباوى ، عبدالقادر حسن عباس «تورو» ببانت وهو ابن عمـدة المـوردة، محمـد عـثمان الدنقلاوى، أكبر وأشهر تجار البنقو كان النفراوى وأبن عمه «الفخ» ود الفتير العملاق والذي به مس من الجنون كان يمارس هذه المهنة على المفتوح متسلحا بفرار في جيبه. حتى هؤلاء اساطين العالم الأرضى كان جزءاً من أم درمان.

عباس النشال كان يقول «المـشكلة مـا البـوليس المـشكلة نـاس تاكـل عيش، لو وقع النشال في ايدهم هو البطلب البـوليس، هـو عـلى حـق، اذكـر عندما كنت في الثانية عشرة من العمر كنت اذهب بالشيك إلى العم مـصطفى الهادى والد المحافظ مهدى ليوقع عليه ما قد يبلغ المائة جنيهـا وكنـت أحملهـا بشكل ظاهر في يدى وأخذ الترام، أو اذهب إلى البيت سيراً على الأقدام، دون أن يتعرض لي أحد.. «اب دربين» كان أشهر نشال ولـص في المـوردة، وكـان يضلل قصاصى الأثر بأن يلبس احدى فردتى حذائه بالمقلوب ، ولهـذا سـمى بأب دربين .

عندما أعلن النميرى قوانين الشريعة ؛ سمعت صديقى الطيب يقول لـ «الضل» وهو أكبر نشال في السوق « والله يا الضل خايفين عليك من القطـع« فرد الضل «المشكلة مش القطع ، المشكله الزيت المغلى».

في بداية الستينيات ، انتهـت حيـاة آدم قطيـة كبلطجـى وأخـر رجـال الكسر الخبزلى بعد أن أصيب في معركة شرسة تحطمت فيها ضلوعه وسلسلته الفقرية. آدم هذا سكن مرة بجوارنا في حى الشيخ دفع الله وكنا نـزوره وكـان يجد عناية واهتماماً حتى من اعدائه السابقين.

أشهر شحاذ في أم درمان كان الكسيح المشهور «يافراج» لأنه يردد «يافراج حق العشا يارب على المارة» وكان يسكن في فريق عمايه شرق ميدان الربيع؛ الذي يسكنه أيضا مجموعة كبيرة من المكفوفين.

ونحن في قعدة في منزل اللبخ وأخيه الفنان الزين في العباسية فوق بصحبة منى الخير واكرت وكثير من العازفين اتى من طرق الباب ليخبر الناس قائلاً «الحلة فيها جنازة» وانطلقنا من القعدة لنأخذ «يافراج» لمثواه الأخير.

جارتنا في العباسيه فوق كانت «حوه كلاب» أشهر بائعة عسلية بام درمان شرق ميدان الربيع وكانت «بت أحمد» أشهر بائعة عرقى.. جارتنا من الشمال « فضل الساتر» كانت تتخصص في بيع الـ «قام زت »، ويجاوزنا عبر الحائط من الغرب «حوش البقر» الذي يقطنه كثير من البشر ؛ أحدهم على عليليبه جزار الـ «كيرى» الذي كنا نشترى منه اللحوم بالرغم من علم محمد صالح عبداللطيف قاضى جنايات أم درمان زوج أختى الذي يسكن معنا في نفس المنزل.

الخالة سالمة كانت أحدى مشاهير العباسية فوق. وفي بيتها مات سند الذي وجد جثمانه في خور ابو عنجة ومسمارا مغروسا في رأسه. وهذا حادث شهير في امدرمان في الخمسينيات .. سالمة كانت تزورنا وتظهر كثيراً من الأحزان لأن القتيل كان يمت بصلة القرابة لوالدتى. كانت والدتى تتسامح معها ككل آل امدرمان الذين كانوا يعفون.

محمد ألفى كان من الجيل الأول من الملاكمين أمثال برناوى، النعيم فرج الله وآخرين، وقد دربنا ألفى في نادى المريخ قبل أن ينغمس في شرب الخمر.. وفي احدى جلسات الشرب في زقاق المشحمة الذرية بدكان ود أب ربح الجزمجى سدد احدى عشرة طعنة بسكين قطع الجلد لسالم أحد مشاهير السوق المحبوبين. وعندما حوكم وواجه المشنقة مشى بثبات وقد زغردت اخته حواء «الطقطاقة» التى لا تحتاج لتعريف. كان الفى وهو في الانتظار يحضر إلى المقهى مع رجال البوليس ليلتقى بأخيه الأصغر ليتحصل على بعض اللوازم ويحيى بقية الملاكمين الذين يعملون في المنطقة كعجلاتيه. وكانت له فرص واسعة يتحرك داخل الحلوانى وفي زقاق الاسكله بعيدا عن الحراس للهروب ولكنه لم يفعل هذا وكان البوليس مقتنعاً بأن الفى لن يهرب. وهكذا كان رجال امدرمان في مسلكهم وهم يواجهون مصائرهم حتى الموت.

أين يمكن لإنسان أن يستأجر دراجة يبلغ ثمنها سبعة عشر جنيها ونصف بدون أن يقدم أوراق هوية أو أن تكون له معرفة سابقة بالمالك ثم يعيد الدراجة في الوقت المحدد .. كان هذا يحدث في كل أم درمان.. من العجلاتيه في امدرمان نجد ميرغنى الريس في حى الملازمين ، عبدالكريم في حى السوق كوج بالإضافة إلى عوض كوج والعم عطا في سوق الشجرة. عوض حسن وسلامة في حى العرضة.. أما خلف الله أبو كرنك وأخوه زرقان وعبدالرحمن ككس والطيب عجوية والخير الذي بدأ حياته كصبى في خدمة عبدالكريم.. الحبشى كان أحد العجلاتيه كذلك.

بنظرة إلى الوراء وبحياة الإنسان في الخارج حيث توجد مهنة الحانوتى يجد المرء أن هذه المهنة ليس من الممكن أن توجد في امدرمان. ولقد كنا نجد أمثال العم ابارو في فريق فنقر وكشيرين غيره يحتفظون بالكفن والحنوط ويتنافسون في تقديم خدماتهم في المآتم . كان العم عبدالكريم بدرى وخضر بدرى، وأحمد داؤد يحضرون حتى قبل أقرب الأقربين ليقوموا بتجهيز الميت بغض النظر عن مكان المآتم سواء كان في ود التويم أو القماير، أو فريق ازحف التلتميات، فريق ريد، كاس كمرى، تامه، فلاته، عتاله،أو حى الملازمين، وكان الموتى يحملون على الأكتاف، ويترجل أصحاب السيارات والدواب للمشاركة في حمل النعش إلى مثواه الاخير لثلاثة مواقع لارابع لها هي: أحمد شوقى، البكرى أو حمد النيل.

كل خلاف كان يحل بواسطة الكبار الذين يلجأ إليهم الجميع لحسم المظالم بين المتخاصمين. اذكر أنه لما بدأت أم درمان تتوسع اتجه الناس إلى المهدية شمال أم درمان. عندما بدأت البلدية في عملية المسح اصطدم المساحون بالعم الزاكى الذي كانت له بئر وبعض البهائم في المهدية، استعان المساحون بالبوليس لحمايتهم حيث جرد العم الزاكى سيفه. وبمقاييس هذا الزمان كان من السهل أن ترسل له فصيله من الجيش لتقوم بقتله، لكن انذاك اتصلت البلدية بالسيد عبد الرحمن المهدى الذي أوفد له العم باب الله وانهى المسألة سلميا، فقد كان العم الزاكى انصاريا بالانتماء.. الآن تقوم مدينة المهدية «الثورة» كاكبر قسم ومساحة أرضية في أم درمان.

من تجاربى وأنا ابن ام درمان ، وجدت نفسى وأنا في احدى زياراتى لمدينة لندن بأحد الفنادق الفاخرة وقد ابدى العاملون دهشة لأننى لم كن أحمل كرت الاستدانة. فليس بالمكان نظام لحفظ النقود ولما سألونى لماذا لا أحمل كرتا ككل العالم المتحضر الذي يتعامل بكروت الاستدانة، قلت لهم اننى لا أريد شراء أشياء لا أحتاجها بنقود لا املكها.

الحقيقة أننا في ام درمان كنا لا نتعامل بالنقود وكان نظام الاستدانة سائداً الثقة المتبادلة بين الناس بدون مشاكل. اذكر أنه قبل بناء سوق الملازمين كنا نأخذ احتياجات المنزل من دكان عم إبراهيم بجوار قصر الشريفه أو من دكان عوض شمشوم. ولكن بعد بناء سوق الملازمين في بداية الخمسينيات بدأنا نتعامل مع سليمان الكمبلاوى، الطاهر اليمنى ، ثم التوم بالقرب من مدرسة الهجرة ، ومحمد ادريس صاحب بازار الأحفاد في السرداريه وعلى بن على اليمنى في العباسية فوق، وقايد اليمنى في العباسية تحت وأخرين .. في كل هذا كانت المعاملة تتم بدون نقد. فالراعى يأخذ غنم جدتى التى كانت لا تفضل بائعى اللبن الذين يتجولون بالحمير وكان الراعى يتقاضى أجره في آخر الشهر. كذلك كان يتم التعامل مع بائع القش الذي كان يلقى ببرسيمه من فوق الحائط ويأخذ حسابه كل أول شهر. هكذا كان يحدث مع العم نور الدائم الذين كان يحمل اللبن إلى منزلنا لقرابة ثلاثين عاما.. أما الشحوم والبنزين والزيوت وباقى أغراض السيارة فقد كنا نأخذها من طلمبه الطيب الخزين في ميدان البوسته . ونذهب للعلاج عند الطبيب اليونانى جورج دانجاس؛ وجاره طبيب الأسنان. ونتحصل على الدواء وكثيرا من اللوازم من اجزخانة امدرمان عندما كان صاحبها عميد كلية

الصيدلة ابراهيم قاسم مخير. وقد تحولت ملكيتها فيما بعد لاحمد داود. مئونة الشهر لحوائج البيت وتوابعها كنا نأخذها من بارفانت مارقوسيان المعروف بـ «راونتى» بجوار الجامع الكبير.

وكان والدى عندما يرسلنى إلى ليمينوس، كان يكفى أن أقف أمام موسى ودنفاش وبدون أن أقول أي كلمة كان يقوم بلف زجاجة الويسكى ويقول مداعبا «امش أكسرها، عشان يكسروا رقبتك» ولما تكون الكمية أكبر كان موسى يقول «اها توفيق والجماعة مع أبوك الليلة» يقصد الشاعر توفيق صالح جبريل.. وفي كثير من الأحيان كان والدى يتصل تلفونيا طالبا من موسى ودنفاش ليرسل المطلوب بالتاكسى الذى كانت ترابط عرباته في الموقف الكائن مباشرة امام محل ليمانوس.

مع بداية العام الدراسى كنا نذهب إلى عباس باتا في مكنى ودعروسة للحصول على الصنادل، ثم العم محمد يوسف للأقمشة وأخذها إلى الترزى خليل في الملجه، وقد كان متخصصا في حياكه الاردية.. الدفع في كل هذه المعاملات كان يتم فيما بعد بدون أي احتمال للخلافات.

لأغلب الأسر في أم درمان أحد العاملين في السوق الكبير يمت بصلة القرابة ، يستعينون به في شراء حاجياتهم من محلات السوق لشراء الأشياء الكبيرة؛ مثل الأثاثات؛ أو الدراجات. في هذا كنا نتوجه لعمنا يوسف ميرغنى شكاك، التاجر في السوق والذى كان يلبى احتياجاتنا المنزلية في نفس اليوم، أمثال العم يوسف ميرغنى كثيرون في السوق، يكرسون كثيرا من وقتهم في تلبيه طلبات أهلهم واحتياجاتهم من السوق.

أم درمان لاتنسى أبداً ابناءها مهما طال الزمن . في نهاية الثمانينات كنت اجلس في سيارة مع اثنين من الأصدقاء الذين كانوا من متعاطى البنقو، وكان قد دخلا في منزل لشراء طلبهم، ولكنهما اصطدما مع بائع البنقو وكادا أن يتشابكا بالأيدى معه. وفي خارج المنزل افاجأ بأن المعلم بائع البنقو قد رآني وقد يتوجه إلى بالتحية وسألني قائلاً: «أزيك يا شوقى، الأفندية ديل معاك ؟» وعندما لاحظ أنى لم أتعرف عليه من أول وهلة قدم لى نفسه على أساس أنه مصطفى على الله، فرجعت ذاكرتى إلى طفل صغير لا يتوقف عن الجريان في فريق العمايه. كان مصطفى هذا هو الأخ الصغير لصديقى يوسف على الله.. وانتهى الأمر بالتصالح وإعطاء الصديقين البنقو مجانا اكراما لى. أن ثلاثين سنة وأنا في الغربة لاتجعل معارفى بأم درمان ينسوننى وهذا حال الامدرمانيين.

«كبس الجبه» اسم طبقت شهرته الافاق في البطش والقوة ولقد اردى قتيلا بالرصاص في حفلة عرس عندما أطلق عليه الرصاص جد الطيار عز الدين عبدالقادر عمر الصادق.. لم أقابل كبس الجبه في حياتى، ولكنى تعرفت بصديقه الحميم أحمد عبدالفراج «قدوم زعلان» خال الفنانة حنان بلو بلو. اذكره مرتبطا بفكرة صممت عليها وهي القيام برحلة إلى ملكال سيرا على الأقدام.. كان كثيرا من الاهل الأصدقاء والمعارف يجادلوننى في الاقلاع عن هذه الرحلة لما فيها من المشقة والمخاطر ولكننى كنت مصرا على موقفى وأحتد معهم في الكلام ولم اتزحزح عن موقفى إلا عندما ناشدنى «قدوم زعلان» بترك تلك الفكرة.

يوسف «تهمه» من فتوات المورده كدنا مرة أن ندهس كلبة بسيارة صديقى عثمان ناصر الذي خرج من منزله شاتما ولأننى لم أكن أعرفه قبلها فقد رددت قائلاً «ديل أصحابنا يا عم يوسف بس مابيعرفوك» حينها ضحك العم يوسف وصار يحيينى كلما التقينا لقد كان يوسف هذا صديقا حميا للواء حمد النيل ضيف الله وكان يلجأ إليه كلما احتاج إلى عمل أو مساعدة مالية وكان منزل ضيف الله مفتوحا له. هكذا كانت أم درمان، بعد وفاة عبدالملك شقيق يوسف تهمه، وتردى موقف يوسف بعد احكام سجن متكرره؛ اقتحم في احدى المرات منزل فاروق وهبه في فريق ريد حيث كان من العادة أن يتجمع عتاولة المورده كل أول شهر للعب الورق ؛ فجمع كل الفلوس التى كانت على الطاولة ووضعها في جيبه قائلا « أنا بعد وساطة من اللواء حمد النيل قدروا يشغلونى منجد في المخازن بأربعين قرش يوميه، ما فيكم واحد يجى يقول ياعم يوسف هاك؟» ولم يغضب منه أحد من هذا ا الموقف أو مصادرة الفلوس .. وضحكت المورده كثيرا من هذه الواقعة .

الفنان شرحبيل الذى كان في ذلك الوقت رساما في مكتب النشر حيث تصدر جريدة «الصبيان» ومن شخصياتها الشهيرة «عمك تنقو» و «العازه»؛ كان أيضاً من أوائل من أسسوا فرقة موسيقية حديثة تستخدم الآلات الغربية، كفرقة لأولاد الحى وكان مقرها في المركز الثقافى السوفيتى، المواجه «البوابه عبدالقيوم» وكانت الفرقة تضم مهدى من الجيش، وأبو داود وطيوبه كراقص، والمهندس الفنى حسن السروجى: والدكتور جراح القلب المشهور الآن في منشستر على نور الجليل والذين انضمت إليهم زوجة شرحبيل مؤخرا كعازفه. ومع أن أعضاء الفرقة جاءوا من دروب مختلفة من الحياة، وذو

مستويات متفاوته في التعليم والسلم الاجتماعي إلا أنهم استطاعوا أن يتجاوزوا تلك الحواجز ليقوموا بعمل بهذا المستوى ، وهذا يعكس تمازج ابناء ام درمان آنذاك.

يوسف الحلبى الذي يجوب احياء ام درمان بالكارو والبوق لاعلانات افلام سينما برمبل؛ كان ذا ملكه خطابية متميزة بالرغم من عدم تعلمه ، شارحا محتويات الفيلم بكثير من التفخيم والتشويق لجلب المشاهدين. في هذه المهنة نذكر أيضا العم «شمشون» حارس بوابة الشعب بسينما برمبل بزمالة «أبو الريف» ومعهم أيضاً فيصل «روى».

من أبرز الساعاتيه في امدرمان نجد العم «فوتى» الذي كان يسير بظهره المقوس من ثقل السنين، والعم ميلاد والعم ابو شنب الذى كان يجلس في برنده مقهى الباب جديد، وكان عملهم والتعامل مع الجمهور يقوم على الثقة.

الحلاقون وكان ايضا يطلق عليهم لفظ «المزين» قد مارس بعضهم مهنه الختان » أمثال آل فرحات.. كانت صوالين الحلاقة منتديات ومكاناً لتداول الأخبار، كصالون رحمة الله المعروف بصالون الفن بالقرب من مقهى يوسف الفكى، يوسف الحلاق وصالون العم عنبر في المحطة الوسطى؛ وأبو الجاز بالقرب من سينما العرضه؛ وصالون عبده الجندى في مكى ود عروسه، وعبدالعزيز في المورده، وصالون عبدالماجد والحلاق والمغنى عطا كوكو أولاد الموردة ومصطفى طرزان في ميدان البوسته والذي صادف أن قابلنى مرة في مقهى وارغمنى ليحلق لي شعرى وكان طويلا قائلا «تعال احلق شكلك بقى

زى مجنون ليلى ، لو ما عندك قروش احلق ليك مجانا، خجلت الحلاقين». من ناحية أخرى كان الأخوة النيجيريين يمارسون هذه المهنة على الهواء الطلق وتحت الأشجار في أماكن متعددة من سوق أم درمان.

أذكر مرة أن أحد المغتربين بأبوظبى قال لى ساخراً «أم درمان شنو يازول؛ أم درمان بقت خرابات.. حتى الخدام المحترم ما يقبل يشتغل في ام درمان » فرددت عليه قائلا «والله ام درمان دى بلدنا.. وحتة لو كانت عاهرة مصابة بمرض نقص المناعة لتزوجتها ».

وأنا في السادسة عشرة من العمر وجدت نفسى مطروحا أرضاً، والصول بخيت يقوم بجلدى حسب طلب العميد يوسف بدرى عقاباً لضربى مدرساً ، وقد أكد الطبيب حدوث أذى جسيم يتطلب علاجى لأسبوعين. وعندما فتحت بلاغاً ضد العميد يوسف بدرى قامت القيامة في أم درمان، واعمى الغضب خالى الدكتور عبدالعزيز نقد حكيمباشى مستشفى أم درمان ، إذ لم يعد الموضوع متعلقاً بشأن صفيق يقاضى عمه، بل أصبح الموضوع يخص كل أم درمان وتدخل كبار رجال البوليس وعلى رأسهم أبو قرون، وعشرات الشخصيات المهمة وقام أبى بطردى من المنزل.

في يوم انعقاد المحكمة وجد القاضى الشاب عمر شمينه صعوبة في أن يرد على سؤالى: أين المتهم؟ وقد اكتفى بأن قال «حتى لو القانون معاك ، مش حأنادى العميد، ومش حانعمل أي حاجة » قام بشطب القضية. وحسنا فعل ... فأم درمان كانت على استعداد لتحمى كبارها من تطاول الصغار سيئى الأدب .

الفصل الثالث

ناس أم درمان زمان

ناس أم درمان – كلا م امدرمان – الريح ود أم در

ناس أم درمان

قديماً كان للدكاترة موض احترام واجلال في ام درمان.. ولهذا كان يقال «الدكاترة ولادة الهنا».. على بدرى هو أول دكتور سودانى ، وأول وزير لوزارة الصحة، وبعد تقاعده كان يعمل متبرعاً في مدارس الأحفاد.. وكان يقابل غضب الطلاب واستخفافهم بعلمه بالابتسامه، ويرضخ لطلباتهم في الذهاب إلى المستشفى لكى يعالجهم المساعدون الطبيون والممرضون.

من نوادر العم على بدرى أن ابنته نادته لأن ابنها المهدى كان مريضاً فما أن وضع يده على جبهته واحس بالحمى الشديدة حتى نفض يده قائلا: «الولد ده عيان نادو ليهو دكتور».. د.على بدرى كان قد نسى أنه دكتور.

في احدى المرات قفز صاحب حمار من حماره وسلم على دكتور على بدرى بحرارة شديدة، وقال انه كان يشكو من الضعف وضيق النفس وأعراض أخرى، وأن الدكتور على بدرى قد شفاه بحيث أن الأعراض اختفت لعشرات السنين، وهو الآن بخير ، وعندما انطلق الرجل بحماره وناداه د.على بدرى وسأله «أنا اديتك شنو زمان؟ الأعراض دى كلها اسى عندى انا».

لاحظ د.على بدرى أن أحد المزارعين في مشروع الليونه كان يدوبى ويعمل بنشاط بالرغم من أرجله كانت نحيفه جداً وكرشه منتفخه وعيونه

مصفره. فأخذه للمستشفى ليكتشف أن الرجل كان «دكان مرض» يعانى من كل أمراض الدنيا، وفي بضعة أيام توفى الرجل وقال أهله «كتلتـو الاسـبتاله» فوافق د. على بدرى قـائلا «الراجـل كـان خليتـو في حالـه كـان يكـون لـسه عايش»!!.

الدكتور محمود حمد نصر كان سهلا لطيفا هادئـاً لا ينفعـل ، كـما كـان كلاسيكيا ولا أذكر أنه أعطى أحد منا علاجاً سوى السلفه ، وكـان جارنـا في حيى الملازمين.. وفي إحدى المرات كانت اختى تخيط شيئاً فانغرزت الابرة في جفنها وفزعنا واخذناها للدكتور محمود خيب أملها فلقد سحق بعض حبوب السلفه واذابها في الماء واعطاها لاختى لغسل عينها.

العم محمد بدرى رحمة الله عليه عاش حياة عاصفة في شبابه وانكسرت رجله عدة مرات في حوادث سير في بداية الخمسينيات وأخيراً قرر الطبيب بتر الرجل. ولأنه كان فارساً فلقد وافق بدون اي تردد. وتصادف في اليوم الـذي ستقطع فيه الرجل أن انقطعت الكهرباء وهذا شيء نادر جداً في الخمـسينيات فأجلت العملية.

وتصادف حضور اخصائى عظام بريطانى كزائر وبعـد الكـشف عـلى رجل محمد بدرى قال بالإنحليزية للدكتور المسئول بـأن هنالـك أمـلاً في أن تشفى الرجل وليس القطع بالإجراء الصحيح . وفهـم محمـد بـدرى الكـلام وعندما عادت الكهرباء في اليوم التالى رفـض محمـد بـدرى أن يـسلم رجلـه للدكتور بالرغم من أن على بدرى وآخرين نصحوا بذلك وذهب إلى العم بتى البصير الذي كشف على الرجل وقال أنها بخـير «حـأجيكم بكـره في البيـت،

حضروا أربعة رجال شداد للمسك». وعاش محمد بـدرى أكثـر مـن أربعـين عاماً برجله التى كان من المفروض أن تبتر.

ونحن في أحد مآتم أم درمان. أتى رجـل طويـل القامـة يـسير برجـل واحدة لأن الأخر مقطوعة وتنهـد بعمـق وحمـد الله وجلـس وقـال «ادونـى كرسى ارفع فيها رجلى الكعبة دى لأن الكوب قطعوها» وعندنا رأى حيرتنـا حكى لنـا أن الطبيـب اخطـأ وقطـع الرجـل الـسليمة أخطـأ وقطـع الرجـل السليمه، وعندما اكتشفوا الخطأ تركوا الرجل الأخرى وكان الرجـل بـشوشا ضاحكا. ولا أذكر أبداً في ام درمان القديمة أن أحدا قـد قـاضى طبيبـا لخطـأ ارتكبه، فكل أهل ام درمان كانوا أسرة واحدة، فالناظر الطيـب شـبيكه كـان رحمة الله عليه كريم العين فلقد تعلـق في صـباه بعربـة الكـارو فأصـابه العـم شواش بالسوط في عينه. فلم يزد والده العم محمـد شـبيكه صـاحب مدرسـة النهضة أن قال للعم شواش : «الولد ولدك».

عمنا الدكتور . تسبب في عاهة لرجل شقيقى يوسف فأصيب بالـشلل وهو صغير ، ولم يتذمر أى إنسان ولا أظن أن اى أحد قد عاتبه.

خالد عبدالكريم ابن العم عبدالكريم العجلاتـى المـشهور في الـسوق كان في عمرى وكان وهو في طريقه إلى المدرسة يمر بحينا وكنـت أتحـرش بـه وأخيه. لما ضاق بي قام بطعنى وأنا في الحادية عشرة من عمرى وحين ذهبنا إلى المستشفى طالبونـا بأورنيـك تمانيـه الـذي يـستخرجه البـوليس للحـوداث ، وعندما رجعت بعد الخياطة والضمادات لم تزد والدتى أن قالت : «ود النـاس ده بتكون أنت خاتى عليه».. بعـد تلـك الحـادث لم أقابـل خالـد إلا في بـراغ

عندما حضر يبحث عنى لكى أرافقه للكشف الطبى والتسجيل في الجامعة.

حل الخلافات عن طريق الشرطة كان محرما نسبة لعشائرية أم درمان القديمة . فالعرف عن طريق الناس الكبار كان يحل المشاكل والمنازعات.. فقط الأغراب والأجانب هم الذين كانوا يذهبون إلى البوليس.

الضابط ظعوط صديق الضابط نديم كان محبوبا.. مات متأثراً بجراح غائرة نتيجة طعنة ومكث في المستشفى فترة ، وبالرغم من إلحاح الشرطة والأهل رفض أن يفصح عن اسم الشخص الذى طعنه ومات مأسوفا على شبابه.

أحد الدكاترة الإنجليز في هارلى استريت المشهور في لندن سأل بعض السوادنيين عن صحة البروفيسور بتى ولم يصدق عندما عرف أن العم بتى بصيراً فقط. فلقد لاحظ من صور الاشعة أن كسور السودانيين ملتئمة بطريقة جيدة وعندما يسال عن الشخص الذى عالجهم يكون الرد دائماً «بتى» فاقتنع الإنجليزى المسكين بأن زميله في السودان البروفيسور بتى صاحب أكبر عيادة، وليس عنده منافس لأن الجميع يتعالجون عنده. عمنا بتى خلفته إبنته على عرش المهنة وعرفت بـ «بت بتى» بارك الله فيهما فلقد خدما بلدهما بتفان قل نظيره.

عمنا الدكتور على أرباب شقيق الوزير زيادة أرباب كان من الرعيل الأول وكان مرحاً ومتفانياً وفي أحدى المرات انتزع من سهرة لطيفة في منتصف الليل لإجراء عملية لفتاة صغيرة وعندما خرج من العملية رد على استفسار أهل المريضة «بتكم كويسه ، بس الفى راسى طارت».

الدكتور اسماعيل نابرى كان ذكيا شديد الملاحظة وعيادته بالقرب من نادى الخريجين تتوسطها نخلة طويلة . وهو أيضاً شاعر مجيد وصديق لتوفيق صالح جبريل الذي خصه والنور عبدالمجيد وآخرين ببعض شعره لأنهم تكفلوا بعلاج توفيق وكثير من رجال أم درمان.. ومن مواقفه لاحظ الدكتور نابرى مرة بأن طبيبا أنجليزياً ضعيفاً في عمله وذلك في أيام الاستعمار والإنجليز يسودون العالم والذكتور الإنجليزى قد عمل في بعض المستعمرات قبل حضوره للسودان . ولكن هذا لم يثنى د. نابرى من مواجهة الإنجليزى الذي انهار واعترف انه ممرض فقط. وقد استخدم شهادات شقيقه الدكتور الذي مات في الحرب العالمية ولم يكتشفه أحد سوى د. نابرى من أم درمان.

الأورنيك «ثمانيه» كان يستعمل للحوداث ولكن عندما يقول البعض في ام درمان «عاوز اورنيك تسعة» فالمفهوم أن الامر يتعلق بالجنون ، لأن أورنيك تسعة يستخدم للمجانين فقط. السناهير كانوا مشهورين «بطب المجانين» أو علاجهم وكذلك الشيخ المكى البكرى الحنفى الذي حاول شراء منزل خضر الحاوى ولم ينجح، وفجأة بدأت الحجارة تتساقط في بيت خضر الحاوى، وبالاستفسار قال الشيخ لخضر الحاوى بأن السبب ولابد هو شمهروش شيخ الجان.. وبعد مدة بدأت الحجارة تتساقط بطريقة أكثر كثافة ولكن في بيت الشيخ المكى البكرى الحنفى فلقد سخّر العم خضر الحاوى فتوات السوق وصعاليك القهاوى للمهمة وانتهى الأمر بالصلح وقال العم خضر الحاوى «شمهروش بتاعى أنا أقوى».

في أم درمان القديمة العداوة ليست دائمة.. فالجميع كانوا كالأهل .

العم الصادق محمد الطيب مديرعام السجون في أيام عبود كان طيبا سهلاً يسكن في منزله الصغير في الهاشماب وكان المسجونون السياسيون يجدون كل العناية في سجن كوبر. والبلكامين يحضر صباح كل يوم ليلبى طلبات السياسين من الآكل . حتى الحلو.. وفي أكتوبر كان العم الصادق يبكي من الفرح ويقول للمسجونين السياسيين : «أنا كنت كل المدة ده بدعو ليكم يا أولادى وكنت ادعو الله أنو ما تحصل ليكم اى حاجة وانتو تحت مسئوليتى».

أخونا اللواء سجون بشير تالك بشير ابن ام درمان قال عند استلام الجبهة للسلطة وفي اجتماع موسع «بعض الناس بفتكرو أن السجون معمولة للعقاب وتعذيب الناس وده غلط.. السجون مفروض تعلم وتصلح الناس». هكذا يفكر ابناء ام درمان . أننا لا نعتقد أن ام درمان أفضل من مدن السودان الأخرى أو أن المدن الأخرى سيئة .. ولكنة توصلت مع ابن ام درمان الأكبر عبدالله محمد زين إلى الحقيقة البسيطة : أن ام درمان تمثل كل السودان «مافي زول ما عنده حبيب أو قريب في أم درمان».

الجرسونات في أم درمان كانوا عالماً قائماً بذاته.. يحيى كان يخدمنا في قهوة مهدى حامد، وأذكر أن معلم القهوة بقارى قال مرة: «يحيى ببرشت.. لكن لحدى اسى ما فى زول قبضو ولا فى زول حيقبضو ». يحيى كان ذكيا يتذكر كل زبائن القهوة وهم بالمئات.

الجرسونات في المطاعم الشعبية كانوا يسمعون قائمة الطعام في سرعة البرق ويستخدمون كلمات لا يفهمها إلا من تعود على المطاعم الشعبية. وبينما نحن جلوس في المقهى حوالى الثانية ظهراً دخلت مجموعة من الناس زقاق

الأسكله وتحديداً دخلوا مطعم مهدى حامد فرجع أحدهم محرجاً وقـال لنـا «والله أنا جيت قبل كده وأكلت باميه مع واحد صاحبى وعجبتنى جداً واسى معاى جماعة من البلد عازمهم. وسامع الجرسون بقول لناس جنبنا عنـدنا سر كيمه نوار مبرومه جقاجق شريفه وملك وأنا ما فاهم حاجه».. جقـاجق هـى كمونية، شريفة هي ملوخية ، والملك هو الرز، والنوار هـو القـرع.. فتخيلتـه خالف رجله طالب الأكل باللغة الأجنبية أمام أهله من الأقاليم.

في المطاعم الشعبية في أم درمان من الطبيعى أن يصفق الزبون ويطلـب وصلة وعندما لا يشبع الزبون يطالب بزيادة وهذه تسمى وصلة.

وعندما يخلص أحد الأصناف يصرخ الطباخ الطلب سكو » بمعنى أنه قد خلص .. ويبلِّغ الجرسون الطلبات للمطبخ بصياحه: « واحد قرفـه اتنـين شاى وصلحو، اتنين فول تلاته سر كيمه صلحو» وصلحو الزاميه.

من النكات في ام درمان أن أحد الجرسونات بعـد سـنين طويلـة تـرك المهنة وعمل كمناد وفراش في المحكمة فطلب منه القاضى أن ينادى على محمد حسن محمد فخرج صارخاً: «اثنين محمد وواحد حسن.. اتنين محمـد وواحـد حسن». وعندما لم يرد عليه أحد رجع قائلاً «سعادتك الطلب سكو».

الأخ النور كان جرسونا في الريفيرا وكان يعرف كل الزبائن وطلبـاتهم وما يفضلون. ولكل شلة مكانها المفضل وفجأة يظهر افندى معين وسط أحد الشلل ويشرب ويأكل ولا يدفع أبداً .. وفي احدى المرات كان الحساب عـدة جنيهات وخمسة وسبعين قرشا وعندما أراد النـور ارجـاع الطـرادة قـالوا لـه «كويس كده» فقال الافندى « كويس كده كيف.. الخمسة وعشرين قرش دى

اشيلها أنا. أركب تاكسى بريال وبكـرة صـندوق سـجائر وفطـرة جامـدة في المكتب».

وبعد مدة يظهر الأفندى وحده ويبدو أن الـشلة قـد غـيرت المطـار .. فانتظر مدة طويلة وأخيراً صفق ونادى النور وطلـب المـشروب فقـال النـور «اطلع» فغضب قائلا: « أنا ما من الشلة البتقعد هنا كل يوم.. أنا محمد أفندى بتاع الثروة الحيوانية !».

فقال النور «حيوانيتك شفناهها اليوم داك، لكن ثروة واحدة ما شفناها اطلع».

كل مطاعم الموردة كانت تبيع الفـول فقـط. فـيما عـدا مطعـم الرجـل الجنتلمان عبدالواحد في منتصف سوق الموردة. وبقية المطاعم كانـت بجانـب الخور قبل أن تحتل الجزء المقابل للنيل بزعامة صديقنا أحمد الوسيلة.

شلتنا كانت تفضل مطعم مدير وهو الأول في الصف .. وشلتنا تـضم الجاك طروان حسن النمر ، اميقو، عقباوى وهرش، وما إن تجلس حتى يـأتى الجرسون صارخاً «آى ى ى ى يوه طلبك يا ... ؟ » ويمط الكلمـة نـصف ساعة عندما يـسأل الغريـب: عنـدكم ايـه؟ يكـون الـرد : فـول ، وإذا سـأل الغريب: وتانى؟ يكون الرد وبـس.. وفي احـدى المـرات قـال أحـد الغربـاء «مادام عندكم فول وبس. بتسال ليه يعنى أنا حـأكون جـاى اسـوى شـنو؟ » فقال الجرسون «امكن جاى تقرأ العداد».

أحد ابناء ام درمان دخل أحد مطـاعم الخرطـوم وطلـب فـولا فقـال الجرسون بكثير من التعالى: « ما عندنا فول في المطعم ده.. عندنا بيض، سجك

، كباب كستليته، سمك فرايد، كبده كلاوى، وكل أنواع الطيور» فرد صديقنا وهو «موزون» : طيب ادينا بومه واتنين عيش.

مقهى يوسف الفكى كان مدرسة كاملة ويوسف نفسه كان جاداً جداً ويجلس أغلب الوقت داخل المكتب الصغير ويقوم أخوته بخدمة الزبائن وشقيقه حسن يجلس بجسمه الضخم خلف التربيزه ويبيع الفاكهة ويدردش مع الزبائن ويرد على تحيات المارة ويبلغ الوصايا ، مثل «فلان جه قبل شويه وسأل منك، وفلان قال ليك انتظره، وفلان قال ليك حصله في المطعم».... إلخ.

من أشهر جزارى أم درمان متوكل لاعب الكرة ودفاع المريخ بقامته الطويلة وشكله المميز. شيخ الجزارين كان عمنا بابكر الكلس ويسكن العباسيه فوق وينتقل بعربة بوكس كبيرة وهي مائلة من الناحية اليسرى لضخامة جسمه حتى عندما لا يكون راكبا. وكأنها «كاسره اميه». ود ام زميم كان عملاقا كما كان شهما كريماً. مساعداً ووالدته أم زميم من نساء أم درمان المقتدرات، تتسلى ببعض تجارة الحى وبنابرهها عامرة بالمستأنسين منهم الاستاذ كرف وغيره من المتعلمين .

وفي احدى المرات صديقنا عبدالمنعم مالك بشير طرد من مدرسة بيت الامانة الوسطى بواسطة الاستاذ المرهوب زاكى الدين الذي صار ضابطا للمدرسة بعد الأستاذ فؤاد التوم.. وطالبه بإحضار ولى أمره فقابل عبدالمنعم ود أم زميم بالقرب من ودارو. ووقتها كان الكبار مسئولين عن كل الصغار. وأخذ ود أم زميم عبدالمنعم على انه خال وولى امره وهو لا يزال يحمل

السكين والفرار وجلبابه ملطخاً بالدم والغضب يبدو عليه.. وبعدها لم يطرد عبدالمنعم من المدرسة قط وإن كان هناك ما يستدعى ذلك.. من جزارى أم درمان اذكر أيضاً مارقيط في المورده ، ود بتيك في العباسية ، وصباح الخير في الهاشماب.

كان من العادة أن تطلب المدرسة من الطالب المشاغب احضار ولى أمره وأول مرة أشاهد المرحوم هاشم العطا كان بالزى الرسمى لجنود الأمم المتحدة بعد أن رجع من الكونغو ، لأن العميد يوسف بدرى طلب من جعفر العطا وصديقه محمد بشير هاشم رحمة الله عليه والذي صار ضابطا للصيد، أن يحضروا أولياء أمورهم ورفض العم بشير هاشم الحضور.

وتصادف أن حضر عم بشير في أول رمضان لأحد العجلاتيه لكى يستبدل الدراجه لأن دراجته كانت بدون دينمو نسبة لعمله كترزى في السوق والسهرة في رمضان كما هو شغل الترزيه . وكان إبنه محمد في صحبته، فشاهده يوسف بدرى وبدأ في الحديث معه عن المشاكل التى يسببها محمد بشير في المدرسة. . فقال عمنا بشير هاشم «انا ما فاضى عندى شغل وزبائن منتظرين . المشاكل دى بعملها أنا ؟ عاوزنى اعمل شنو؟ الزول البعمل المشاكل أهو قدامك اتكلم معاه». وركب دراجته بدون أن ينتظر رد العميد يوسف بدرى ، فقال العميد لمحمد بشير «امشى الفصل لكن تانى لو نسيت وقلت ليك جيب أبوك ده ما تناديه».

زريبة المواشى والمنطقة حولها معروفة بسوق «على الطلاق» لأن الطلاقات فيها تتردد بكثرة وعبارات يفتح الله ويستر الله. وهنالك بشر

يدخلون واسطة بين البائع والمشترى وبعضهم للاستمتاع والمساعدة والبعض الآخر يجد دعماً ماديا من البائع. وفي أم درمان كان الناس يتدخلون وسطاء في كل شيء حتى في المحاكم، وبعضهم يدمن عملية الواسطة في المحاكم لدرجة أن يدفع من جيبه في بعض الأوقات.

في أحدى طرزانيات نميرى في عيد الأضحى نهاية السبعينيات قام بحصر كل الخراف مستخدما الطائرات العمودية وفرض سعراً واحد لكل الخراف. وكان لعمنا صديق البلولة خرافا معدة للتصدير كلفته كثيراً، فرفض أن يكون جزءاً من المهزلة. فذهب إلى بيته تاركاً ابنه الصغير مع الخراف، ولكن رجال ام درمان رفضوا أن يشتروا بالسعر الذي حددته السلطات بالرغم من إلحاح الضابط وكانوا يقولون «الضحية برضى البائع والشارى مش بالقوة» وحتى ضعاف النفوس الذين اشتروا بسعر نميرى وجدوا التقريع من الآخرين.

عندما كان سلمان بدرى رحمة الله عليه يدرس الطب البيطرى في آخر أيام الاستعمار أخذهم البروفيسر الإنجليزى لزيارة زريبة المواشى في أم درمان لتشريح ثور مات بمرض «النينى» أو طاعون البقر ولهذا يقول الناس «يضربك النينى».

فقال البروفيسور الإنجليزة للغفير: «وين الجنازه؟» فقال الغفير «آخواجه ها، التور ده قريبك سويتو جنازه ؟ !».

عدم فهم اللهجة السودانيه كان يسبب كثيرا من الاحراج للأجانب ، فعندما أراد بعض الوجهاء تنظيم حفل شاى للمفتش الإنجليزى قال لهم

«كتر خيركم» وعندما حضر في الموعد لم يجد أحداً.. فغضب .. وأخيراً عرف أنه في أم درمان عندما تقول لشخص ما «كتر خيرك» فمعنى هذا أنك ترفض، وإذا قبلت دعوته فالمفروض أن تجيبه بـ «شكراً».

وعندما يختمون رقاع الدعوة بعبارة «والعاقبة عندكم في المسرات» تعنى المشاركة بالدفع، وبعبارة «لكم جزيل الشكر» تعنى انه ليس هنالك لزوم للدفع .

أحد الأغاريق كان شاهداً عندما اعتدى أحد الناس على شخص يدعي محمدين فكسر له بعض اضلاعه فقال: «زول ده ضرب محمد اتنين». وعندما سألوه ضربه وين ؟ قال : « في الكستليته بتاعه».

أحد المصريين اشترى دجاجة من أحدى النساء في السوق وقبل أن يكمل شراء بقية الأشياء ماتت الدجاجة وسأل احدى النسوة إذا كانت هي التى باعت له الدجاجة فقالت «برى» فقال لها « وبرى دى راحت فين؟» وصار يسأل عنها «فين الست برى اللى بتبيع الفراخ؟».

آل الشفت كانوا من أكبر بائعى الحمام والدجاج في الزنك.. وفي الزنك (سوق الخضار واللحمة) أيضاً كانت تباع الأرانب والبط والديوك الرومية لغير السودانيين أو للزينه في المنزل.

«الصنايعيه» في أم درمان أو أهل الصنعة كانوا مشهورين بأنهم لا يفون بوعدهم نسبة لمشاغل الدنيا والالتزامات الاجتماعية ولأن الناس يتفهمون موقفهم والكل أهل.

عمنا الطيب النجار كان يحب لعب الطاولة والونسة ولا يـؤدى عمـلا إلا بعد خراج الروح. سلمه مرة صديق «مرينة» لعمل مـشاية لابنـه الـصغير وبعد زمن كبر الإبن وصار أبا واحتاج مـشاية لابنـه فقـال لـه أبـوه «عمـك الطيب لسه عنده المرينة» فذهب لعمنا الطيب الذي قال له « بالحيل يا ولـدى مرينتك ياها ديك متكوله لكين اكان مستعجل زى أبوك أخير تشيل مرينتك» والبعض لا يزال يردد في ام درمان «اكان مستعجل أحسن تشيل مرينتك».

نصر كان ترزيا يجلس في دكن اليمانى في ركن جامع الهاشماب بـالقرب من دار الرياضة ويحب الونسة ومناقشة أخبار الكرة ويعشق «القطيعه» ولأنـه يجلس في موقع استراتيجى يطل على أربعة شوارع لذا كان عندما يرى الزبون آتيا يترك القطعة التى بيده ويأخذ قطعة الزبون القادم وما أن ينصرف الزبـون حتى يغير القطعة مرة أخرى. وفي احدى المرات غير القطعـة بـدون أن ينتبـه لتغيير الخيط الأبيض فضحكنا منه ووعد بإصلاح الخطأ واكمال «الرداء» بعـد يوم ولكن الأمر أخذ عدة شهور.

في احدى المرات رأى ثلاثة من الزبائن يـأتون في وقـت واحـد وكـان قدقبض عربونا من الجميع . وبسرعة انزل السير وقفل الماكينـه ولـف عمامتـه وبادرهم قائلا: « خالتنا ماتت ماشى الدفن». فخرنجـى كـان مـن النجـارين المشهورين في ابو روف وصار لفترة طويلة يراقب المرحوم د.خالد الكـد كـل صباح محتاراً وأخيراً تقدم من خالد سائلا «أنت يا خالد بتعـرف إنجليـزى؟» فظن خالد أن عند فخرنجى موضوعاً بالإنجليزية يحتاج لمساعدته فيـه. فـرد بالإيجاب . بل عرض مساعدته فهز فخرنجى رأسه غير مقتنـع وقـال «أكـان

بتعرف إنجليزى البقومك في الدغش شنو؟». فخرنجى لم يعرف وقتها أن خالد كان ضابطا في الجيش.

أكبر مختلس في أم درمان كان ود البدوى شقيق الدكتور على البدوى مؤلف مسرحية الدهباية وحدث أن صرف ود البدوى مبلغا خرافياً في حفلات صاخبة في أم درمان وكانت هنالك أغنية تقول « يا ابو البدوى زورنا مره، يا أبو البدوى عيرنا نظرة» وعندما سجن بسبب تحريات ابارو تغيرت الأغنية إلى «يا أبو البدوى غادى غادى يا ابو البدوى السجن بعادى».

ابراهيم زكى الصراف كان يسكن المورده.. في إحدى المرات سلم الخزينة ووقع المستلمون. وعندما أخذت النقود لوزارة المالية أصر الصراف محمد أفندى المتشدد على أن تحسب «ورقة ورقة» وليس بالرزمة كما هى العادة في الخزائن الكبيرة . واكتشف أن الجنيهات كانت ورق جرائد مرصوص. فتم مداهمة منزل ابراهيم زكى ولسوء حظه كانت هنالك أوراق جرائد مقصوصة بحجم الجنيه ومقص كبير. فذهب إلى السجن.

ابراهيم زكى كان يعلب دافورى في حديقة الموردة عندما كانت نجيله فقط محاطة بالتمر هندى. وبعد الدافورى اعتاد أن يترك جزمة الباتا الجديدة «جلد سمك» وتساوى 35 قرشا لأى إنسان. ويشترى جردلا وثلجاً وليمونا وسكرا بعد الدافورى ويترك الجردل لأحد الأصدقاء،

أكثر الاختلاسات كانت تحصل في فلوس الجراد، لأنها تخص منظمات عالمية ويصعب حصر العمال والمصاريف ولكن في العادة الصرافين كانوا في منتهى الأمانة.

عندما غيرت العملة السودانية في سنة 57 استعانت المالية بالتجار أصحاب السمعة الجيدة في عملية العد واكتشف العم عبدالله أحمد «مخزنجى» والد صديقي الاقرب أحمد «بلة» وهو صاحب دكان في الموردة طريقة بسيطة لعد الريالات التى تحضر في صوانى خشبية فكان يرص الريالات على ارتفاع الصينيه وبحسب الارتفاع بالعدد ويضرب هذا بعدد رصات الريالات عرضا وطولا فانتهت العملية في وقت وجيز جداً وحتى في آخر أيام عمره كان عندما يلتقى بالتجار في المناسبات يقولون «يازول قطعت رزقنا .. كان نعد لى يومنا ده » ويضحكون عن طيب خاطر.

من العادة أن يكون هنالك اثنان من البوليس أمام الخزينة «ديدبان» بالبنادق والسونكى . وعندما أحضرت العملة الجديدة انتهز أحد الديدبانات ذهاب زميله للمرحاض فطعن رزمه من الفلوس بالسونكى من خلال القضبان لأن العملة كانت تملأ غرفة الخزينة . ولتسرعه ظهرت العملة في السوق قبل أن تطرح وكانت تحمل اثر السونكى مما ادى إلى القبض عليه.

في أيام الحرب العالمية الثانية ضرب الطليان العاصمة وبعض المدن السودانية بالقنابل والطائرات ولم تحدث أضرار بليغه.. وفي أم درمان كانت هنالك أغنية شعبية تشير للحادثة وتقول «طيارة جات من بدرى شايله القنابل تجرى. طيارة جاتنا تحوم تضرب الخرطوم ضربت حمار ست اللبن كلثوم».

مدارس الأحفاد لقربها من الظبطية أو السردارية سقطت بها احدى القنابل واخترقت سقف برندة المدرسة ولم تنفجر ، وعندما حاول رجال

الحكومة أبطال مفعولها انفجرت وأصابت المدرسة باضرار ملموسة . فكتب بابكر بدرى للمفتش الإنجليزى وطالب بتعويض، إلا أن التعويض تأخر فأخذ فاتورة الاصلاحات وطالب المفتش بالدفع فغضب المفتس الإنجليزى وقال لشيخ بابكر ما معناه « فاتورتك دى رسلها لموسيلينى لأنه هو الرمى القنبله».

فقال بابكر بدرى بأنه قد عفا لموسيلينى الضرر الذي سببه بسقف البرنده ولكن تحطيم المبانى تسبب فيه رجال المفتش، فضحك المفتش ودفع الفاتورة.

العم السراج فارس ام درمان وعضو المجمع اللغوى كان يعيش كفرسان العرب ويتحدث بالفصحى ويركب حصانا ويطلق شعر رأسه ولحيته، وفي احدى أمسيات ابروف التى كان المثقفون يقضونها في الأدب والشعر قرأ العم السراج بيتا من الشعر فأشار العم حسين الكد لخطأ ما . وأصر العم السراج على رأيه ، وفي فجر اليوم التالى يطرق السراج باب حسين الكد وهو يجر خلفه عجلا لكى يذبح بمناسبة صحة رأى حسين الكد، فلقد قضى السراج ليلته في البحث عن بيت الشعر وسط كتبه الكثيرة.

لأغلب شباب أم درمان ألقاباً تطغى على اسمائهم.. عندما قتل «كبس الجبه» بواسطة جد الطيار عز الدين عبدالقادر عمر الصادق واللواء محمد، قدم للمحاكمة ومن شهود الاتهام كان هنالك أصدقاء كبس الجبه من أعتى فتوات أمدرمان فقال أحدهم : «انحن لمن جينا الحفلة ما كنا عاوزين مشاكل نحن ما ناس مشاكل».

فسأل ممثل الدفاع المحجوب «انتو منو؟» فقال المرحوم كبس الجبه «راس الميت ، حبس كبس، قدوم زعلان» فقال المحامى: «سعادتك دى اسى اسماء ناس ما عاوزين مشاكل؟» حكمت المحكمة بالبراءة.

العم مكى كان من تجار أم درمان وباسمه سميت محطة الترام والحى «مكى ود عروسه».. كان شهما مواصلا كريما. لاحظ أحد أصدقائه أن يختبئ في المخزن في وقت معين كل يوم .. وبعد صعوبة عرف الصديق بأن حد الموظفين الذين «يستجرون» من العم مكى لم يدفع دينه وما أن يراه العم مكى آتيا من عمله حتى يختبئ لكى لا يحرجه.

أهلنا الرباطاب كانوا متخصصين في تجارة التمر والحبال والبروش والزعف والمروق والشكاب... إلخ. وهم الأغلبية في الموردة قبل أن يحولوا بعد الحريق المشهور.. ولسبب غير معروف كانوا متخصصين في تنجيد المراتب في السوق ويشاركهم الشنادقة وبين الاثنين زيجات كثيرة.

تنجيد المراتب يبدأ بدق القطن بالبسطونة أو السوط... والدق يحتاج لخفة يد وسرعة وكثير من الحرفنة. وفي ام درمان عندما يكون أحدهم سريعا في الآكل يقولون «خشمه زى حجر الطاحونة والايد بسطونه منجد بس». أخونا عبد الخالق ود حجازيه كان أحد أهلنا الرباطاب في هذه المهنة.

أحد أهلنا الرباطاب تضرر من حريق الموردة وبعد مدة ذهب إلى ابن عمه الذي كان من أغنياء ام درمان، وبعد القهوة طلب من ابن عمه ان يذهب معه إلى الظبطية (لكى ينفضه) أي يتبرأ منه، لأن الأغلبية تلقوا تعويضات من

الحكومة، أما الأغنياء أو من لهم قريب غنى فقد حرموا من التعويض وحرم هو لهذا السبب.

بمناسبة الحريق هنالك دومة ضخمة في وسط سوق المورده معمرة يشاع انها إذا ماتت أو حرقت ستقوم القيامة.. فاشترى صديقنا (برقودى) زجاجة جاز وتسلق الدومة وأشعل النار إلا أن الدومة لم تمت بل ازدادت اخضراراً بعد مدة وذهب برقودى إلى السجن لأنه عرض المتاجر للخطر خاصة وأن المنطقة تحت الدومة كانت مربطا للدواب ويباع القش والحطب بكميات محدودة .

حوش البقر من معالم ام درمان وهو خلف منزل البيه عبدالله خليل.. كان ملكا للزعيم الانصارى ودساله جد عبدالرحمن وحسن مختار واشتراه عبدالله خليل وكان يسكنه في البداية الجبلاب الذين تخصصوا في نسج الفراد وبعد رحيل الجبلاب صار مسكنكاً لمجموعة كبيرة من البشر ومكانا لشرب المريسة.

إلى الآن يحن الكبار من رجال ام درمان إلى أيام البونص أو التعويضات وهي عبارة عن فلوس كانت تقتطع من الموظفين أو المستخدمين كما كانوا يسمون ومن العمال في ايام الحرب. وعندما انطلق الاقتصاد وارتفعت اسعار القطن واستلم العمال الحكم في بريطانيا صرفت للجميع مبالغ كبيرة والمسئول عن تعويضات العمال هو ويكفيلد والمسئول عن صرفية الموظفين هوملز وكان يقال للعمال بتاعين ويكفيلا وللموظفين بتاعين ملز. وتصادف صرف مبالغ ضخمة للمزراعين وعرفت تلك السنة بـ (خمى)

واشترى المزارعون الثلاجات ولعدم توفر الكهرباء استعملت كدواليب للثياب وظهرت أغلب الأغانى الدكاكينيه وازدهرت اغانى التمتم واشعلت السيجارة بورقة الجنيه.

هناك قصة اشعال العشر جنيهات للبحث عن الفتيل . والفتيل هنا ليس الزجاجة الصغيرة ولكن حلية ذهبية مثل كرسى جابر « أو دقن الخمينى اليوم».

وقديماً كان عند النساء شيء يسمينه «اللبة» وهي كذلك حلية ذهبية لا شكل لها عبارة عن كتلة فقط.

كان أغلب دكاكين الحى في يد الأخوة اليمنيين وعندما يتحدث الإنسان عن الكنتين في ام درمان قديماً كان يقول اليمانى، أو البدوانى كما كان العجائز يقولون، ويسمون الهنود الذي تخصصوا في تجارة الخردوات والأقمشة بالبنيان .

من أشهر اليمنيين في أم درمان ناصر الصياد الذي كان له متجر ضخم فى مكى ودعروسه مواجهها باتا ومخبز يجاور الدكان في نفس صف نادى (الارستقراطية) وعندما استلم السلال السلطة صار ناصر الصياد سفيرا لفترة قصيرة. العم على بن على كان له عدة دكاكين أحدهما بالقرب من قبة الشيخ دفع الله وآخر ضخم في حى الأمراء، وكان متزوجاً من سيدة سودانية.. قايد كان في العباسية تحت بالقرب من الهاشماب ويقابل دكانه منزل العم الصادق محمد الطيب مدير عام السجون، وناصر كان في نفس الشارع.

الطاهر صاحب العين الزجاجية كان في حى الملازمين وكان يحب كرة القدم ويشجع الهلال، وفي سنة 1954 سجل دفاع المريخ هدفا في مرمى المريخ بعد مباراة ساخنة تخللها الضرب والمسك وانتهت بالتعادل في آخر لحظة فقال الطاهر لحسن العبد (يا ولد العبد لامسكناكم ولاضربنا كم زنقنا عليكم درنتم براكم).

كان العم قايد يبيع الفول في دكانه، وعنده غرفة كبيرة بالقرب من الدكان كانت تمتلئ بالطلبة والآكلين وفيى يوم من الأيام ملأ أحد الصبية قدرة الفول بالفحم فقال العم قايد بالسجع (الواحد ياكل فيْ كرشه ويعكر صفا غيره) ورددت العباسية العبارة.

مصلح في الورده كان بسيطاً لطيفا يضع السجائر تحت المخدة ويمكن أن يوقظه المشترى ويبتاع سجارة ويواصل نومه، وفي احدى الليال ايقظه شخص وأخذ نقوده ولم يعجب الحال صناديد المورده واعتبروا الامر مخزيا إذ كيف يسمح مصلح وزميله لرجل واحد بأن ينهبهما، فقال مصلح (والله عينه حمرا وسكينه بيضا).

الاحتكاك مع اليمنيين كان يخلق جوا للنكات .. وقيل أن أحد اليمنيين تزوج بسودانية وكان يسمعها تهز الطفل كلما بكى قائلة (كدى كدى.. كدى كدى .. يا كدى كدى) وفي غياب الام بدأ يهز طفله قائلاً (هكذا هكذا) .

عندما يمر المرء بدكاكين اليمانية في الظهر كان يشتم رائحة الطبيخ الذي يحضرونه في حلة صغيرة على نار هادئة وفي أم درمان لا يزالون يقولون عن الحلة الصغيرة المسبكة (حلة يمانية) .

هنالك قصة اثنين من اليمانية الذين اشتروا كيلو لحمة لأول مرة بعد مدة طويلة ، وذهب أحدهم لمشوار فعندما رجع لم يجد أكلا فقال الاول بأن القطة قد أكلت اللحمة، فأخذ القطة ووضعها على الميزان فكانت تزن كيلو جرام واحدا فقال (يا صالح هاذى اللحمة اين الهره؟) الحلل كانت مكملة للقعدات في ام درمان ويتفنن البعض في الاخراج.. فعلى عكس حلة اليمانية هنالك حلة يسمونها (القطر قام) فهى كبيرة في حجمها وتحتاج إلى نار شديدة وقد تكون عفشة ، أم مالبينة ! وهنالك حلة (طباخ روحه) ويلقى فيها اللحم والبصل والخضار والبهارات وتترك لحالها لمدة طويلة .. (امسح صدرك) أو (دنص) هي عادة مدهنة تحتوى على المطايب وذنب الخروف.. حلة (عكو) تتكون فقط من أذناب العجول أو الثيران وهذه الأشياء لا تباع بل يأخذها الجزار لنفسه ومعارفه. (عرق حلة) هذه لايضاف إليها الماء يمكن قليلا من الطماطم الطازجة فقط. وتتكون من اللحوم الهشة مثل بيوت الكلاوى أما سيدة الحلل فهى (ضربو رماو) .

عندما يقول أهل ام درمان الكبرى وقع فالمقصود بأن هنالك (كتله) عزومه أكلة مدنكلة وهذه العبارة مستعارة من (الفتاته) الذين يأكلون الفتة في المآتم والصدقات والمناسبات ، ومن العادة ، أن يرسل الصبية لاحضا رهذه المجموعة من الجامع وكلمة السر «الكبرى وقع» .. ومن أعظم هؤلاء وشيخهم بلا منازع خوجلى ساحوته وهو طويل القامة نحيف، حاج ابكر، ابوالياء الذي يضرب به المثل لطوله وضخامة جسمه وكاسترو الذي كانت له لحية كثة وهومتعلم نظيف الثياب لا يأكل مع الجميع ، وإذا عجبه الحال يمكث في المآتم لعدة ايام ويطالب بنصيبه من الصدقة نقدا بدلا من القماش

والأشياء التى توزع على المساكين ويقول بالفصحى (اريد نصيبى نقدا) والفتاتى عندما يكون «مرمل» فهو جائع أو مسوف والعكس فارش.

ويحدث أن يكون هنالك أكثر من عزومه في نفس الوقت، فيختار الفتاتيه الأحسن.. ولهم حس مهنى رائع.. وفي إحدى المرات كانت هنالك عزومه رائعة في شارع الشنقيطى وأخرى في بانت فقال أحد الفتاتيه متذمراً (يعنى انحن نتقطع) وأهل امدرمان يقولون زى ماقال الفتاتى (انحن نتقطع).

من أهم الأحداث المتكررة في ام درمان بجانب المصارعة في ميدان الربيع، رقص الدراويش في حمد النيل يوم الجمعة وفي الثمانيات رأينا امرأة معها صبى وفتاة صغيرة يقفون بين المشاهدين. فقال لها ابراهيم فرج الله (الدرويش ده مبسوط من الأولاد لمن يجى جنبهم بيسخن شديد وبيرقص تمام) فقالت بعد أن تنهدت (درويش شنو ياود الناس ده ما أبو الوليدات ديل بس غلبته المعيشة ساكت أنا يجيبهم كان يخلى غباه ده ويرجع ليهم).

أحد أبناء الأقاليم جاء لزيارة أهله في ام درمان في شهر مايو. هو شهر الافراح والزيجات والحفلات.. فأعجب بام ردمان والطرب والنكات وليالى الجندول والريفيرا. وفي أحد الأفراح أعطى طبقا مليئا بالمشهيات فبدأ في الأكل وسط القفشات ، فقال (والله ام درمان حلوه وناسها حلوين) والتقط قطعة الباسطة الصغيرة في الظلام حاسباً اياها قطعة من اللحم فواصل قائلا (والله يا ناس ام درمان شدة ما حلوين لحمتكم حلوه).

بينما كان الصادق بدرى رحمة الله عليه راجعا من الجامع في الفجر رأى قوما يحيطون بلص وبعضهم يحمل عصى غليظة ومواسير فحال بينهم وبين

اللص قائلاً (يا جماعة الراجل مسكين مؤكد محتاج) فقالوا (كيف محتاج ده حرامى مجرم) فقال الصادق (لو زول ما محتاج ما ممكن يعرض نفسه لموقف زى ده) وأشار لأسلحتهم وحالة هياجهم.. فتركوا اللص واخلى الصادق سبيله.

الأخ سينه لعب للمريخ في الفترة التى كان فيها حسن أبو العائلة في لجنة النادى واصطدم كثيراً باللعيبة.. حسن أبو العائلة كان من لعيبة الخمسينيات قبل أن يصير ضابطا في الجيش .. سينا كان يلقب بالخواجه وبعد احدى المباريات في بورتسودان رجعت بعثة المريخ بالطائرة وعندما تأخر الكابتن سأل أبو العائلة (وين الخواجة؟) فقال سينا (اهو قدامك).

وبعد أحد التمارين استلقى اللعيبة على النجيله وبدأ أبو العائلة الذي كان قد رقى لرتبة صاغ في الشكوى من المستوى الضعيف وعدم اهتمام اللعيبة، وعندما لم يسكت اخرج سينه جنيها وقال لبلال الفراش (بالله جيب لى واحد شاى و99 صاغ).

يندر أن يأكل الإنسان وحده في أم درمان.. فمن العادة أن يجتمع الناس للأكل في شلل ، خاصة في يوم الجمعة ويبدأ الأكل وسط القفشات والنكات والتشنيعات.. ويحكى أنه بينما كان اثنان يأكلان تبقى عظم قصير كبير وعظم آخر صغير فأخذ الأول عظم القصير تاركا العظم الصغير فقال الآخر (عيب عليك أنا كنت حاشيل الصغير) فكان الرد (طيب ما اخو ده قدامك ما تشيلو).

اذكر في ام درمان أن (عظم القصير) كان يسبب مشاكل بين الآكلين ويهبل بالناس بغض النظر عن عمرهم ومركزهم. وبينما أحد الآكلين يستمتع بالفرقشة والمص. خبط العظم بالصينية عدة مرات لاستخراج المخ فقال له من كان يخطط لعظم القصير قبله (بعد ده الا تصر اضيناتك وتخش جواه).

واحد الاخوان من ناس القعدات اخذته معي لمقابلة بعض التجار بسبب صفقة متعثرة.. وهم كانوا متشددين فطال النقاش وصديقي يفكر في القعده وأخيراً قال متضايقا (ياجماعة انتو ناس بتفهموا زى ما بيقولوا الحله بصل والفول شمار . التجارة اتفاق) فاقتنعت بأنه قد «طبظها» وتوقعت غضب القوم الا أن الجميع ضحكوا وانتهت العملية بسلام وتحصل هو على حصة جيدة.

قديماً كان القانون يعاقب من يتبول في الطريق. وبينما كان موسى ود نفاش يتبول في الطريق احس بأن شرطيا يقف خلفه فتوقف قليلا وانتقل بضعة أمتار وواصل. وعندما أراد البوليس أخذه إلى الظبطية قال موسى (أنا عملت كده لأنه شفتك أنت بتعمل كده) وتدخل البعض وانكر رجل البوليس، فقال ود نفاش (معقول ياناس زول يبول في محلتين ؟) فلم يجد رجل البوليس مخرجاً إلا أن يترك ود نفاش في حاله.

الصداقات في ام درمان دائمة والعلاقات كذلك دائمة . فإذا حييت شخصاً مرة واحدة فهذا يعنى أنه أصبح صديقك بقية العمر.

وبالرغم من بعد المسافة وطول المدة نجد أن الجميع في ام ردمان يعرفون أخبارنا واسماء ابنائنا وأعمارهم ومن السهل جداً أن تكسب أصدقاء في ام درمان .. فبينما أنا في انتظار صديقى في برندات السوق حضر شخص

اعرفه وتوقف للحديث ثم اتى آخر لا أعرفه وتوقف للحديث مع صديقى وذهب صديقى تاركا صديقه وحضر ثالث يعرف صديق صديقى وعندما حضر صديقى كنت أقف مع الثالث وذهب ثلاثتنا لتناول طعام الغداء في دار صديقى.. وهنالك اكتشف صديقى اننى لا أعرف اسم الضيف.. وضحكنا وتعارفنا .. وهذا يحدث فقط في ام درمان.

محمد محجوب عثمان ترك المدرسة الوسطى قبل 45 عاماً، وقبل بضع سنوات رأى النعيم فرج الله ابن صول المدرسة الأهلية سائراً في الطريق ولم يحدث أن التقيا منذ المدرسة الوسطى.. ومحمد محجوب كان يجلس في سيارة تاكسى منطلقة وقال (ازيك يا نعيم فرج الله) فرد النعيم وهو لا يزال سائراً(اهلا.. اهلا محمد محجوب) وكانت تلك اول وآخر مرة يلتقيان فيها بعد المدرسة الوسطى.

ما إن دخلت غرفة الانتظار في مطار الدوحة الدولى حتى سمعت شخصا يقول ببساطة (يا شوقى الكرسى ده فاضى) فجلست بجانب عبدالله البشير بدون أن أصافحه .. وواصلت الونسه وكأننا تحت اللمبة في الشارع في السروجيه.

وسألته عن بارود، طليق، البعاتى كرك. راس خروف وآخرين . فسألنا أحد الحضور (انتو آخر مرة اتقابلتو متين ؟) فنظرت إلى عبدالله رفيق الصبا الذي صار طوله مترين وقلت منذ أكثرمن 20 سنة) وآخر مرة كنت في لندن قمت بزيارة عبدالله البشير في مكتب بنك قطر الوطنى وسكنت عنده ببساطة في برايتون بالرغم من أن زوجته كانت أوروبية.. وكأننا في أم درمان.

كلام امدرمان

بعد رجوعى إلى أم درمان في أيام الديمقراطية الأخيرة لاحظت اننى كما يقولون في أم درمان «طاسى» أو ما عارف الحاصل. ولكن بعد قليل من الممارسة استعدت مقدرتى على المخاطبة، لأن الناس في أم درمان يتكلمون بطريقة خاصة وبرموز. وطريقة أهل الموردة تختلف عن بيت المال، ودنوباوى... الخ ، فالتلميحات والاشارات تكون مربوطة بأشياء محلية.

عندما طلب «سينه» فلوساً من جعفر نميرى اعتذر نميرى لعدم وجود نقد معه. فقال سينه «طيب ما تسأل باب الله » وأشار إلى الدكتور بهاء الدين. والاشارة للعم باب الله الذي كان مرافقا للسيد عبدالرحمن المهدى ويتولى كل الأمور خاصة المالية. وهذه الاشارة لن يفهمها إلا من كان من ودنوباوى أو ارتبط بالأنصار.

عندما رزق أحد الاخوان في السويد بطفلة توقفنا لأخذ حسين ابن خضر الحاوى . ولضيق الوقت لم يستطع أن يدبر سوى هدية متواضعة، وعندما أكثر من الشكوى قلت له «القعونجة» فضحك مقتنعاً. فسألنى أخ غير أم درمانى عن قصدى فذكرته بالمثل الذي يقول « القعونجه قدر نطتا» بمعنى: لا كلف الله نفساً إلا وسعها. فقال الصديق ضاحكا «يعنى الواحد علشان يتفاهم معاكم يا أولاد أم درمان عاوز ليه قاموس».

عندما كنت جالساً مع بعض الأصدقاء في العباسية سمعت أحدهم

يقول «نقوم نمشى القمايرِ» فاستأذنت قائلا «طيب أنا امشى ما دام انتو ماشين القمايرِ» فضحكوا وقالوا «أنت يازول حصل ليك شنو؟ أنت زمان ما بتفهمها طايره.. إحنا ماشين اي حته بنعلق على الـزول الجـا حقنـا.. وشـه محفـر زى القمايرِ». القماير وود التويم مناطق في ام درمان مشهورة بالحفر.

من العادة أن تذكر كلمة واحدة أو عبارة قصيرة لكى يفهـم الآخـرون المقصود كأن يقولوا مثلاً (الغراب جه يـوصى ولـده) فيـضحك الآخـرون. ويقال هذا لمن يريد أن يوصى أو ينـصح مـن يعـرف أكثـر منـه. والقـصة أن الغراب قال لأبنه «أول ما تشوف ابن ادم يدنقر ما تنتظر تشوفه شال حجر أو ما شال، تطير طوالى » فقال ابن الغراب «امكن يكون جايـب الحجـر معـاه.. أول ما اشوفه أطير طوالي».

«أم بده ليه ؟!» بمعنى لا لزوم لتجربة شيء واضح ومعروفة نتيجته.. والقصة أن ثلاثة من الرجال ضخام الأجسام تبدو علـيهم الـشراسة ايقظـوا صاحب تاكسى في منتصف الليل وفي الـشتاء. ففـتح الـسائق الزجـاج عـدة سنتيمترات سائلا «عاوزين شنو؟» فقالوا لـه «قـوم وصـلنا أم بـده» فتطلـع إليهم لمدة طويلة ثم قال قبل أن يقفل الزجاج «أم بده ليه؟ مـا تـدوقنى هنـى وتشيلو القريشات»

«بتول قامت تعز الرسول» أو يقولون «بتول» فقط .. والقـصة أن بنتـاً ظريفة اسمها بتول ذهبت إلى بيت العرس وعملت تقيلة وبالرغم من الدعوة للأكل كانت تقول ماجعانه، فيحلفـون عليهـا قـائلين «عليـك النبـى عـزى

الرسول» فترفض وفي وسط الليل سمع أهل الدار «كركبه» في المطبخ فسأل أهل الدار : ده منو؟ فقالت: بتول . فقالوا: مالك يابتول؟ فقالت بعز في الرسول.

ويقال هذا للشخص الذي يرفض في الأول ويرضخ أخيراً مسبباً لنفسه الحرج.. أو للتحذير من الندم.

«كلم أحمد عمر...» .. والقصة مأخوذة من كتاب المطالعة بالصف الثاني في المدرسة الأولية.. وهي «كلم أحمد عمر وكلم عمر إبراهيم وكلم... القط وما فهم القط الكلام» وهذا إشارة للتطويل والتسويف بدون نتيجة .

«تعالى يا عشه».. وهذا اشارة للعبارة تعالى: «يا عشة نادى آمنه تجيب فاطمة تقول للجداده دى كر». ويمكن استعمال أي أسماء نسائية.. والإشارة هنا للأتكال والكسل.

«كريت» أبت الرجوع إلى البيت .. وهذا إشارة للقصة من كتاب المطالعة للأطفال الصف الأول.. وكريت معزة تعودت على المرعى السيئ فأخذتها أختها المعزه سنيه إلى المرعى الجيد فأبت الرجوع إلى البيت. يقال هذا للإنسان الذي وجد مراده فنسى أهله وعمله.. أو يقال لمن أطال الجلوس.

«بيعبى».. بمعنى أن الشخص لا يقوم بأى عمل مفيد.. فعندما تسأل عن الشخص يقولون «بيعبى الضل في القزاز».

«طينه نشف».. فعندما تسأل: فلان كيف؟ يردون بهذه العبارة ، بمعنى أنه في ورطة فظيعة لا مخرج منها، أو لزواجه، وكثرة أطفاله

ومسئولياته.. والقصة أن المرفعين طارد بقرة فوقعت في بركة مليئة بالطين ووقع المرفعين بالقرب منها وغطس إلى عنقه في الطين فمر به أبو الحصين فقال المرفعين «شوف المشكلة الوقعت فيها دى» فقال أبو الحصين «المشكلة لمن الطين ده ينشف وأهل البقرة يجو كايسنها ».

«ود المضوى».. قلتها في أثناء لعبة وست عندما رأيت أحد اللاعبين خارج اللعبة لأنه قد هزم وجلس يقدم نصائحه لأحد اللاعبين. فضحك الجميع والاشارة للمثل القائل «ود المضوى كان بضوى كان ضوا في بيت أمه».

«ما أنا برضو بنزل في كشة الكلية».. بمعنى أنا كذلك أستطيع أن أقوم بالصعب من الأمور أو أننى لست بجاهل . في العادة ينطلق الترام بسرعة شديدة بين محطة البنك من أمام السينما الوطنية إلى الظبطية ، وهذه أطول محطة في الخط ولذا ينطلق الترام بسرعة شديدة. وفقط المتمرس أو الشجاع من الصبية يستطيع أن ينزل في أثناء الكشه، والكلية هي مدرسة أم درمان الأميرية. وهنالك كشة أخرى هي كشة العصاير بين السوق ومكى ود عروسه.. والعصاصير نقلت إلى العرضه في مكان المنطقة الصناعية الحالية ثم اختفت. وكشة كاس كمرى من محطة كاس كمرى بالقرب من دار الرياضة إلى سوق الموردة.

«ما فضل لى الا امشى اقيف تحت الصارى » : هذا يقوله الإنسان في حالة الحيرة وعدم مقدرته على مواصلة البحث، فمن العادة أن يتفق الناس خاصة في ليلة قفلة المولد بأن يلتقوا تحت الصارى إذا افترقوا وسط الزحام.

الصارى عمود ضخم طويل يعلوه علم ينصب وسط المولد في جامع الخليفة، والعملية تحدث وسط احتفال يشارك فيه رجال الطرق الصوفية وسط فرحة الأطفال.

«الكديس»: يقال عندما ينتقد الإنسان شيئاً بدون وجه حق، فقط بسبب الحسد أو لعدم مقدرته للحصول على الشيء، والقصة أن الكديس أو القط حاول أن يصل إلى الحليب في المشلعيب. المشلعيب مصنوع من الحبال يوضع فيه الطعام ويعلق عاليا في المنزل ويعرف «بدوا كديس دوا كلب» . وعندما فشل الكديس في الوصول إلى الحليب بعد جهد شديد قال «لزوم التعب شنو؟ اللبن حامض» فيقولون الكديس قال اللبن حامض».

«غردون».. أو «الدراويش كتلو غردون». وهذا للإشارة إلى أن البسطاء بالصبر والمثابرة والإيمان يمكن أن يتغلبوا على العظيم من الأمور. فإذا تفاخر شخص بمهارته أو قوته في الكرة أو لعب الورق أو العراك قالوا له «الدراويش كتلو غردون» وعندما ينهزم إنسان لا يتوقع الهزيمة يقول مفسراً هزيمته «الدراويش كتلو غردون».

«الصبر بت المهله»: يقال هذا للشخص المستعجل الذي لا يريد أن يصبر.. والصبر اسم للنساء وكذلك المهلة.

هنالك عبارات أو إشارات تمليها الظروف، وعندما يكون الإنسان متيقظا أو «ناقش» فيمكن أن يفهم المقصود. ونحن في معدية توتى في الستينات قال صديقى عثمان ناصر الميكانيكى من الموردة للزين وهو

ميكانيكي وحداد «شايف الهيلمان غيرتو ليها شيالة المكنه» ولاحظت أن آخر راكب قد ركب مع حماره «والضناب» وهو سير من الجلد يربط السرج ويمر تحت ذيل الحمار، كان جديدا من الجلد الأحمر اللامع.

وواصل عثمان ناصر حديثه مخاطبا الزين «شايفكم خليتو لحام الأكسجين لحامكم كلو ستالين » فرد الزين « لانو الستالين ما بكسر في الدقداق» ولم أفهم شيئا إلى أن لفت عثمان نظرى إلى أن أحد الركاب كان يقفل جيب العراقى بسوسته صفراء اللون. والستالين لحام من النحاس أصفر اللون. كلهذه المحاورة والآخرون «ماناقشين».

كما يقولون عن شخص «مابرمش» بمعنى أنه يكذب أو يسرق أو يقون بالسيء من الأمور بدون حرج.. وعندما يكذب أحدهم يقولون له «أرمش».

«زى ما قال بشير الحلاق... جوه وبره»: بشير الحلاق كان يبيع الصنف من دكانه في ودنوباوى، وكان يقول «انحن بنوزن الراس بره وجوه» ويقال هذا إشارة إلى أن الشغلانه مظبوطه مائة في المائة.

«عمل زى سيد العرضحال»: يقال هذا للذى أخبر بأمر أو مُدح كنوع من المجاملة أو مزاحا، فأخذ الموضوع بطريقة جدية. والقصة أن أحدهم ذهب لكاتب عرضحال فدبج له عرضحالا رائعاً وعندما قرأ له الكاتب العرضحال بدأ في البكاء فسأله كاتب العرضحال «مالك يازول؟» فقال «والله أنا ما كنت عارف نفسى مظلوم قدر ده».

«فلان ده خيتو ما عرفناه»: والخيت أو الجن مربوط بـالزار. فـصاحب الزار أو صاحبة الزار قـد يكـون خيتهـا الخواجـه فتلـبس البدلـة والكـسكته وتشرب السجائر، أو السحار فتأكل اللحم نيئا وتشرب الدم. مـن الخيـوت: التربـى ، لوليـة الحبـشية ، الفاتيـه ، البرنـاوى ، نمـر الكنـدو، ازرق بنـده «البنداوى»، النمناوى ، شلبى، جوره باشا... إلخ والخيت هو الـشيء الـذي يريح الإنسان أو يهيجه.

من أشهر شيخات الزار في أم درمـان في بيـت المـال الخالـه حليمـه أم ادريس التى اورثت الشياخة لبنتها ست البنات بنت سمح جيبو.

حليمه ورثت الشياخه من أمها بشة وكونها شيخة زار فذلك يسمح لها بالجلوس مع الرجال أمثال العم عمر المكوجى ومحمد صالح صاحب الدكان وآخرين وكأنها رجل.

«البصيره أم حمد» : وهذا للإشارة للتطاول وادعاء المعرفة وسوء الرأى . والقصة أن عجلا أدخل رأسه في خمارة العجين فاشـارت البـصيرة أم حمـد لحل المشكلة بذبح العجل. وبعد أن تلـوث العجيـب بالـدم قالـت « بـسيطة اكسروا الخمارة ».

«أجواد ود رعيه»: إشارة لإنسان سيء النية محب للـضرر.. واشـار لـه الشيخ بابكر بدرى في كتابه «الأمثال السؤدانية» وحكى أن رجلا وافـق عـلى طلاق زوجته على أن تدفع له 14 قنجة، وهي نسيج سودانى كان يعتبر قديما كنوع من العملة، وبعد الاستلام توقفت في الأخيرة . فاستعان الرجل بأجواد ود رعية الذي قال للمرأة « انتى كضابه أكـان عـاوزه الطـلاق كـان اديتيهـو

الأخيرة» وقال للرجل «انت كضاب أكان عاوز الطلاق كنت عفيت ليها الأخيرة» فأوقع بينهما الطلاق. وفي ام درمان يذكرون أن احدهم قد استعان به في استخلاص دين قدره عشرة ريالات ووعد أجوادود رعيه بريال كمكافأة وحذره بأن المطلوب شخص صعب مماطل. وبعد مدة سأل الشخص أجواد ود رعيه عن النتيجة فقال له «والله كلامك صاح، أنا بعد الله ويامين حتين قدرت أطلع ريالى منه».

كما أعطاه شخص مهرا وطلب منه أن يتوسط له في الزواج بفتاة من أسرة متشددة، وعندما رجع أجواد ود رعيه قال «الناس أبوك بى الله واحد.. أنا يا الله الله حتين عرسوا لى البت».

«ده لو بكرة قام فتل .. لوموني» : هذه العبارة معروفة في الموردة فقط، وتقال لوصف أي شيء ميئوس منه: عربة ، دراجة ، حمار ... إلخ. القصة أن أهلنا الرباطاب كانوا يأتون من السافل للعلاج والتجارة وهم مشهورون بفتل الحبال لفقر منطقتهم .. أحد أبناء عمومتنا في الموردة وكان ممرضاً ، رجع من قعدة لطيفة بحديقة الجندول في منتصف الليل. فوجد بعض الأهل ومعهم مريض، رفضوا الانتظار إلى الصبح وأصروا أن يكشف عليه، وصديقنا مبسوط ومتكيف ولاحظ أن المريض نفسه متقطع ونظر داخل جفونه فوجد أنها كما قال « دبلان مافيها نقطة دم» فقال لهم عندما اصروا على معرفة رأيه «ده لو بكرة قام فتل.. لوموني».

«أنا العاجبنى شنو في سكن القزاز ؟!»: حكو أن أحد أبناء أم درمان سكن جارا لبعض الأخوة النيجيريين ولاحظ أن حالهم مستور وهم لا يؤدون أي عمل وافهموه بأن عندهم جنيا في زجاجة يلبى طلباتهم البسيطة

من مأكل وملبس فطلب منهم السماح له في الاستعانة بالجنى لإصلاح حالـه، وعندما ظهر له الجنى طلب منزلا من ثلاثة طوابق في الإمتداد فقال له الجنـى «أنا بتاع طلبات بسيطة، أنا كان بقدر اعمل بيوت قـدر ده العـاجبنى شـنو في سكن القزاز».

الريح ود ام درمان

هذا الصيف قابلت والدتى وبعض أهل بيتنا في القاهرة بعيد عن سودان البشير . وتحدثت أختى التى كانت مقيمة باليمن عن عجوز يمنى كان يزورها بانتظام ويلاعب أطفالها ويتذكر حياته التى قضى اغلبها في امدرمان خاصة في حى العرب حيث بدأ حياته معدما في فريق الحلب، وكان يذكر عطف السودانيين خاصة أحد صناديد حى العرب، العم صديق البلوله.

صلتى بالعم صديق بدأت في سنة 1981 وهو يقارب السبعين من عمره قويا متماسكا، وكنت ازوره في امبده ونجلس الساعات الطوال في الأمسيات، وهو يحكى لى عن حى العرب وأمدرمان القديمة. وكيف كانت امبدة أرضا خالية من المساكن. وكيف كان الناس يزرعون الذرة في منطقة امتداد بيت المال ونادى المريخ، كما كان يقول «مين كان يصدق امبده تدخلها كهربا وتتبنى سرايات ؟ بعد المغرب ما كان في زول بيدخل امبده إلا يكون فارس .. الرباطين كانوا بالكوم».

عندما كان العم صديق يصمت ويحدق بعيدا كان هنالك الكثير الذي يعذبه. لقد كان يعرف أنها نهاية الرحلة. ويربت على رأس عمار آخر أولاده في العاشرة ، وسيم بعيون ذكية وجسمه قوى كأبيه وأخوته.

لقد عاش العم صديق حياته بـالعرض والطـول، وأمـام منزلـه يقـف الجمل السريع المضمر والعربة اللاندروفر لأخذه إلى البادية مصحوبا بصديقه الصعيدى أبو عرموس أشهر حفار آبار ومراحيض في امـدرمان. والعـم أبـو عرموس كان مخيراً في العادة بين أن يأخذ مرتبه مضاعفا مـن العـم صـديق في رحلاته للبادية أو أن يواجه سوط العم صديق.. ولقد حـدث أن تخلـف أبـو عرموس نسبة لارتباط سابق، ووجد نفسه تحت رحمة سوط العم صديق.. إلا أن العلاقة بينهما كانت غير قابلة للفسخ.

في فترة الجفاف التى ضربت السودان في الثمانينيات كان العم يقـول لى عندما حضرت لزيارته مع أولادى وأمهم السويدية «المحل ما خـلى شـى يـا شوقى.. البهايم ماتت.. السمحه سمحه بنوديها الـسوق».وكنـت أرد عليـه قائلا «لواطا بتنعدل» ويرد على قائلا « أى، لكن ما في زمنى أنـا. أنـا خـلاص وكتى قرب..

يمكن في زمن عمار ولدى ربنا يساعده . عمار ده قلبـه قـوى..وشـاطر زى الريح صاحبك».

لكم تمنيت أن أفعل شيئاً، ولكن الجفاف كان أقوى مـن العـم صـديق الذي ذهب إلى السجن وهو شاب صغير لقتله بائع لبن لأنه سب والدتـه بـما لايليق وكان العم صديق يقول: «دى بلدنا.. زمان ما في بوليس ولا حكومـة بتدخل بيناتنا.. بس العمدة والكبار.. دى أرض جدودنا الجموعية . أنا بنيت 37 بيت في امبده، وبعتها كلها ، أنا ما مشيت المدرسة لكن بعرف.. محـل مـا

التخطيط يقيف انا بأخطط. أعمل النمر.. الشوارع .ز الزقاقات ، وأبنى . ما فى بيت شالوا منه شبر واحد ، لمن شالونى للمحكمة والناس جابو المبايعة كان مكتوب «بيع عماره على ظهر الأرض والأرض أرض الدولة » ما في زول خسر حاجة.

وفي إحدى الأمسيات تهدج صوت العم صديق وتردد كثيراً قبل أن يقول لى «يا شوقى أنا ما فضل لى كتير، البهايم يطيرن والمطر أريته ما نزل .. لكن لازم أشوف أخوك الريح وبعد داك ما مهم أكان متّ!!

الريح أو الطاهر هو الابن الأكبر للعم صديق.. كان نزيلا في اعتى سجون أوروبا على بعد 40 كيلو مترا من كوبنهاجن، عبارة عن حصن ولا توجد مبانى بالقرب منه، ويواجه حكما بالسجن لسنوات طويلة بتهمة القتل العمد. كما كان يواجه ثلاث تهم جديد داخل السجن، أحداها الشروع في القتل واخفها ضرب حارس مغرور.

وفجأة سمعت من يقول للعم صديق «العيد ده الريح يعيد معكم » ولم يكن هنالك غيرى . ورد العم صديق قائلاً «أناعارف».

صار الريح معروفا في نهاية الستينيات.. وفي السبعينيات كان الريح معروفا لكل كوبنهاجن بقامته الفارعة ووجه الوسيم و: 130 كيلو جرام من اللحم والعضلات وشخصية طاغية.

كان يكفى أن اذهب لأقرب مقهى في كوبنهاجن وبعد السؤال وعدة نليفونات أحدد مكانه وكان يعرف بـ BIGRAY .. الريح كان في

المقدمةعندما اقتحمنا السفارة وأخذنا بثأرنا من الليبيين في سنة 11971 بعد اختطاف الطائرة.

لم أسمح الريح يكذب أبداً، أو حانثا بوعد ، وكان يتمتع بأدب جم . بالرغم من اننى لم أكن أكبره إلا بسنة واحدة إلا أن تربيته جعلته يعاملنى دائما كالأخ الأكبر. ويتمتع بذوق رفيع في اللبس والسكن وطريقة أكله وتصرفاته.. لا يزال خياط في مالمو يصفه بـ LORD RAY متحضرا جداً في معاملة المرأة وتربية الأطفال. كان من تسميه – على عكس أغلب السودانيين – بأنه ضيف خفيف ، قليل الكلام يتحدث الدنماركية بطلاقة.. عنده قوة مغناطيسية لجذب البشر. علاقاته واسعة بين كل شعوب العالم، مما أعطاه الحق لأن يكون شريكا ومالكا لعدة ملاهى ومقاهى.. وكأبيه كان كريما كأغلب أبناء أمدرمان.

روى كان أحد الوافدين من ترنداد وجد نفسه في سنة 1980 يواجه ضربا مبرحا من دانمركى عملاق وجده بين أحضان زوجته ولقد قال روى وهو مغنى ويمتلك ملهى برودوى في كوبنهاجن «عندما أحسست بأن الدنماركى سيقتلنى ضربا ألهمنى الله لأن أقول للوحش الدنماركى «أنا أخو الريح».. لقد اعتذر لى الدنماركى!! لقد كان السودانيون يدخلون الملاهى الخاصة فقط لأنهم من بلد الريح.

في نهاية السبعينيات مات الأب الروحى لكوبنهاجن وخلا المقعد في العالم السفلى، وانتهت زعامة رجال العصابات ذوى الشرف والكلمة ، وتحالف سونى وهو من الدرجة الثانية مع منظمة الهل أنجلز الذي توجد

منظماتهم في أغلب مدن العالم المتحضر، ويركبون الموتوسيكلات ويرتدون الملابس الجلدية، ويخشاهم الجميع حتى البوليس.

بدأ سونى ومساعده المعروف بالجزار في أخذ الاتاوات من أصحاب المطاعم والملاهى والمقاهى بطريقة صفيقة. ولم يكن ليفكروا في الاقتراب من الريح. إلا أنهم اعتدوا على زوجة لونى في مطعمها وزوجها غائب.. بالنسبة للريح فهذه جريمة لا تغتفر بحسابات بلد كالسودان، فالكل يعرف أنه صديق لونى. وذهب الريح وصفع سونى أمام رجاله بعد أن «جضمه»، وأرسل سونى بطل كارتيه لتأديب الريح قبل أعياد الميلاد في عام 1980.. إلا أن سونى أرسل من حمل رسوله لمنزله بعد ثوان.

وفي يوم 7 يناير 1981 والريح خارج من ملهى أنابل الجديد كان بطل الكراتيه في انتظاره.. وبعد اطلاق ثلاثة رصاصات على الريح اطلق ساقيه للريح. وعندما حضر الاسعاف رفض الريح أن يستلقى قائلا «أنا لست بمريض أو امرأة حامل».

وعندما ذهبت مع حسين ابن خضر الحاوى لزيارة الريح في نفس الصباح وكان الريح يستلقى والانابيب خارجة من صدره والسيجارة على شفتيه حاكيا النكات والقفشات لمجموعة كبيرة من الدنماركيين.

وفي أقل من ثلاثة شهور وفي أول مارس 1981 كان أصحاب المطاعم والمقاهى والملاهى يوزعون المشروبات مجانا لأن خمسة من رجال سونى كانوا صرعى برصاص الريح. أولهم الجزار الذى لم يفده أنه كان يحمل بندقية خرطوش وكانت اصابته في القلب عبر الشارع وهذا صعب جداً بمسدس.

وترك الريح سونى لكى يعيش بعد أن أطلق النار عليه من القرب مجردا أياه من أهم مظاهر الرجولة .

عندما ذهبت مع دكتور عبدالرحمن عبدالحميد – وهو من حى العرب كذلك – لمناقشة اتعاب المحامية قالت لنا «لقد ترددت في البداية .. هذه القضية غريبة إنها أول مرة في اسكندنافيا يقتل إنسان بسبب الشرف. اننا نقتل بعضنا فقط بسبب المال أو الغيرة. القتل بسبب الشرف هذا شيء غير معروف بالنسبة لنا». وحاول دكتور عبدالرحمن أن يشرح لها طريقة حياتنا ومقدساتنا.. وما هى الامدرمان والسودان.. ولكن أنا كنت مقتنعا بأنها لن تفهم.. أما روى الترندادى الذي انقذه اسم الريح فقد اختفى عندما بدأت ابحث عنه كشاهد دفاع.. وقضيت ليالى طويلة نائماً في السيارة امام منزله وكل الملاهى في كوبنهاجن إلى أن عثرت عليه. فالوفاء ليس معروفا لكل الشعوب.

اذكر في سنة 1965 وأنا أقضى الليلة مع أحد أبناء الموردة في منزل الطلبة المخصص لكلية الكيمياء في براغ. عندما طرق الباب الأخ أرصد حمد الملك حفيد ملك الدناقلة، لأن بعض الجنود قد ضربوه أمام صديقته وأهانوه ولم أكن قد قابلته قبلها.

وبعدها كان ضابط بوليس يحقق معى قائلا « أتريد أن أصدق بأنك لا تعرف الشخص المعتدى عليه؟ وأنك انطلقت حافيا ثلاثة كيلومترات من نهاية شارع لينين مخترقا كل شارع الانصار اليوغوسلاف لكى تشتبك مع ثلاثة جنود مسلحين بالسكاكين لم تقابلهم من قبل، وحتى بعد 4طعنات لم تتراجع. إذا لم أكن أنا مغفلا فأنت مجنون » واكتفيت بأن قلت له : «هكذا

نفعل في بلادنا». لسبب ما كنت جد مقتنعاً بأن الريح قد أعطى كلمة شرف لمدير السجن بأنه لن يهرب ومدير السجن كان متأكدا من أن الريح لن يحنث بوعده . فحتى عندما اعتقل الريح لم يوضع القيد على يديه. وعندما حضر بعض رجال البوليس الصغار لوضع القيد على يدى الريح قبيل أخذه للمحكمة قال لهم الريح «ستضعون القيد على جثتى فقط». وعندما اتصلوا بمدير البوليس قال لهم « إذا اعطاكم الريح كلمته فسيحضر بمفرده» .

في الحقيقة أن الريح كان قد اتصل بالشرطة بعد تصفية حسابه مع سونى.. وكرجال امدرمان «مسك كراع الميت» ولم يهرب.

عدة أحداث ساعدتنى في مهمتى .. الحدث الأول PELE بله . وهو السجين الوحيد الذي قضى أكثر من 22 سنة في سجن اسكندنافى. لأنه قتل أربعة من رجال البوليس. لقد وعد مدير السجن بأنه سيساعده في الخروج من السجن. واعطى الريح كلمة بأنه سيضغط على البوليس.. إلا أنه تراجع عن كلمته عندما شاهد غضب رجال البوليس.

PELE كان السجين الوحيد الذى يجلس على طاولة الريح عندما تكون هنالك حفلة داخل السجن أو مناسبة. كان مهذبا بطريقة مبالغة .. قليل الكلام كثير الاطلاع والغريب أن والده كان رجل بوليس.

استضاف السجن رئيس عصابة ألمانية وبعض رجاله الذين كتب لهم العيش بعد حادث سطو على بنك دنماركى ومواجهة مع البوليس الدنماركى. ولم يعجبهم أن الريح السودانى رئيس لجنة السجن وأصابهم الحنين إلى المصادمة مع البوليس الدنماركى.

ثم كان هنالك الحارس المغرور الذي شاهد طعام الريح الذي يعد بطريقة خاصة ، وجلس بكل صفاقة لكى يأكل قائلا « كيف يأكل السجين * خيرا من مدير السجن؟ وقبل أن يكمل طعامه كان منطرحا على الأرض.

الفريق بشير مالك مدير عام السجون أوصى الضابط السودانى بيتر عندما زار سجون الدنمارك لمقابلة الريح. عندما قابل الريح ثم عاد إلى السودان قال عنه: «الريح عايش أحسن من أبيل ألير».

الحادث الذي انقذنى من الورطة هو أن السجن كان يحتفظ بدفتر يحوى معلومات عن كل سجين: طباعة، ميوله، نقط الضعف عنده... إلخ، وهذا ممنوع حسب القانون الإسكندنافى إلا أنه يسعد الحراس الجدد وإدارة السجن. وبطريقته غامضة تحصل أحد السجناء على هذا الدفتر وأخفاه وبدأ في تهديد الإدارة بالاتصال بالصحف والاعلام وطلب المدير من الريح أن يستعيد الدفتر وأعطى الريح كلمته بأن السجين لن يعاقب، وعندما أرجع السجين الدفتر وضع في الحبس الإنفرادى ودخل بوليس الطوارئ وطلب من الجميع أن يدخلوا غرفهم .. شخص واحد بقى خارج غرفته إلى الصباح.. انه الريح.. لقد قال لمدير السجن «أنت لست برجل لأنك لا تحفظ كلمتك وسأغادر سجنك قريبا» كما أن آلام كلى الريح صارت غير محتملة ومستمرة . وانتقلت أنا للسكن في الدنمارك!!

وأنا منطلق بالسيارة داخل كوبنهاجن بسرعة 100 كيلو متر في الساعة وسط الثلوج، والريح بجانبى ونحن في طريقنا إلى المطار قال لى الريح بكل هدوء وبابتسامته العذبة «ياعم شوقى في جماعة لازم أقابلهم عندى حساب

قديم لازم احسمه وإلا حيفتكروا أنه هربنا بدون ما أقـابلهم » كنـت أعـرف بأنه لا يمكن أن اثنيه عن رأيه. والنتيجة أن الطائرة أقلعت بدوننا . مما دفعنـى لتغيير خط السير عن طريق ألمانيـا. والـريح لم يكـن يبـدو عليـه اي اهـتمام . وبعدها رجعت إلى كوبنهاجن لأن إطلاق سراح اتنين من الحراس كان رهينا بإشارة منى.

لن يحدث أبداً أن أسمع مرة أخري دعوات أحلى مـن دعـوات والـدة الريح ونحن جلوس في البرنده في حى العرب في العيد ومـع حـضور الـريح للسودان هطلت الأمطار لأول مرة لسنين عديدة.

العم صديق انتقل إلى جوار ربـه.. إلا أنـه قـد عـاش حتـى رأى ابنـه الريح، كما رأى البهائم تستعيد قوتها.. وأول الحملان كان هدية لى. وفي سـنة 1993 مات الريح بالفشل الكلوى. وهو في طريقه إلى أوروبا لمقـابلتى. لقـد حاول الاثيوبيون أن يبتزوه في مطار أديس أبابا زاعمـين أن الطـائرة الألمانيـة مليئة بالرغم من أنه حجز الأثيوبيون لم يعرفوا أنهم يتعـاملون مـع نـوع مـن الرجال يموت قبل أن يسمح لأى بشر أن يدوس على كرامته ، ولا يتراجع.

لقد قابلت كثيرا مـن الـشجعان إلا أن الـريح كـان شـجاعاً مـن نـوع خاص.

عندما تكلمت مع الريح في التليفون وعرفنى بالمشكلة طلبـت مـن أخ سوداني اسمه نعمان بدون سابق معرفة لكى يـصاحب الـريح إلى المطـار وأن يعطى الأثيوبيين أي شيء يطلبونه، ولكن في الطريق إلى المطار تـوفى الرجـل.

لقد رفض النعمان أخذ المشاركة المادية في ارسال جثمان الريح إلى السودان حيث يرقد الآن بالقرب من والده وجدوده.

أصالة الأخ نعمان الذي لم أقابله إلى الآن تذكرنى بسائق تاكسى في امدرمان قديما، رفض ، يأخذ فلوسنا بالرغم من إلحاف صديقى جاك قائلا: « أنا ما بشيل فلوس من زول ماشى الإسبتالية ما باكل عيش مصايب الناس».

موت الريح كان الحادث الوحيد الذي هزنى ، وأن لم أبك عليه . وحتى عندما مات ابراهيم بدرى وأنا في السادسة عشرة لم أبك وعندما غرق أربعة من أخوتى في 1967. وماتت أختى فاطمة وكمال أخى بعدها. لم أبك لأن البكاء لا يجدى. من الاشياء التى تخفف عنى أن الريح لم يقض السنين الأخيرة من عمره في السجن.. كما أذكر عظمة كثيرين وحبهم للريح.. كإبن الحاكم العربى الذي استجاب لطلبى ومنح الريح اقامة في بلده وحظى بالعلاج وغسيل الكلى.

كوبنهاجن أحب مدينة بالنسبة لى – بعد أمدرمان طبعا – ولكن لا أستطيع أن أمكث فيها .. لان كل عطفة وكل شارع يذكرنى بـ BIG RAY .. وحتى عندما كنا ننظم المظاهرة لمقابلة البشير وعصابته في الربيع كنت أصر في المساء على الرجوع للسويد.

لكم كنت أو د أن أعرف بالضبط ما حدث يوم أول مارس. فلم يحدث في زياراتى له في السجن أو في أمدرمان أو الدولة العربية أن سألت الريح.. قديما في أمدرمان لم نكن نسأل . بل نسمع ما يريد الآخرون قوله.

آخر مقابلة لى مع الريح بعد الاتفاق أن نتقابل في أوربا كانت في مطـار دولة عربية برفقة ابن امدرمان عبدالمنعم مالك. واخـذت معطفـى وحقيبتـى من الريح ونظرت في عينيه.. وأستدرنا كل للاتجاه المعاكس بدون تحية.. كنت أعرف أننا لن نلتقى بعدها. بالرغم من كل الترتيبات.

«لوكان الرجال تنقاس

الريح عبار ومقاس

عزما ملازمه أدب

وفي الحارة ما هوضنب

لما القرش كان شي

حتى الكتير يدى

إن شلت ما يحميك

تسال عقب يديك

ما بتصدر الفارغة

بركز يسند الواقعة ».

شوقى بدرى

الفصل الرابع

حكاوى أمدرمانية

(خمسة أجزاء)

الجزء الأول

قبل أن أكمل الخمسة عشر عاماً اشتريت «سكين ضُراع» إلا أنها كانت عادية . ولم أشتر سكين الوجاهة إلا بعد أن رجعت من أوروبا في أول إجازة؛ كانت بمقبض من الأبنوس وحديد صلب من ياى العربات والجفير المشغول، أما «العاج» أو السير الذي يلتف حول الساعد فقد كان مزدوجاً ومضفوراً من الجلد. المشكلة كانت إيجاد صائغ لصنع المتمنة والقنطرة المصنوعين من الفضة، وبعد تعب وجدت الصائغ.

ولقد ذكر لى الصائغ أنها عملية صغيرة لا يفضلها حتى صغار الصياغ، كما ذكر حادثة قديمة. عندما حضر أحد البدو لنفس المهمة. ورده جميع الصياغ فيما عدا العم الأمين عبدالرحمن أغنى تاجر ذهب في السودان صنع له القنطرة والمتمنة وتقاضى خمسة عشر قرشاً مقابل ذلك. المتمنة والقنطرة في مؤخرة المقبض لمسك «الخوسة» النصل. أراد العم الأمين عبدالرحمن بذلك أن يعطى الصغار درساً في تقديس العمل وعدم الإستهانة بالمال.

في سنة 1955 اتفق البرير مع صاحبة المنزل المجاور لمدرسة الهجرة جنوب قبة الشيخ قريب الله على شارع ودنوباوى. وبما أن البرير وبعض التجار أمثال ود بكار وعلى عثمان الرباطابى، مدنى أبشر، بشير محمد أحمد والأمين عبد الرحمن وآخرين كانوا يتنافسون في إقتناء المنازل فقد وجدت صاحبة المنزل نفسها موضع تنافس بين البرير والأمين عبدالرحمن وعلى برش

الصلاة حيث يجتمع أغلب تجار أمدرمان، أبرز الأمين عبدالرحمن عقد الشراء، لأنه كان قد ذهب في الفجر إلى صاحبة المنزل ورفع السعر وأخذها لتسجيل المنزل مباشرة مما أغضب البرير ودفعه لأن يقول «سأشترى منك هذا المنزل يوماً وإذا لم أنجح سأطلب من أبنائى أن يشتروه من ابنائك وإذا فشلوا سيشتريه أحفادى من أحفادك.

في اليوم الذي تلا هذا الحادث حضر الأمين عبدالرحمن متأخر إلى برش الصلاة وقال للبرير «البيت أنا سجلته جامع كان أولادك عايزين يشتروه اليتفضلوا بعد ده». المنزل الآن هوجامع الأمين عبدالرحمن ولقد كلفه عشرين ألف جينه سودانى من حرُ ماله.

موسى ود نفاش شخصية خرافية في أمدرمان وإليه تنسب أغلب النكت . كان يعمل في محل ليمتوس اليونانى في المحطة الوسطى بالقر ب من بنك باركليز وهو من أسرة دينية عريقة جداً كما أنه خال محمد وعبدالرحمن حفيدى الشيخ دفع الله صاحب القبة في وسط أمدرمان.

أخذته والدته في صغره إلى السيد عبدالرحمن المهدى ليباركه ويعطيه الفاتحة لشيطنته. وبعد الفاتحة شكته والدته للسيد معددة مشاكله حتى ذكرت أنه يدخن «السجارة الخضراء» فلم يتمالك السيد عبدالرحمن نفسه وصفعه حتى إنخلعت سنه فتأثر السيد عبدالرحمن وطلب من العم باب الله أن يعطيه خمسة جنيهات وما أن قبض ودنفاش الخمسة جنيهات حتى ادار خده الآخر قائلا: «ياسيدى كمان واحدة بيجاى» فضحك السيد وطرده قائلا «الله ينعلك يا مطموس».

وفي إحدى المرات ما إن تخطى السيد عبدالرحمن البوابة بسيارة الرولزرويس حتى كان ودنفاش يقف عارى الصدر باسطاً يديه وعندما ترجل العم باب الله مستفسراً قال ودنفاش: «سمعت سيدى إتبرع بخمسمية جنيه للصليب الأحمر. الصليب الأسود ده عاوز ليه 5 جنيه».

ود نفاش كان يدمن «السجارة الخضراء» وعندما يدخن يسير بها حتى في المحطة الوسطى وبين كل نفس ونفس يمسك السجارة خلف ظهره. وفي إحدى المرات وجد نفسه مواجها برجل سوارى لا يعرف ود نفاش، ولم يسمع ود نفاش حوافر الحصان. وعندما قال رجل البوليس: «جيب السجارة دى يا زول» رد عليه ود نفاش «إتفضل بس قول لى: حصانك ده انت ملبسه ربل؟ ».

حدث هذا في سنة 1960 وفي يوم المحاكمة أقبل الكثيرون لمساندة ود نفاش وقال القاضى لود نفاش «لازم تخلى شراب الدخانة» فرد ود نفاش قائلاً «آى لأنها بقت تعمل لي ضربة قلب وبتتعبنى» وردد القاضى مرة أخرى «حتخليها ولا لأ؟» وقال ود نفاش: «قلت ليك بتعمل لي ضربة قلب، إلا يكون عندى قلبين واحد للدخانة» وضحكت المحكمة وحكمت على ودنفاش «بمية وخمسين» قرشاً غرامة. فهتف ود نفاش: «عاش العدل، عاش العدل». وتدافع عدة أشخاص لدفع الغرامة.

أخي الصغير يوسف بدرى كان متدينا منذ صغره ويطلق لحيته وقد قال له مرة ودنفاش «يا يوسف يا ولدى الدقن دى شنو؟» فردّ يوسف بحدّة

«رجالة» فضحك ود نفاش قائلاً: « يا يوسف يا ولدى كان الصوف ده رجاله، كان بيقوم في ... ».

«ميه» كانت احدى ثلاث مجنونات في أمدرمان مشهورات مثل «تامبُله وبت التور». ميه كانت توفر نقودها في حفرة تهيؤاً للذهاب إلى الحج في شكل ريالات فضيه أبو عشرين وعندما بلغت مائة ريال اتى من سرقها وبدأت تصرخ «مية مية ريال» المثل السوادنى يقول «الجن ياهبدى يا ربدى» وكان جنها «هبدى» أى هادئاً كما كانت تطوف على بعض الدكاكين وتأخذ مصاريفها من زبائن معينين. وفي احدى المرات مرت على شيخ البرير فوجدته يضرب ويحسب ويخاطب نفسه فقالت له «كلنا بديناه كدى».

الدخرى : اشهر مجانين امدرمان. كان يتواجد خلف الجامع الكبير وهو رجل قوى الجسم وعضلاته بارزة. وعندما يكون «بحره عالى » يقول بتحطيم الحجاره وينطلق عاريا ويتخذ من قضيب الترام سندانه ويده كمرزبه مما يجبر سائق الترام للتوقف امام دكان الطوخى الذي يقابل الجامع إلى أن يفرغ الدخرى من عمله.

مشكلة الدخرى بدأت عندما قذف ابنه بحجر واصابة في مقتل وصار كلما تذكر هذه الحادثة ينطلق محاولا الانتقام من الحجارة.

وأنا فى دكان أحد الاصدقاء اتى الدخرى فناولنى الصديق «فرينى » لكى اعطيه للدخرى وهو في حالة هدوء «بحره نازل» وعندما بسط يده «للفرينى» رأيت قطعا في يده الضخمة فقلت مستفسراً «ده من شنو؟» فنظر

إليّ باستخفاف واستعجاب لمدة طويلة وكأنني غبي وقال «من شنو ؟! ما من الجن».

عمنا.. عانى مرة من ضائقة مالية في الخمسينات فذهب إلى عبد الله عشري «دابي الليل» الذى كان أحسن من يتكلم الإنجليزية ومتضلعا في اللغة العربية. فكتب له خطابا إلى السيد عبدالرحمن المهدى عبارة عن قطعة أدبية.

اعطاه السيد عبدالرحمن خطابا سلمه إلى عمنا .... الذي سلمه ثلاثة جنيهات وعندما رجع الصديق إلى عبدالله عشرى قال له «الإمام مستحيل يديك ثلاثة جنيه لازم يكون ثلاثين جنيه في صفر ضائع»، وفي الصباح ذهب الصديق إلى القبة وبدأ يصرخ «اين صفر الامام ، اريد صفر الامام» وخوفا من الفضيحه استلم 27 جنيها واعتذارا بأن الصفر قد سقط سهوا، وصار بعدها عندما يكون لأحدهم حقا مشروعا في امدرمان يقول «اريدصفر الإمام» وعندما يحلف أحدهم سعياً وراء طلبه يقال له «طلبك ده أصله صفر الإمام؟».

قناطة من شخصيات الموردة الفذة لا يتخاطب إلا باللغة العربية الفصحى. وجد نفسه أمام القاضي كشاهد بعد مشاجرة دموية في الريفيرا. وعندما ساله القاضى «شفت شنو يازول قال «بينما أنا مستمتع بزقزقة العصافير مستنشقا الهواء العليل فإذا بضربة عكاز تدوى في الفضاء... » فقاطعه القاضى قائلا «اتكلم كويس» فرد قانطة «القاضى لا يفهم الفصحى.. ياللعار ياللعار» وانتهى الأمر بقناطه إلى السجن لإساءته المحكمة. وبعد مدة

من خروج قناطة من السجن ذهب إلى بشير صاحب محل السمك والذي ينافس العم السكى شاكيا المحينه لاعب الكرة وأخ بشير الأصغر قائلا «عندما كنت ماراً بسوق المحدقات فإذا بأخيك الأصغر منك سنا وأكبر منك حجما يرميني بحلقوم بقر. فإذا كان يقصد شراً فالسجن نحن من أربابه» ولم يفهم بشير شيئاً.

إن أمدرمان مليئة بالقصص المشوقة. اتمنى أن توثق قبل أن تنسى أو تضيع.

الجزء الثانى

صديقنا تكاوى بدأ حياته نقاشا في المورده وعندما صار الغناء والعزف مصدراً للرزق صار تكاوى عازف دربكه ثم «بنقز» مثل خميس مقدم وخميس بنقز وآخرين . وانضم إليهم ابراهيم سمير المعروف بابراهيم «كُتبا» . وسمى بـ «كُتبا» لأنه كان يشبه عازف الكمان المتوفى ابراهيم كتبا عضو نقابة النقل الميكانيكى واخ صديقى كتبا «الريفى» من اعلام المورده.

في بداية الستينات كان شباب الموردة قد درجوا على الاجتماع صباح كل جمعة أمام محل العم عثمان «السُكى» إما لشراء السمك المحمر أولمقابلة الأصدقاء واستعراض آخر صيحات الموضه من توتو الخياط.

وفجأة بدأ تكاوى يظهر بالبنطلون الأبيض والقميص الابيض والجزمة الكشف الرومانية اللامعة ويطلب سمكا باثنين جنيه وثلاث جنيهات ويأخذ تاكسيا إلى نادى الفنانين السابق بالقرب من الاذاعة. كان اغلب العازفين والفنانين يوصون تكاوى بعد «العداد» يوم الخميس على سمك من السكى لأنه ابن المورده. وأعجب العم عثمان بالشاب الانيق الذي يشترى سمكا بثروة كل مرة ويبدو مؤدباً فسأله «انت شغال شنو يا ابنى؟» فرد تكاوى بكل ثقة «ضابط ايقاع». وفى أيام عبود كان للضباط هيبة «اهلا اهلا جنابو» صار العم عثمان كلما يحضر تكاوى يصرخ «أهلاً جنابو اتفضل

جنابو كيف حالك جنابو؟ وسع يا ابن الكلب خلي جنابو يقرب» واستمر هذا الحال لمدة طويلة إلى أن ذهب العم عثمان يوماً إلى حفل ليجد تكاوى طابي الطبله فسأله: «ده شنو يا جنابو؟ بتعمل شنو ياجنابو؟» فقال الشاب: « ما هو أنا ضابط ايقاع ده شغلي» فرد عليه العم عثمان «ضابط ايقاع يا ابن الكلب ما تقول لي بتاع دربكه؟».

عثمان طه من أشهر شخصيات المورده – أمدرمان، يدخل كل المكاتب وله اتصالات بكل الكبار من الوزراء إلى الرؤساء.. عبدالله خليل وازهرى. يركب كل المواصلات مجانا لا يدفع حتى للتاكسى لأنه كان صاحب عربة تاكسى في يوم من الأيام. صديقه الحميم كان حمد النيل ضيف الله قائد الجيش السودانى. كل منهما لع ابن يحمل اسم الآخر كما كان يدخل دار الرياضة مجاناً وينتقل من اللوج إلى الشعب بحرية.

عثمان طه كان يفرض اتاوة على كثير من ابناء امدرمان يدفعونها عن طيبة خاطر. وعندما ذهب مرة لزيارة صديقى عبدالرازق اسحق في الجوازات «الآن بجدة» في نهاية الشهر، قدم له عبدالرزاق 50 قرشا فنظر إليه عثمان طه شذراً وقال «هات الجنيه إذا ما بتقدرو تدفعو بتتسلفو ليه ؟» ودفع عبدالرازق صاغرا وبعد مدة لام عبدالرزاق عثمان طه قائلا «كيف تحرجنى قدام زملائى في المكتب؟» فرد عليه عثمان طه قائلا «وكيف ترضى تحرجنى أنا عثمان طه قدام زملائك تدينى 50 قرشاً ؟» وبعدها صار عبدالرازق لا يقدم له اقل من الجنيه.

عثمان طه كان يحب النظافة والاناقة، لا يلبس إلا الجميل من الملابس والأحذية. وحتى عندما اختفى صابون اللوكس أيام حكم عبدالله خليل كان يحضر إلى النيل أمام الطابية بصابونة لوكس جديدة كل مرة يخلصها بكاملها على جسمه. كثير من رجال الورده كانوا يفضلون الاستحمام في النيل عند الأماسى. كانت بينه وبين «شامبى» مناكفات ومعاكسات وبما أن شامبى كان محبا للأناقة فكانا يتنافسان. وفي قهوة أب ضهير قال عثمان طه مرة: «أنا في حياتى ما لبست دموريه ولا في كمر البنطلون . كمر بنطلونى والجيوب بوبلين» فرد شامبى قائلا : «أنا سروالى بوبلين» وكشف عن سروال فاخر من البوبلين فاستاذن عثمان طه وأوقف أول تاكس وذهب به من فوره إلى السوق الكبير لكى يرجع مرتديا سروالا من السكروته.

العم خضر رحمه الله إلياس «الحاوى» كان يدخل السينما الوطنية يوميا الدور الأول والثانى وطبعا لوج بدون أن يدفع وعندما بنوا سينما امدرمان صار يختار بين الاثنتين. الغريب أنه ما أن يبدأ الفيلم حتى يشنق العم خضر عمته وينام وبعد نهاية الدور الثانى يذهب إلى مقهى يوسف الفكى ويمكث إلى الساعة الواحده والنصف صباحاً وبعد ذلك يذهب إلى المنزل لكى يسهر حتى الصباح.

المثل السودانى يقول « ود اب ذهانه يأكل في اللكونده وينوم في الجامع» عمنا خضر كان يسهر في البيت وينام في السينما.

العم خضر كان يجوب كل امدرمان على دراجته وفي بعض الأحيان الخرطوم وعندما تكون دراجته في حاجة إلى تصليح كان يحضرها إلى اصحابى

العجلاتيه في ميدان البوسته وحينها كانوا يتركون أي عمل آخر ويصلحون دراجة العم خضر في الأول ولا يتقاضون منه نقوداً بل كثيرا من الشتائم على سبيل المزاح.

في احدى المرات أوقف العم خضر صاحب تاكسى وفتح الباب ثم انشغل في حديث مع أحد المارة ، واقفل الباب لكى يواصل حديثه. فظن سائق التاكسى أن العم خضر قد ركب فانطلق. وعندما وصل وجهته التفت فلم يجد عم خضر. فظن أنها احدى خدع العم خضر الحاوى. فقام بقفل زجاج السيارة والأبواب ورجع إلى المقهى وصار يصرخ «عم خضر زاغ منى كان راكب معاى فجأة لقيته مافى . عم خضر كان ماعاوز يدفع لى ما مهم بس مبا يجننى انا عندى أولاد».

العم النصرى حمزة المربى الكبير كان المدير المالى للاحفاد. عند دفع المصروفات كان يقول لحسين ابن خضر الحاوى « تجينى آخر زول» وعندما ينتهى الجميع يفتح درجا خاص ويقول لحسين «فلوس ابوك دى أنا ما ضامنها ما بدخلها الخزنة مع قروش أولاد الناس ، تجينى بكره للوصل» وبعد أن يتأكد العم النصرى حمزة أن الفلوس لم تنقلب إلى ورق يعطى حسين الوصل. وبعد سنين قابل العم النصرى حمزة حسين فقال له : «أنا ما ارتحت الا لما أنت خليت المدرسة، قروش ابوك دى ما معروفة يطلعها قدامك فلوس يفرها ورق».

التجانى كان الفراش المسئول عن البوسته والحوالات والذهاب إلى

البنك بالشيكات الخ ... في مدارس الأحفاد . في احدى المرات اختفى مبلغ
اثنين جنيه مما جعل العم ميلاد المحاسب يغلظ في القول للتجانى لذي رد
بأنها غلطة العم ميلاد. وقال العم ميلاد بأنه اشتغل في حكومة السودان
ثلاثين عاما ولم يضيع مليما واحدا وكان رد التجانى بأنه اشتغل في المراكب
ثلاثين عاما ولم يضيع مليما واحدا وكان رد التجانى بأنه اشتغل في المراكب
ثلاثين عاما أو ماراحت طروره واحدة. ويختم حديثه مؤكداً : وما الاصعب
المحافظة على الدفاتر والفلوس أم الطرور؟. العم النصرى حمزة اتصل بمدير
البوسته. وفي نهاية اليوم جُردت الخزينه فوجدوا أنها زائدة اتنين جنيه أُعيدت
إليه ورد اعتباره. وقتها كانت الامانة متوفرة ومكاتب حكومة السودان تمشى
كالساعة.

صديقى وأخى الأكبر عبدالقادر الجزولى الترزى في الموردة كان
صاحب مزاج خاص جداً. له مركب صغير من الحراز بألوان زاهية يستقلها
في الامسيات مع صديقه «الكى» بمنقد صغير ومبخر للأسترخاء والتدخين
والشاى المظبوط. عندما كان اخوانا الجنوبيين يحضرون لدكان عبدالقادر كان
لقصر قامته يطلب منهم الاستلقاء على الأرض لأخذ المقاسات . وكانت لعبد
القادر «قلة» جميلة بغطاء من «التل» يبخرها بالمستكه مما جعلها قبلة للجميع
وعندما تعب عبدالقادر من الناس ركل القلة وكسرها، وذهب إلى النيل
واشترى قلة جديدة وفي الطريق مر على الذين يرسلون ابناءهم لأحضار الماء
من قلته. وطلب منهم حضور تدشين القلة الجديدة أو «تعتيقها» ولدهشة
الجميع رفع عبدالقادر جلبابه وعتق القلة. صار الجميع بعدها عندما

يرسلون ابناءهم لاحضار الماء البارد يشددون على ابنـائهم قـائلين «أوعـك تمشى لقلة علبدالقادر الجزولى» عبدالقادر الجزولى هم عـم ابـراهيم الجـزولى عازف الكمان والمخرج السينمائى بالخليج وتشيكو سلوفاكيا والاثنان يتمتعان بخفة الدم.

الطاهر الكبجه شخص بسيط طيب يبيع الشخت وهي الشحوم التـى تلتصق بها قطع رفيعه من اللحم تباع في «الجزر» للفقراء وفي أحد الأيام كـان العمل جيدا واستلم الكبجه 25 قرشاً «طراده» إلا أنها اختفت وصار الكبجة يطوف كل سوق الشدرة «شجرة ادم» وكان يسأل النساء «ياخاله ما اشتريتى منى شخت فيهو طراده؟» وترك عمله وتفرغ للسؤال عـن الطـراده. وصـار البعض يقول عندما يجدّ الإنسان في البحث «اصلك كايس طرادة الكبجه؟».

العم خضر الحاوى استيقظ مذعورا على صوت طرق عنيفاً على الباب في فترة القيلولة وكان الطارق أحد الذين يطلق عليهم في مصر لقب الرفاعيـة ويخرجون الثعابين من البيوت وفي العادة يحضرون الثعابين معهم، فسمح لـه العم خضر بمزاولة عمله وبعد فترة قـصيرة جلـس عـلى الارض محتـار لأن ثعابينه قد اختفت في منزل خضر الحاوى الـذي قـضى عـشرة سـنين في الهنـد والسند وبورما والملايو .. الخ وتعلم السحر والموسـيقى وتـرقيص الثعـابين وبعد أن أخذ العم خضر وعدا من الرجل بأن لا يحضر للحلة مرة أخرى وأن لا يزعج الناس في فترة راحتهم ارجع له ثعابينه.

الاخ سينا ذهب لصاحب دكان فطلـب منـه قـائلا: «ادينـا دفـتر». ولم يفهم صاحب الدكان المطلوب . فأعطاه كراسة فـساله سـينا إذا كـان عنـدها قلم. وعندما استلم القلم قال لصاحب الدكان «بعد ده ادينى إملا».

الجزء الثالث

كان كثير من أولاد العباسيه والمورده يشتركون في نادى التربيه البدنية المواجه لبوابة عبدالقيوم بزعامة الكوتش النعيم فرج الله وآخرين، منهم عمر الفاروق ابن خضر الحاوى الذي مات في حادثة حركة بسيارته التاونس. وهو أول من أسس شركة عالمية لطوابع البريد، افتتحها الرئيس الأزهرى. كما كان الأستاذ بدر الدين عبدالرحيم والد هاشم (اوتاوه - كندا) يقدم نصائحه وتوجيهاته لأنه كان مدرس رياضة بدنية . والأستاذ بدر الدين هو ابن المؤرخ محمد عبدالرحيم .

ومرة وجهت دعوة لبعض أعضاء النادى لحفل فاخر في الخرطوم . فتوفشت مشكلة الاتيكيت وحسن التصرف لأن جماعة رفع الأثقال كانوا يهجمون على صحن الفول بعد التمارين في بازار الأحفاد بطريقة (تطرقع الطلس). وبما أن عمنا (..) صار حديث الناس لأنه في حفل في الهاشماب كان قد حل مشكلة الأكل بالشوكة على طريقته الخاصة . إذ قبض على قطعة اللحم وطعنها بالشوكة قبل ادخالها في فمه. لذا ركز النعيم فرج الله ابن صول مدرسة الاميرية، وموظف البوسته على هذه النقطة وقال: أن لا يخطف الأعضاء الأكل وأن يأكلوا بتأن ولكن الشيء المهم أن يأكلوا فقط ما يوضع أمامهم وركز الجميع على أخ معين من حملة الأثقال العمالقة. وردد النقطة الأخيرة، عشرات المرات. وقبل الحفل مروا بالأخ على حلوانى إحتياطاً

فضرب صاحبنا كم باسطه وكيلو موز. وسار كل شيء بسلام في الحفل بل لقد كان الأخ عازفا عن الأكل. وبدأ منظم الحفل يسأل عن الزبدة قائلا « ياجماعة كان في نص كيلو زبده في الطربيزه مشى وين؟» وعند الرجوع من الحفل إلى العباسية رد الأخ المعنى على غضب الآخرين قائلا: «ما قلتو الزول ياكل القدامه وبس.. المصيبه دى ختوها قدامى أنا. أعرف كيف دى زبده ؟ في زول قال لى ؟ والمصيبة دى طممت لى بطنى أنا اتحملت عشان خاطركم أكلته القدامى وبس، زى ماقلتو».

عمنا (...) في المورده كان كثير الحركة في السوق والمقهى وأبناؤه الكثيرين كذلك نشطاء اجتماعيا في السوق وفي الحى. وكأبيهم كانوا يحبون لعب الكوتشينه مما كان يغضب والدهم فيحاول أن يمنعهم من لعب الكوتشينه دون فائدة. وعندما اقتنع بأن هذا ليس ممكنا صار يأخذ ابنه الأصغر معه لكل مكان حتى لا يصير اخوانه الآخرين . وفي احدى المرات كان الابن يجلس بجانب ابيه صامتاً أثناء لعبه كونكان حريق بالصحن وبعد أن فتح عمنا واخذ العشرة وافرغ الصحن في جيبه انهال ضربا على ابنه فحجزه الأصدقاء قائلين «الولد ما عمل اى حاجة مالك يازول؟» وكان رده «ما عمل حاجة؟ أنا كنت حأضيع الفتوح لو ما الولد قرصنى.. ده حالته القلنايطلع كويس؟»

عمتنا السارة بدرى كانت تسكن في آخر منزل في شارع العرضه قبل عبور الكبرى . وكانت تأخذ التاكسى وعندما تصل إلى منزلها تشكر السائق وترفض أن تدفع له أجرته الأمر الذي كان يدخلها في مشاكل كثيرة خاصة

عندما يكون السائق ليس من أولاد أمدرمان. ومنطقها في ذلك أن «ود العفنة ماكان ماشى فاضى لمن أنا وقفته ادفع ليه؟».

في احدى المرات ذهب أهلي لزيارتها من حى الملازمين وكانت أجرة التاكسى ريال للمشاوير العادية وخمسة عشر قرشا للمشاوير الطويله. والعرضه تعتبر مشواراً طويلاً فقالت جدتى أن المشوار قبل الكبرى فسأل سائق التاكسى « وين من بيت المرة البتركب وما بتدفع؟» فقالوا «نحن ماشين ليها» فقال مباشرة «خمستاشر قرش ولا لا».

بينما بعض رجال أم درمان يجلسون حول سرير صديق في مستشفى امدرمان وهو مغطى بالضمادات اثر حادث حركة والجميع في وجوم جاء شخص متطفل مارا وسال «الراجل ده مالوا ياجماعة؟» وعندما لم يرد عليه أحد ردد السؤال عدة مرات فرد عليه أحمد داود مغتاظاً «وقع في بير من راس بيت».

أحمد داود رحمة الله عليه كان صاحب «اجزخانة امدرمان» وكان يعود كل المرضى ويذهب إلى المآتم قبل اقرباء الميت، شارك في دفن (رجل) صديق التى قُطعت . وبعد سنين طويلة مات صديق نفسه. فتأخر أحمد داود في الحضور كما لم يحضر مراسم الدفن لأنه ذهب إلى المقابر التى دفنت فيها (رجل) صديق والدفن كان في مقابر أخرى فقال لابن الميت مغتاظا: «أبوك ده تدفنه في محل ورجله في محل تانى؟ عاوزه يقوم ليك شدَتْ؟».

أخونا ود عجيب من العباسية أخو الملاكم وسائق التاكسى محجوب . كان متعودا أن يقفز من فوق الحائط عندما يحضر متأخرا لمنزله. ونسى في

احدى المرات أن أهله كانوا يحفرون «ادبخانه» تحت الحائط فسقط في الحفرة. وكل الذي حدث له «فك صباعه» فاستحق اسم ود عجيب.

طبعا هناك قصة الحرامى الذي قفز من فوق الحائط ووقع في «ادبخانه» وهو لا يزال طائرا قال « سنة يا الحيطه؟» .

بمناسبة الحرامية، أخونا الهادى الضلالى الذي يعرف اى إنسان في أمدرمان من الشحادين حتى الوزراء. في احدى المرات قفز لص من فوق حائطه ووجد نفسه في مواجهة الهادى الذي قال له «كوكو البجيبك من القهاير لى بيتى في الوكت ده شنو؟!».

خالى مبارك خليل كان فيلسوفا، درس في مصر في الأربعينات وسكن في ألمانيا في الخمسينات. وعمل أستاذاً في الجزائر. كان يسكن وحيدا في منزله في بيت المال ويجلس طيلة الليل في لحوش مدخنا متأملاً ، وفي الثلث الأخير من الليل تسلق لص الحائط لكى يجد الخال مبارك يقول بحرارة شديدة «اهلا اهلا اتفضل.. اتفضل يا أخى».

الأخ (.....) من المورده كان قوياً يحب الحياة في شبابه . استيقظ في الليل لكى يجد لصا «لايصا» في الحوش فقال له «تعال هنا شيل البنطلون ده فيهو 3 جنيه شيل اتنين وخلى واحد، اقفل الباب بعد ما تطلع!»

وبينما كان الأخ نفسه وسط مجموعة من أولاد الموردة في كازينو الريفيرا في قعدة أنس وعشاء قال لهم الجرسون: الحساب مدفوع واشار لشخص في الطربيزه المجاوره لم يتعرف عليه أحد فسألوه «بتعرفنا؟!» فرد قائلا: «لأ لكن

بعرف ده» وأشار للأخ الذي ساله «بتعرفنى من وين ؟» فقال « مش قلت لى شيل 2 جنيه وخلى جنيه؟ «فصرخ صاحبنا بأعلى صوته «الحرامى؟!» فقال الحرامى بصوت خافت «في لزوم للفضايح؟».

كروقلى كان سائقا ويسكن في أحد الأزقة الضيقة خلف مدرسة الموردة للبنات بجوار شارع السيد الفيل.كما كان معروفا بأنه من صناديد الموردة. في ليلة قفلة المولد في عام 1963 قبض الرجل العاقل الاسطى حامد الميكانيكى على لص بمساعدة بعض الجيران وقرروا اطلاق سراحه بعد تأديبه. فذهب الاسطى حامد إلى منزل كروقلى قائلا «قبضنا حرامى تعال دُق، بس دقاً ما يعوق وبعد داك نفكه».

عندما خرج كروقلى من منزله لاحظ الأسطى حامد أنه يحمل شيئا في يده. وبعد تدقيق وجد أن كروقلى يحمل طورية فقال «ياكروقلى يا أخوى قلت ليك دقاً ما يعوق جبت طوريه. لوقلت ليك تعال اكتله تجيب شنو؟ على الطلاق ما بتبارينى» وحتى عندما ترك كروقلى الطوريه قال الأسطى حامد « على الطلاق ما بتبارينى .. طوريه؟ انت يازول عاوز تحفر جدول ؟».

أحد أولاد الأغا صار في آخر أيامه يعطى الاستشارات القانونية للصوص والمجرمين ويأخذ نظير ذلك اتعابه كأى محام محترم. ويدير كشك المرطبات الذي أعطى له بعد خروجه من السجن.. أما الأخ الآخر فكان يدير المقهى الشهير قبل أن يصير محلا للمعدات الكهربائية بالقرب من مطعم جعفر. رجع ود الأغا للقهوة ليجد القهوجى في حيرة فقد انشق الفندك الذي يدق فيه البن المحمص واشار لأبن النوبة القوى البنية الذي استأجروه في

الصباح لدق البن فقال له ود الأغا « فطرت؟» فرد «لسه» فقال ود الأغا «طيب هاك الشلن ده خش على جعفر افطر عشان تجى تهد القهوة دى في راسنا».

في احدى المرات قام أحد الوافدين من الأقاليم بقذف بصقه ضخمة على أرضية المقهى فقال له ود الأغا: «ده ايه ده ؟» فرد الوافد «مالو؟» فقال له: «مالو كيف انت تبصق كده وأخوك ده يبصق كده ويجى واحد تانى يبصق كده نحنا نعوم؟»".

عمنا (.....) صار من أغنى الرباطاب وصار يضرب به المثل في الغنى إلا أنه كان يعيش عيشة بسيطة فذهب له بابكر بدرى لصلة القرابة بينهما طالبا منه أن يكلم بنعمة ربه. وأخذه لبرسيميان لشراء سيارة وسط احتجاجه الشديد وعندما عرف أن السيارة تحتاج لسائق بمرتب 10 جنيها رفض الفكرة وأخيراً قال «عشرة جنيه آى لكن البنزين منه».

أحد أخوانا المسيحيين انتقل لامدرمان من الخرطوم وفتح مطعما حاول أن يجعله أكثرنظافة وترتيبا ولأنه ليس من امدرمان فقد وظف خوجلى ساحوته الذي يستطيع أن يأكل كميات خيالية في الصدقات والمناسبات. وغاب الخواجه لكى يرجع ولفرحته وجد كل الحلل فارغة ومغسّلة. وعندما فتح الدرج لم يجد سوى عشرين قرشاً وقال خوجلى موضحاً «في كم زول جو اكلوا ونحن يا خواجه فطرنا لينا فطور مسلمين » ولا يزال أهل أمدرمان يرددون «فطور مسلمين». احدى وظائف خوجلى في امدرمن أنه كان ينزل

الادبخانات لاسترداد الاشياء مثل الـذهب الـذى يـسقط مـن النـساء أثنـاء استعمال المرحاض.

صديقى نصر جبارة باك الموردة وبطل الجمباز شكا لى مرة في بدايـة الثمانينات بأن ابنه يطلب جنيها قبل ذهابه إلى المدرسة في الصباح وأنـه يدفعـه بطيبة خاطر. فذكرته بحادثة في اول الستينيات عندما كان موظفا في الكبانيه- الخرطوم وكيف وقف على يديه في الـدور الثـانى عـلى حافـة الـشباك «هانـد ستاند» مقابل 25 قرشا فضحك قائلا: « والأفندية أولاد الكلـب مـا أدونـى ليها».

طبعا كان في امدرمان بعض الأشياء غير أخلاقيـة مثـل شـهود الـزور وأغلبهم إن لم أقل كلهم من غير أولاد أمدرمان.

أبو الجود من المسالمة عاش حياة عاصفة انتهت بحادث حركة بواسطة عربة تاكسى. واذكر أن سائق التاكسى قد حضر إلى المقهى لتدبير شـهود زور أحدهم ود الحاجه وكان من النازحين من عادتهم أن يستفسروا عـن القـضية والقاضى، وقد يقولون «القاضى ده أنا كنت عنـده قريـب ده يمكـن يعرفنـى لكن ممكن ادبر ليكم زول تانى».

خلف الله اب كرنك العجلاتى أخ لزرقان عجلاتى آخر كـان يـشارك النيت في حمار العجلاتيه في البوستة بينما الملاكمين عبدالرحمن كيكس والطيب عجوبه يشتركان في الحمار الآخر ولا يستطيع اى عجلاتـى آخـر أن يعمـل في المنطقة بالرغم من أنهـم يعملـون في الـشارع بـدون رخـصة. لم أر خلـف الله

هائجا إلا مرة واحدة ونحن جلوس مع صبايا قلب دفاع فريق التاج، سمعت خلف الله يصرخ في وجه زبون «ارفع ليك عجلتك؟ أنا مفروض اضربك رصاص» واتبع هذا بشتائم فظيعة وتبرعت أنا برقع العجلة فقال خلف الله «الراجل ده خسر حياتى أنا لو ما هو، كان أكون دلوقت لاعباً في الفريق القومى. وصلنا النهائى بتاع السنتر ليق واللعبة كانت في دار الرياضة وبعدها تمشى الدرجة الثانية . انفردت بالقون وضربونى وعملوا بنيلتى مشيت للباك الضرينى وقلت ليهو الليلة سهرتى في ال جى بى .. جيت أشوت البلينتى، أصر المغفل ده يشوتو لأنه قلب الهجوم، شاتو وداه لكشك الدرديرى. الباك جانى وقال لى : سهرتك في الأنادى. وقد كان.. ولحد اليوم أنا ما مشيت الجى بى وخليت الكورة بعدها ومدوّر من وقتها » وذهب خلف الله ليجلس بعيداً مع العم بلكمين الذي يبيع الأحذية والملابس المستعملة ولم يرجع إلا بعد أن ذهب قلب الهجوم.

كان للعم الدرديرى عضو مجلس السيادة غرفة خشبية «كشك» على سطوح منزله الفخم المقابل لدار الرياضه ومن هنالك كان يشاهد مباراة كرة القدم. أكبر مباراة في كرة القدم في امدرمان كانت بين فريق الهونفيد المجرى ضد الهلال حيث شاهدنا بوشكاش وبوجيك والآخرين.. ولأول مرة دفعنا ريالا لدخول الشعب وامتلأت دار الرياضة عن آخرها لدرجة أننى كنت أجلس على الخط. وانتصر الهونفيد بتسعة اصابات مقابل اصابة يتيمة سجلها سليمان فارس «السد» ولم تحسب اصابتين دخلوا شباك الهلال. الغريبة أن أحد بائعى المرطبات داخل الدار قال أن المجريين قالوا بانهم سينتصروا بعشرة اصابات قبل بداية المباراة.

المريخ قدم عرضا رائعاً والنتيجة كانت خمسة تلاته وهناك لوحة في نادى المريخ بهذه المناسبة.

في زريبة الكاشف كنا نلعب دافورى هلال – مريخ وعندما يفوز علينا الهلالاب كان محمد دوكه أحد ظرفاء امدرمان الآن وأخ المكشكش أبو طالب يشير إلى العلامات المكتوبة بالجير على الحائط 1-9 ليغيظ الهلالاب . العلامة كانت تشير للحارة التاسعة الربع الأول لتسهيل عملية التعداد السكانى الذي قرأنا عنه في الصفحة الأولى من جريدة الرأى العام.. أن تعداد السودانيين 12 مليون و232 ألف كلهم كانوا ممثلين في امدرمان.

عبده جعفر أبو الحديد اصطدم بحسن جبريل من ودنوباوى لأنه كان يجمع ناس كمال الأجسام والحديد والملاكمين في نفس التمارين الرياضية وهذا خطأ وصارت معركة وجمدت لجنة النادى نشاطنا. ونادى المريخ كان النادى الامدرمانى الوحيد الذي اشترك في منافسات الملاكمة.

امدرمان الذين فازوا بكؤوس في الملاكمة كنا نحن من فريق المريخ: الدكتور عز الدين آدم حسين ، ادريس جباره وأنا.

وأخيراً كونا لجنه كنت أنا أحد أعضائها لمقابلة لجنة النادى واختار بلال فراش النادى لحظة صفاءلكي يشير إلينا بالتقدم نحو اصحاب الكروش ، لعرض مشكلتنا. وعندما قدمنا أنفسنا قال أحدهم للآخر «أنت النادى ده فيهو حاجة بالشكل ده؟» فرد الآخر «آى ديل بتاعين البونيه والحديد» فقال لنا الأول بعد أن نظر إلينا شذراً «انحن بنعرف الكورة.. إذا في واحد فيكم يقدر يدخل لينا الكورة بين الخشبتين يجى يتكلم».

الجزء الرابع

العم الطاهر كان في الثمانين من عمره وهو جار الخالة مريم والدة الشاعر محجوب شريف في العرضه. وعندما نذهب من مدرسة الأحفاد للفطور في دكان كمبال كان يجلس أمام منزله مراقبا الخراف وهي تشرب ماء الملح من الطشاتة. لأن ابناءه يعملون في هذه التجارة. وكان يحكى لنا عن مغامراته ويعلمنا أمور الدنيا ويقدم لنا النصائح عن الحياة الزوجية ومايتنظرنا. وكرجل أكمل رسالته على أحسن وجه كنا نجله ونحترمه.

وفي مرة شاهد العم الطاهر بعض أهل البادية يمرون أمام منزله فقال لهم «هوى هوى يا ناس رايحات ليكن بهايم؟ بهايمكم ضان؟ زى عشرين ثلاثين راس؟ واحدات حمر واحدات زرق؟ وسطن فحل أبرق عالى؟ وعندما ردوا بالموافقة على كل أسئلته قال لهم «ماشفتهن» . وتأزمت المشكلة إلى أن أخذوه إلى البوليس وفي غيبة ابنائه هرعت نساء منزله إلى جاره المحامى مالك ابراهيم مالك زوج اختى فاطمة بدرى وأصر الأعراب على أن العم الطاهر يعرف كل شيء عن البهايم المسروقة إلا أنه غير رأيه فجأة. وبعد قليل من التفسير وضح الأمر. إذ قال العم الطاهر أنهم كانوا يسيرون وينظرون إلى الأرض «قاصين الأثر» وشايلين سيطان.وناس البقر بيشيلوا عكاكيز والمراح البسوقه راعى واحد عشرين لى ثلاثين راس والضان كله احمر وازرق وعادة وسطن بيكون في فحل كبير الحجم والعم الطاهر خمن أن الفحل أبرق لأنه

أغلب الفحول برقاً فأفهمهم مالك بأن العم الطاهر بحب الونسة والتعرف بالناس وأنه كان تاجر بهايم.. وتصالح الجميع وتعارفوا.

بعد الغداء بالمفروكة والكسرة الرهيفة في منزل الشاعر محجوب شريف بالثورة الحارة العشرين، وقفنا أمام المنزل للونسة كعادة ناس أمد رمان واكتشفت أن الساحة التى كان يقام فيها المولد والاحتفالات قد قسمت درجة أولى وبدأ البعض في بناء المنازل الفاخرة. فقلت مداعبا «شايف يامحجوب العشرين متر ديل أولادك عاوزين عشرين سنة عشان يعدوهم» فرد ساخراً « ده إذا قدروا وما أظن حيقدروا» العم الأمين عبدالرحمن. كان له سائق من ابناء امدرمان من أصحاب المزاح. يسوق العربة الاوبل، وعند تقاطعات الشوارع كان العم الامين عبدالرحمن يقول للسائق «اقيف عاين قدامك عاين وراك شمالك يمينك اطلع» وعندما تكرر هذا كثيرا لم يتحرك السائق بعد «اشارة اطلع» فسأله العم الامين عبدالرحمن «واقف مالك؟» وكان الرد «قلت اعاين فوق امكن تجى طيارة».

العم نقد الله من تجار سوق امدرمان المشهورين وهو صاحب القصة المشهور «الحل دينه نامت عينيه» اشتعلت سيارة تاكسى أمام دكانه، وانهار صاحب السيارة نادباً حظه. فطلب منه العم نقد الله أن يطلع على ظهر السيارة بعد أن بردت «ويلقى طرفه» وفي ظرف ساعات حضر أغلب التجار في السوق على أثر دعوة العم نقدالله واجتمع للرجل في الحال ثمن السيارة .. العم نقد الله كان يقول «الراجل عربيتو حرقت قدام دكانى دى مسئوليتى».

زميل الدراسة في الثانوية الدكتور أمين النور أخ الشهيد بابكر النور أراد أن يحل مشكلة المواصلات لأهله ففكر أن يشترى «ثرثاره» فعرض عليه صديقه عبدالحميد حجوج- الذي كان قد اشترى كل سيارات الحكومة والنقل الميكانيكى المستعملة والخردة – سيارة . وقال دكتور أمين « العربية كويسة بس عاوزه ليها مكنة وجربو كس وعجلات....... الخ » فقال الأخ سينا «الحاجات دى كان ركبتها في عنقريب حيمش».

عندما رجع أخى كمال بدرى بعد الدكتوراه في لندن توفر عنده بعض المال فأجرى بعض التصليحات في منزله وطالبه المقاول بـ 710جنيهات . وثار كمال وزعم أن المقاول حرامى وأنه سيأتى بمهندس لتقييم العمل. فخاف المقاول من المشاكل وخفض المبلغ إلى 650 جنيها ولكن عندما عرف المقاول أن المهندس هو خضر بدرى وافق بدون تردد.. – خضر بدرى جدنا واخ بابكر بدرى الأصغر- وحضر خضر بدرى وبدأ يحسب ويضرب وبعد مدة طويلة أكدأن الحسابات خاطئة ففرح كمال وقال «شفته شفته؟» وواصل خضر بدرى قائلا «الحساب ده شويه .. على أقل تقدير 950 جنيها ودى أسعار المواد القديمة يمكن اليوم يكون أكثر » ولم يرض خضر بدرى إلا أن يدفع كمال 950جنيها لكى يخلى ذمته. ولكن المقاول كان شهما وقبل بـ 710جنيهات.

عمى وصديقى محمد بدرى رحمة الله عليه كان يزورنى بانتظام في السويد وفي احدى المرات عندما كشف عليه الدكتور ركز على موضوع الأكل وحذره من عدة أشياء كعادة الدكاترة. وختم تحذيره طالباً من العم محمد

بدرى أن يقلل من أكل الفراولة فقال محمد بدرى بالإنجليزية «فراوله؟ القاها وين انا ساكن في امدرمان؟».

العم السراج عالم اللغة العربية والذي كان يعيش كفرسان العرب قفز بحصانه على معديّة شمبات قبل بناء الكبرى وعندما استغرب الناس قال «أعلمه القفز على الاساطيل».

كانت لاخى بله «جاك» زينة رجال العباسيه، سيارات تاكسى بعد فترة اغترابه. وكان قد تعب من السواقين، وذهبنا أخيرا لصديقنا فيصل الخير بطل رفع الأثقال وكمال الأجسام للاتفاق معه لأنه سائق تاسكى . فبدأ فيصل كلامه، قائلا: «السواقين حراميه، دى عربيه اخوى وأنا حآخد بالى منها . السواقين يطلعوا حق شرابهم وأغلبهم يدخنوا «الصنف» يطلعوا حق كيفهم أنا مايشرب. ولا بدخن بس بفطر وبتعشى وبطلع قفة الملاح من العربية ، فنهض بله مباشرة وقال «يلاكا يا شوقى» فقلت له «ليه كلام فيصل ده معقول جداً» وكان رده «معقول كيف؟ أنا أحسن لى لو كان بشرب ويدخن ، أنت شفت فيصل ده فطوره كيف؟» فتذكرت كيف كان فيصل يأكل 4 عيشات في الفطور و10 باسطه بعد العشاء.

في سنة 1962 ذهبت للحراسة بعد مصادمة كانت متوقعة مع عبدالحليم ابو حلمه أحد أبناءالمورده الذي كان يفرض نفوذه على منطقة الطابيه وحديقة الريفيرا والنهر. ولأن الأمر كان يتعلق بتسبيب الاذى الجسيم فكنت انتظر اطلاق سراحى عن طريق الضمان . فشاركت الحراسة مع الشاب

النشال الذى حاول أن يمارس نشاطه في احتفال تأبين السيد عبدالرحمن المهدى وأنقذ من الموت في آخر لحظة بعد أن تركه الانصار عارياً كما ولدته أمه وكان لا يزال عاريا في الحراسة بعد أن تصدق عليه البعض بسروال قذر، وجسمه يحمل آثار فظيعة من ضرب الأنصار فقلت له « إيه البوديك تسرق من الناس ديل؟» فقال «أنا عارفهم عوره كدا؟».

بعد جنازة الامام الصديق المهدى هجم الانصار على العنقريب وانتزعوا الحبال والخشب تبركا. كما هجموا على السوق وقضوا على كل مأكل ومشرب . بائع المرطبات أبو عيشه كان سعيدا بالربح المجزى فقد باع كمية ضخمة من شربات الليمون فبدأ ينادى كما يفعل في الأعياد والموالد «بي عوده بي عوده» وهجم عليه الأنصار وأشبعوه ضرباً ولم يفهم المسكين إلا بعد أن أنقذوه بعض العقلاء وشرحوا له غلطته قائلين: «قصدك شنو بى عودة بى عودة؟ عايز تكتل ليهم الهادى؟ !»

في أيام الديمقراطية الاخيرة اتى شيخ من الأنصار وكان يبدوا أنه لم ينفض عجاج السفر بعد. وقال لصاحب دكان في امدرمان «ادينى كيتى كولا» فضحك صاحب الدكان قائلا أنت أظن من أول مارس ما جيت تاني!».

الكيتى كولا انتهت في الخمسينات وشعارها كان قط «كديس» وهنالك أغنية شعبية في امدرمان كانت تبدأ بـ « كيتى كولا راكبه عجل والسينالكو جاريه ورا» السنالكو اختفت كذلك كما اختفى الكثير من أمدرمان ولم يبق لنا سوى الذكريات.

بعد تقديم العريضة الشهيرة بزعامة الامام الصديق المهدى لعبود والمجلس العسكرى، ذهب ضابط بوليس لاعتقال أحمد سليمان المحامى فقال له أحمد سليمان «انتو العريضة دى قريتوها بالقلبه؟ أنا اسمى في الآخر الامام الصديق المهدى في الأول ليه تجونى أنا؟».

حموده النعيمابى أحد النازحين من الرباطاب كان يعمل سبابياً في السوق اذكره يحمل جوزاً من مراكيب النمر الجيدة بالربل للبيع وكان البعض يتفحصوهم ويردهم بحسرة لأن سعر الواحد منهم 7 جنيهات . وهذا كانت ثروة في الستينيات. فمد أحد أهل البادية يده ليأخذ إحداها وكان يلبس شقيانه «وهى حذاء من سيور الجلد الغير مدبوغ لكن في قوة الفولاذ» فسحب حمود المركوب وقال بمساخة الرباطاب «آزول ها، مالك بيهو ده بيسويلك الحساسيه، وضحك الجميع حتى البدوى.

عمنا الرباطابى في سوق التماره حيث تباع الجردقة والحرجل والزعف وأشياء كثيرة أخرى. وقف أمامه شخص لا يبدو أنه مشتر وأشار لبعض الجنازير المعلقة.

سائلا: « ياعم الجنازير ديل للبيع؟ فرد عمنا الرباطابى «لا يا ولدى غسلتهن ومعلقن راجيهن ينشفوا».

فضل المولى عربجى وكان من أشهر أصحاب الكارو في أمدرمان ، طويلا باكتاف عريضة وشنب ضخم، أسود اللون وعيونه حمراء. وصدف أن تشاجرت مع أحد صبيان العربجيه وأنافي الخامسة عشر فتدخل فضل المولى قائلا : « غورولا اقطع جلدك» وعندما لم أهرب كما توقع اندهش فقلت له :

«أنت لو راجل وبتسوى ماكان تحرق طرمبات البنزين زى ماقلت ». وكنت أعرف أنه قد هدد بحرق طلمبات البنزين إذا منعوا عربات الكاروز من عبور كبرى الخرطوم واندهش أكثر لمعرفتى بالحادث وعندما اكملت قولى « كده تعال الموردة ادرج ليك سيجارة في البحر » امسك بطنه وضحك وضحك معه كل من في موقف الكارو وصرنا أصدقاء وبالرغم من فارق السن كنا نلتقى في القهوة والسينما قبل أن أذهب إلى أوروبا.

سيد صربندى «اطرش قديس» يتحدث بصعوبة كان يعمل في تقطيع لساتك السيارات في النهار ويبيع التذاكر أمام السينما في المساء. كان قوياً ويعتبر ويعتبر من بلطجية امدرمان كل ثقافته وحياته مربوطة بالسينما وعندما كان يقضى فترة فى سجن كوبر كان يجد عطفا كاملاً من المعتقلين السياسيين لأنه من مشاهير امدرمان، وعندما نقلوا له خبر وفاة جارى كوبر أصيب باحباط وامتنع عن الأكل واعتزل الناس ورفض أن يصدق أن جارى كوبر يمكن أن يموت. وأراد أحد المعتقلين السياسيين أن يخفف عنه وقال له «أنت جارى كوبر ده قريبك؟» فرد قائلاً «كيف ، ده اخوى» ووضع سبابته اليسرى ملاصقة لليمنى مؤكداً.

وأنا صغير سمعت بائعا ينادى في السوق «تاكل منه تتمسح منه.. تاكل منه تتمسح منه!» وعندما نظرت في القفه، كان يبيع الربيت . وبائع الحلوى كان ينادى «البى قروشه يحلى ضروسه» وبائع الليمون المثلج ينادى «برّد برّد .....برّد جوفك يا حرّان» وبائع السمك «ياحمام النيل » وبائع النعناع ينادى «مزروع جنب النيل والنيل يغنى».. أين ذهبوا يا ترى؟

الجزء الخامس

وأنا في السادسة من عمـرى ، وقبـل أن يبنـى سـوق حـى الملازمـين، وعندما كان الحى يعرف بالسور أو الـصور ولاتـزال الحفـر والخـيران تحتـل الجزء الأكبر من الحى، استيقظت مذعورا في الفجر على صوت طـرق عنيـف وصوت جهورى يغنى : يامدمدم باكر تنـدم يانـايمين فـوق المراتـب اطـروا الموت فوق المناكب. «يامدمدم» كـان يطـوف كـا امـدرمان داعيـا النـاس إلى الصلاة بالاهازيج المنظومة محذرا الناس من يوم الحساب وعذاب النار وكـان يطرق على قيروانه كما عرفت «صفيحه».

العميد يوسف برى اضطر لأن يرفع دعـوى عـلى مـؤذن كـان يـسب الكـسالى وتـاركى الـصلاة ويحـذر مـن النـار واصـفا العـذاب لمـدة طويلـة بالميكروفون وبالرغم من إضافة الجميع رفـض المـؤذن أن يكتفـى بـالإذان . وأوضح العميد بأن ما يعمله المؤذن بدعة ولا دخل لها بالإسلام . وأن الرجل المفروض أن يبشر المؤمين بالفردوس وما ينتظرهم من نعيم. ولكن عندما قال العميد بأن المؤذن غير لائق لأن صوته قبيح ، انفجـر الرجـل وأراد أن يأخـذ بتلابيب العميد وكان يقول : أنا صوتى أجمل صوت.

العم الطيار كان المؤذن في جامع العميد بابكر بدرى ولتقدمه في الـسن كان سـمعه ضـعيفا ويبـدأ الآذان في الفجـر «اف اف ويـستمر في الـنفخ ثـم يخاطب نفسه قائلاً: لا حـول ولا قـوة إلا بـالله الكـر كفـون ده خـسر تـانى.

الأولاد لعبوا في الكركفون أف أف وكل الحلة تسمع هـذه المحـاورة وأخـيراً يتوكل العـم الطيـار عـلى الله ويـؤذن بـدون أن يعـرف بـأن «الكركفـون» أو المايكروفون بخير .

كماحكى لى أخى كمال، أن رجلا جسيماً حضر إلى المدرسـة الثانويـة في الاربعينيات والقى ببابكر بدرى على الأرض وقام بخنقه وكاد أن يقتله لو لا وجود الفراشين . وعندما قُدم الرجل إلى للمحكمة أشار إلى أن شيخ «فلان» قد قال له بأن بابكر بدرى كافر. وكان بابكر بـدرى دعـا أوربيـا مـسلماً لكـى يحاضر عن الإسلام وكان الرجل يجيـد العربيـة. وزاد الـشيخ فـنظم قـصيدة يهجو بها بابكر بدرى لا أذكرها ولكنها تقول ما معناه «ياابن بدرى تأتى بعـد الشيب عجباً..وقفت تقدم القسيس فينا محاضرا» وتنـازل بـابكر بـدرى لأن الرجل جاهل وعند سماع الأخيرة كلمة جاهل، هجم مرة أخرى يريد تكـرار فعلته فقال بابكر بدرى ما قلت ليكم جاهل؟ واخلى سبيل الرجل.

بمناسبة المحاكم، حسن الكنزى كـان يمتلـك الـدكان المواجـه لـركن الإرسالية، مستشفى التجانى الماحى الآن وكان دكانه يقدم العشاء ويفـتح الى وجه الصباح ويمتلئ بسيارات التاكـسى والمـشترين ممـايزعج بعـض سـكان الحى فرفع بعض كبار الموظفين في الحى دعوة ضد صاحب الدكان بقيادة أحمد سالم . وعندما حكمت المحكمة على حسن بأن يقف دكانه عند منتصف الليل . قال لخصومه: أنا الراجل الوحيد الحارس الحله وانتو نايمين !!!

في حى الرباطاب كان الفاضل أب أحمد المعـروف بـود عيـب يمتلـك المخبز الصغير الكائن بالحى وهو أحد ظرفاء أمـدرمان يـصنع خبـزا خاصـا.

وفي الليل يسهر في الفرن مع اصدقائه. في احدى المرات كان يقود سيارته وهو مبسوط فوجد صعوبة في الاحتفاظ بالسيارة في خط مستقيم فركز على (خطر) لمبة السيارة التى أمامه لكى لا يحيد عن الطريق وفجأة توقفت السيارة الأمامية فيدخل الفاضل صادما السيارة من الخلف وهو يصرخ في السائق: عالم قش تلف وماتدى اشارة وتقيف بدون سبب.. واقف مالك هسى ؟ فقال الرجل «ما اقيف كيف؟ أنا جوه قراشى». أخونا الهادى الضلالى كان أول من يظهر في المناسبات مصحوبا بصديقه ود مرجان وتحصل ود مرجان على مركوب نمر وكان يظهر به في كل المناسبات فقال الهادي: ياود مرجان يا اخوى النمر ده لمن كان حى ما حام زى حوامتك دى.

أحد رجال امدرمان المعروفين وعد شخصا بمركوب نمر ومرت مدة لم يستلم الشخص مركوبه. وفجأة ظهر الشخص الموعود بالمركوب طارقاً الباب ومعه شخص آخر ضخم الجسم تبدو عليه الشراسة وعندما فتح الأمدرمانى الباب وفوجئ بهما فقال له : «وده جايبو معاك ليه» في زول قال ليكم النمر ده لسه حى؟!».

سليمان ابو سبعه كان بائع لبن في امدرمان وعُرف بأب سبعه لأن عنده سبعه من البنات، بالرغم من أن كل بائعى اللبن يحضرون في المساء أو الفجر إلا أنه كان يحضر متأخرا في الصباح وينادى على لبنه مازحا: الرطل قرشين المويه شويه بس جردلين.

أحد بائعى اللبن كان يجادل زوجة محامى معروف ويصر على أن يتقاضى ثمن لبن 30يوماً فتوقف المحامى قائلا: 30 يوم كيف؟ أنت ماجيت

يوم الهبوب ويوم المطرة خليت الأولاد يشربوا الشاى أحمر. وأوضح البائع بأنه عوض اللبن في اليوم التالى فقال المحامى محتدا: كمان عاوز تغالطنى؟ فرد اللبانى «أغالطك كيف ياجنابو، أنت الغلاط ما فاتح ليه مكتب».

السر الشهير بالسر السفيه لطول لسانه. كان عندما يدخل دار الرياضه يجتمع الناس حوله. وبينما هو مشغولا بكرتلة يحملها في يده تجاهل الرد على أخى الطيب سعد الترزى في سوق الشوام. فاغلظ له الطيب القول. واكتفى بأن رفع يديه إلى السماء قائلا «اللهم لك الحمد والشكر لأنك لم تجعل رزقى في خرم إبره».

وعندما قال له أحد العربجية «أنت يا السر جنايني في الجامعة 20 سنة مفروض متاوقة ساكت تكون اتخرجت !» قال: أنت شنو كمان يا أب دركسوناً حبل بنزينك «هرد» وفراملك «هس»!

عندما انقسم الخريجون إلى معسكرين قاد أحدهما الفيل وعرفوا بجماعة الفيل وكان محمد على شوقى على رأس المجموعة الأخرى وعندما خسر جماعة الفيل الإنتخابات صلى محمد على شوقى بكل الأعضاء وقرأ جهراً: «الم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل» إلى آخر السورة.

بعد نكسة 1971 ظهر العم عبدالكريم ميرغنى في برش الصلاة فقرأ أبارو جهرا «إذا جاء نصر الله والفتح ورايت الناس يدخلون في دين الله أفواجا» صدق الله العظيم . فقال العم عبدالكريم «قصدك شنو يا عسكرى إنت».

في رمضان اتى من أراد ان يشترى كل القلل من العـم نقـد الله. وبعـد مجادلة طويلة وافق العم نقد الله على قرش ونـصف لكـل قلـة وبـدأ المـشترى يغالط في الحساب فقام العم نقدالله يقلب كل القلل وقال له : خـت لى قـرش ونص في قعر كل قلة.

كنت احاول ادخال السيارة في القراش عندما رايت أحد زملاء بـراغ. فترجلت للتحية وكان يرتدى جلبابا نظيفاً وعمامـة مـشغولة وصـندلا جمـيلاً وتبدو عليه الراحة ، ويتأبط بعض المجلات ويحمل تيرمسا للشاى ولأننا كنـا بـالقرب مـن مستـشفى التجـانى المـاحى فلـذا سـالته: عنـدم زول راقـد في الاسبتاليه؟ فقال بعد أن شفط نفسا طويلا من سيجارته : «ايوه ، أنا».

صديقى من براغ والسويد وبرلين رجع من أوروبا إلى الـسودان نهائيـاً بعد أن ضاق بأوروبا وضاقت به . لأنه عمل العجب في أوروبا . وكان ديدنه أنه لا يدفع الايجار والفواتير. وفي امدرمان كانت أمه توصية عدة مرات قائلة: يا ولدى خت بالك دى ما أوروبـا، الحراميـة والربـاطين!! خـت بالـك مـن الحرامية والرباطين ! وعندما تعب من النصائح قـال لأمـه: أنـت يـا والـده، الحرامية والرباطين ديل مانحنا !!

اخونا اطال الله عمره كان يدرس في مدرسة الأهليـة. وكـان معروفـا بلقب خاص لدرجة أن قليلاً مـن سـكان امـدرمان يعرفـون اسـمه الاصـلى فقالت له أمه يوما «يا ولدى قالوا في ولد في مدرستكم صعلوك اسمه.... ما عافيه منك كان اتكلمت معاه» وكان يعدها خيرا. وفي احدة العـصريات اتـى

اصدقاؤه لأخذ ه لتمرين الكرة وكانوا ينادونه بالاسم الاخر. فقالت والدته «سجمي... وهوده أنت !؟؟»

في احدى الليالى الساخنة، حكمت مع ود نفاش إلا أن ينام في راس البيت . والمفتش الانجليزى برمبل كان يطوف كل امدرمان حتى الانادى ويتذوق المريسه. وعندما شاهد شخصاً نائماً طقعه بالحجارة وعندما استيقظ موسى ود نفاش قال له برميل «تنوم في رأس بيت أنت مجنون؟؟» فرد موسى «مجنون أنا ولا مجنون البطقع».

عندما شاهد برميل صاحب حمار جالسا يأكل والحمار محملاً بجوال عيش غضب جداً. وذهب واشترى برسيماً واجبر الحمارى لأن يحمل الجوال على ظهره إلى أن أكمل الحمار طعامه. لقد كانت هنالك هيئه اسمها جمعية الرفق بالحيوان والاسلام يطالب بالرفق بالحيوان. هذه الهيئة انتهت والآن لا توجد هيئة للرفق بالإنسان !!.

سليمان عبدالقادر إنضم للمريخ كباك وطُلب منه أن يتابع جكسا في كل خطوة. وحرّضه البعض على الاستفزاز والمضايقة. فقال له جكسا «أنت لاعب جديد والرياضة اخلاق قبل كل شيء فتوقف سليمان من مضايقاته. وسجل جكسا هدفا وعندما قالوا لسليمان : فكيت جكسا ليه؟ قال لهم «الرياضة اخلاق قبل كل شيء». ود الشايقى كان يلعب باك في المريخ وهذه خانة حساسة لأنه بمجرد ظهور باك جديد وهداف جيد يوضع الباك في الرف أو يشطب، وظهر باك جديد فأتفق ود الشايقى مع صديقه جاد الله على

ترقيص الباك الجديد في التمرين وكان اللاعب يقبض طراده في التمرين ووعد ود الشايقى جاد الله بريال من طرادة التمرين. وعندما قارب التمرين على النهاية ولم يحدث شيء قال ود الشايقى صارخا بصديقه «ياجاد بالخمسطاشر قرش الباقية!!».

في احدى الاجازات في أيام الديمقراطية الأخيرة. اتانى رجل بابتسامة كبيرة ووجه باش وهو وسيم الوجه حسن الهندام وسلم على بحرارة وقدم نفسه باسم المهندس حسن فلم اعرفه. وسألته: حسن منو؟ فضحك وقال لى: حسن لوح. فتذكرت طفلا نحيلاً بكرش كبيرة كان قد حضر لتوه من الرباطاب ويسكن عند اقربائه. وعندما تدحرجت الكرة في الدافورى واستقرت أمامه وهو يقف بعيدا لم يتحرك فقلت له شوت ولكنه وقف متسمرا فردد الجميع: شوت، شوت الكورة ، ولكن بدون فائدة فقلت له: شوت يالوح، فقال ببراءة : أنا مالوح أنا حسن . ومن وقتها صار اسمه لوح فله الشكر لأنه لم يحقد على.

يوسف المنجد كان صديقا للكثيرين. وكان يلعب الورق مع القاضى ع.ط. وآخرين، وعندما قدم للمحكمة لمخالفة سأله ع.ط. حسب الأصول: اسمك شنو وشغال شنو؟!.

فرد يوسف «اسمى بتعرفه كويس وشغلى... شغلى برص بنوك »!!!

الفصل الخامس

رمضان زمان في أم درمان

الجزء الأول

كان لرمضان في ام درمان طعم خاص . فما أن يقترب الـشهر الكـريم حتى نبدأ في احياء ام درمان القديمة امثال بيت المال حركة غير عادية.

حيث يلاحظ الانسان هذا في عملية كر الآبرى بنوعيه الابيض والحلو مر، وبعض الأسر كانت تتفنن في تلوين الآبرى الأبيض بـاللون الأخـضر أو الاحمر الغامق .

هذه العملية تأخذ أسابيع من التحضير وتجتمع الفتيات تحـت اشراف النساء المتمرسات في هذا العمل الذي عادة ما يكون جماعياً. ويحـددون يومـا لكل منزل ينـتقلن بعـده إلى منـزل اخـر وسـط الـضحك والبهجـة. ويقـدم اصحاب المنزل الاكل والمشروبات حسب مقدرتهم، وبعـض البيـوت تقـدم المرارة والشية ، الفطير، الكنافة، ... الخ.

هذه الخيرات تصيب الصغار كذلك، كما يحق لهم التهام الآبرى الـذي يتجمع في (القرقريبة) في شكل كتل ويضاف إليه السكر مـن الـسكرية التـى تتوسط النساء اثناءاحتساء القهوة.

عملية كر الآبرى عبارة عن فستيفال للتعارف، وتمـرين للفتيـات عـلى العمـل الجماعـى وتحـضيرهن للحيـاة الزوجيـة. وفرصـة لتبـادل الاخبـار والدردشة.

رمضان كان يبدأ بالزفة التى تطوف كل أم درمان ويتقدمها رجال الدولة والشخصيات الكبيرة، السوارى، وموسيقى البوليس والحرفيين على عربات الكارو وهم يهتفون «الفن لمين؟ للنجاريين والفن لمين؟ للحدادين... الخ».

ولا تكتمل مراسم رمضان إلا باحضار مدفع رمضان إلى ميدان المدرسة الأهلية الذي كان تقريبا في وسط أم درمان مما يتيح للجميع سماعه في ساعتى الافطار والامساك.

هذه العملية تتم وسط حشد كبير من الناس خاصة الأطفال يشاهدون. بعيون واسعة سعيدة إلى المدفع الضخم والعساكر الذين يحركونه إلى أن يتخذ الموقع المناسب ويثبتونه مواجها للشرق.

في كثير من أحياء أم درمان يتناول الناس افطارهم في الطريق العام حتى يتسنى لهم أن يجتمعوا باكبر عدد من البشر ويمكن لاى عابر سبيل أن يجلس معهم لتناول طعام الافطار بدون حرج، كما يترك الكثيرون أبواب منازلهم مفتوحة.

رجال البوليس الذين كانوا يطلقون المدفع وتسمعه كل ام درمان كانوا يتناولون افطارهم مع أهل الحي الذين يجلسون على سجاجيد جميلة بالقرب من المدفع وتستمر هذه الجلسة للسمر والدردشة ويتوقف الكثيرون للتحية والمشاركة.

من أهل هذا الحى محمد عثمان يسن (سيرانوالصغير) ، محد مكى عبده، آل خاطر، الرئيس اسماعيل الازهرى، آل الزيات وآخرين.

من قصص أم درمان الظريفة أن أحد الأغراب مر بجماعة في ام درمان فدعوه للافطار الفاخر الذي يتوسطهم وسلمه أحدهم كورة الحلو مر قائلا (اتفضل يا حاج) وبعد بضع لقيمات قدم له آخر كورة الحلومر. ولكن عندنا قدمت كورة الحلو مر للمرة الثالثة والحاج عينو في الجوافة والمنقه والقمر الدين قال الحاج «من هلوا مر الحمد لله». وأهل أم درمان مازالوا يقولون إلى اليوم عندما يتعبون من شئ ويطالبون بالتغيير: (من هلو مُر الحمد لله).

صديقى احمد عبداللطيف في دبى اتصل بى عدة مرت لأعمال تجارية وكانت كلها غير مجدية ولانه بمثابة الشقيق بالنسبة لى فلم يكن من الممكن أن أرفض له طلبا وأخيراً أرسلت إليه فاكساً قائلاً (من هلو مر الحمد لله) فهم قصدى.

الثلج كان عزيزاً في ام درمان لعدم وجود الثلاجات أو الفريزرات، وأغلب الموظفين كانوا يعملون بمرتب دون العشرين جنيها والثلاجة تساوى أكثر من مائة جنيه ، والمثل الام درمانى يقول (البوبار وفك الزرار والتلاجة في بيت الايجار).. الثلج كان يباع في محلات ابو العلا في المحطة الوسطى بالقرب من دكان الحاج نعيم شندى والعم عبدالكريم العجلاتى في بداية شارع كررى.

من العادة أن يشترى الصبية لوح الثلج ويبيعونه بالقطاعى في الاحياء طلية ايام رمضان. ولوح الثلج كان يساوى سبعة عشر قرشاً ونصف ويزن عشرين كيلو جراماً ويمكن أن يباع بحوالى الثلاثين قرشا مما يعنى ربحا قدره ٪40.

العم الخير كان يدير محل الثلج ويعاونه مجموعة من البشر خاصة في أيام رمضان في العصر عندما يمتلئ المحل بالمشترين.... احد أهلنا الرباطاب المشهورين بالمساخة وطول اللسان كان يعمل مع العم الخير، فطلب أحدالشايقية لوحاً من الثلج واثناء عملية الاستلام سقط اللوح وانكسر، فرفض الشايقى الاستلام وطالب بلوح سليم، فقال الرباطابى بعد تغييره اللوح (هناك واحدا سالم بتدور تسويه عتب ؟

بعد المويات يستلقى الناس على السباتات أو السجاجيد لساعات طويلة ويحلو السمر ورواية القصص والنكات التى لا تنتهى.

الجزء الثاني (التحضير)

ما أن يقترب رمضان حتى تتحول الحبوبات إلى جنرالات.. يصدرون الأوامر والارشادات، ويدونهن لا يقضى أى غرض.

حبوبتى زينب بت الحرم في بيت المال كانت تبدأ الاستعدادات بجملة «يابنات أنفضوا السباته ونزلوا الكباكة». الكباكة جمع كابدولو. وهو وعاء ضخم من السعف برقبة وغطاء مثبت بحبل يخترق الغطاء بحيث عندما يرفع الغطاء يظل مربوطاً بالاناء.

كما يخرجن البروش المزركشة التى تكون معلقة في القطيع أو القاطوع وهي غرفة صغيرة تقتطع من الغرفة الكبيرة لتخزين الأشياء. السباتة لنشر الزريعة والكباكة لحفظ الحلو مر والابرى الأبيض البروش تكون ملفوفة ومغطاة ومعلقة بحبل يربط على رصاص السقف.

البروش فيها النوع أبو رقبة وهو للصلاة ويستخدم عادة لاكرام الضيف المهم، أو النوع المستطيل كى يفرش على الأرض أو على العنقريب، وكثير من الصائمين يفضلون النوم على البرش في نها رمضان.

قديما كان الناس يشربون الحلو مر بكأس القرع فقط ويقولون انه يعطى الحلو مر طعماً خاصاً ، والقرع يكون مر الطعم في الأول ولكن الكاسات الجديدة تبل في الماء لمدة طويلة وتكحت عدة مرات حتى تختفى

المرارة، وكذلك القرع كبير الحجم والبعض يفضل أن يشرب بشيء كبير كالقرعة الكبيرة أو الطاسة.

كانت الدلاليات ينشطن في هذه الفترة فيقمن ببيع الصحانة خاصة «الغراف» والباشرى الكبير الذي يتوسطه الهلال والنجمة والجرادل الصغيرة والسلطانيات أو الكور. والسلطانية خاصة للخشاف «التين والزبيب» والملاح للعصيدة . والرقاق للسحور وفي بعض الأحيان يكون التمر المغلى في اللبن وهذه نقلة من أهل الشمالية إلا أنها أختفت لغلاء اللبن والتمر.

أهم مشروب في رمضان هو الحلومر. وتبدأ العملية في زريبة في العيش شمال البوستة ، ويصنع الحلومر من الفيتريته فقط ولا يصنع حتى من ودعكر ولكن بالعدم يمكن استعمال المقد. والآبرى الأبيض من المايو وبالعدم من القصابى.. الخطوة الثانية في سوق التمارة بموقعه شمال شارع الصياغ لشراء البليله، فريك ولوبا حلو، ويتجنب الناس لوبا عفن في رمضان لأسباب واضحة. وأخيراً عرف الناس الكبكبى . للحلومر يضاف الغرنجال والحبهان والجنزبيل والأنقارا «الكركدى» والعرديب «تمر هندى» .. أهلنا الرباطاب كانوا يسيطرون على هذا السوق ويبيعون الحرجل والزعف والتمر والجردقة والعطرون.... إلخ.

الأبرى الأبيض يضاف المحريب لكى يعطيه رائحة زكية ويساعد على الاحتفاظ به لمدة طويلة دون أن يفسد.

كثيرا ما أجد عند الأخوه المغتربين الحلومر وقد صار قديماً ويعاملونه

بدون احترام.. وعملية الحلومر صعبة معقدة تحتاج لإمراة حازمة عالمة لكى تشرف عليها من البداية إلى النهاية.

العيش يبل ويغطى ويفرش على السباتة ويحتفظ به رطباً بدرجة معينة حتى بنبت ولا يترك حتى يتعفن. ثم يجفف ويؤخذ إلى الطاحونة أو يحضر الدقاق بحماره ويأخذه إلى الطاحونه التى كانت ضخمة قديما وتعمل بالبخار ولها غلايات ضخمة . الا أن الطواحين الكهربائيه ظهرت في بداية الخمسينات وهى صغيرة جداً.

عملية الطحن كانت بطيئة والانسان قبل رمضان ينتظر لساعات، حيث تطحن الزريعة في وقت واحد حتى لا تختلط بالعيش.. وفي الأيام العادية ينتظر صاحب الفيتريتة إلى النهاية حتى لا تختلط الفيتريتة بالمايو لأنها رخيصة ولونها أحمر وكسرتها حمراء. ولكن في نهاية الستينات صارت تماثل المايو في السعر لأن المايو لا يصلح لعمل المريسة والاشياء الأخرى.

كر الحلو مر يحصل بالنفير أي مجموعة من البنات والنساء تحت اشراف العجائز. حيث ينتقلن من منزل لآخر. وأهل المنزل يقدمون الطعام والشراب. وقد يكون شية ومرارة مع الشربوت والبقنية والسكسكانيه والشعيريه والقهوة.. والنساء المتمرسات يقدمن ارشاداتهن خاصة في عملية «الطبيق».

الفندك الكبير الذى يستعمل لمدة طويلة كمقعد في التكل أو المطبخ وهو مقلوب ينظف ولأيام عديدة يتحمل الضرب وينتقل من منزل لآخر

لدق الشرموط، والويكه والبهارات التى تضاف إلى الحلومر، وبعض البنات حريفات في هذه العمليه وقد يؤدينها استيريو أو اتنين في نفس الوقت.

الشرموط هو لحم فخذ الثور.. كان يباع بـ 20 قرشا للكيلو وكان هذا نفس سعر اللحم الضانى ولقد صحبت الخالـه «ح» من السوق الكبير إلى بيت المال وهى تحمل 20كيلو جراما على رأسها. وهذه مئونة عدة منازل . لأنها كان لها دراية بالعمليه وتعرف كيف تتحصل على اللحم الجيد.

وينشر اللحم بعد أن يشرمط «أي يقطع إلى شرائح رفعيـة» على حبل الغسيل ويفضل السلك حتى يجف. ثم يدق في الفندك. ويدخل الشرموط في طبخ عدة أنواع مثل التقلية ، الشرموط الأخضر والنعيمية التى لا يخلو منها منزل في امدرمان مع العصيدة.. ملاح الروب يرتبط برمضان وهو بدون لحم بل يزينه السمن البلدى الذي يحيط بالعصيدة، والبصلة التى تطل برأسها.. ولهذا يقولون «عينه زى البصله في الروب»؟

البصل يتم تجهيزه بأن يخرط بكميات كبيرة ويجفف ثم يحمر لكى يكون في متناول اليد لعمل الشرموط والتقليه.. إلخ.

الرقاق يصنع في المنزل ولـه نساء متخصصات في كل أسرة. إلا أن السكسكانية التى تصنع في رمضان وقبل رمضان لها صانعة متخصصة تحضر بالأجر، مصحوبة بقدح كبير من الخشب وطبق من السعف وهى ذات اياد قوية. أما الشعيرية فقد صارت لها في الخمسينيات ماكينات لصنعها.

الفطير والمشبك من أكلات رمضان والعيد إلا أن المشبك يحتاج لحديد المشبك الذي يصنعه الحدادون كما يصنعون قلاية البن لعمل القهوة التى تكون مهمة بعد الإفطار. والسمكرية يصنعون الشرقرق.. الأطفال يحاولون الحصول على قرشين بكل الطريق لشراء كبريته والمدفع الذي هو عبارة عن شكل مخروطى من الحديد بشكاك في شكل مسمار طويل . بحلقه تربط مع المدفع بدبارة وينزع الكبريت من العيدان ويشك ثم يضرب المدفع الذي يصدر فرقعة عالية بحجم الكبريت..والمدافع يصنعها الحدادون وهذا المدفع يمثل المدفع الذي ينصب شرق مدرسة الأهلية وعلى صوته كانت تفطر كل أمدرمان. المدن الصغيرة كانت تفطر على صوت البروجى الذي ينفخه أحد الجنود... قبل رمضان كانت جدتى الرباطابية «الرسالة بت أحمد » تبدأ بشراء السعف من ود بدرى في سوق التماره. لعمل القفاف ، التبروقة، الكباكا والبروش للأهل أو لبيعها.

وتبدأ بفصل الحنقوق من الزعف وهو نوعان الحنقوق الضكر لعمل المقاشيش والعادي يبل ويدق ويفتل لصناعة عروة القفه أو يدها. ولهذا يقول المثل «البيضة أكان لها عروه يسيلوها اتنين» وهذا للحث على التعاون . والشاعر هجا فتاة قائلا: شعرك الحنقوق الضكر وعينك النخامة في الجر.

للكابدلو ضفرة ناعمة حتى لا يدخله الغبار ويزين في بعض الأحيان بنقشات بسيطة . البروش تأخذ مده طويله لان السعف يصبغ بعدة ألوان أحدها الكوبيا. حيث يكسر قلم الكوبيا ويغلى في النار ويغطس في المحلول السعف. ولهذا يغلب اللون البنفسجى على البروش.

والبرش هدية وعليه يجلس العريس ويستلقى ود الطهور. أو يستلقى الصائم ويجلس الناس بعد الفطور.

التقروفه أو التبروقه مستديرة وتصنع من السعف إلا أن حافتها مرتفعة كبرنيطة المكسيكيين وتعطى المصلى الإحساس بأنه يجلس في ورع وتقوى ولها عروة من الحبل المجدول من صوف الغنم.

الزفة عبارة عن موكب من الأعيان والبوليس والسوارى ويطوف كل امدرمان والحرفيون على عربات الكارو يهتفون «الفن لمين ؟ للخياطين .. الفن لمن؟ للحدادين .. الفن لمين . للبنايين.... إلخ».

وآخر يوم قبل رمضان يسمى خم الرماد الذي له طابع خاص.. لكنى لم أشارك فيه قط إلا بالنظر والتوصيل.

الجزء الثالث

الحياة لا تتوقف في نهار رمضان إلا أنها تصير أكثر هدوء وخاصة أن رمضان في بداية الخمسينيات كان يأتي في شهرى مايو ويونيو وهما أشد الشهور حرارة في أم درمان.

الرجال الكبار كانوا يقضون الوقت في قراءة القرآن أو لعب الطاولة والشباب يلعبون الورق خاصة في نهار يوم الجمعة، حيث تمتلئ بهم الأندية الثقافية ويمارسون ما يساعد على تزجية الوقت.

كثير من النساء يقضين الظهر والعصر في النوم ولكن النسوة كبار السن كانت لهن نشاطات أخرى. جدتي في بيت المال كانت تقضي نهار رمضان مع المترار الذي يتخلله الحديث وتبادل الأخبار مع صديقاتها.

المترار بأوزان مختلفة والقرص قد يكون من القرع أو الخشب أو الفخار والثقل يحدد نوع الفتلة . ويفرك على الفخذ، ليدور في الهواء ثم ينزل إلى الأرض بمهارة حتى تحدد الأرض السرعة أو الفرملة.

وعندما يمتلئ القرص يخرجن الغزل ويضعنه جانبا إلى أن تكتمل الكمية المناسبة وهنالك نوعان من الغزل وهما السداية اللحمة ويوصلن الغزل في «شلة» ضخمة بحذر شديد حتى لا يتشابك الغزل ويقول المثل «الله يلخبط غزلك» في حالة الغضب!!

ويأخذن كل هذا إلى النساج الذي يعمل أكثر في أيام رمضان... وقد كن يعملن في الليل خاصة بعد إدخال الكهرباء. فالكثيرات يردن أن يقابلن العيد بفردة جديدة.

النساج يجلس في حفرة ويعمل بيديه ورجليه ورأسه في حالة حركة شمال يمين لمتابعة الغزل. احدى النساء اختلفت مع النساج في امدرمان فقالت له «خاتيه أنا الجيتكم. انتو نص مدفون ونص مجنون» النسوة يشترين القطن بالقرب من سوق العناقريب ويقمن بنظافته من الغلغل ونفشه. وعملية المترار تحتاج لمهارة. وفي يد النسوة المتمرسات ينطلق المترار بصورة رائعة. ولقد قال الشاعر محجوب شريف في نعى الرجل الفاضل عبدالكريم ميرغنى مشيراً إلى قيامه بنفسه على خدمة ضيوفه «تساسق تقول مترار».. في رمضان تنفض الفتيات الغبار عن المنسج لعمل الطواقى وتزجية الوقت وقد يجتمعن في مجموعات وينسجن الطواقى الفاخرة التى تأخذ وقتا طويلا للأخ العزيز أو للخطيب، وكذلك المناديل المشغولة.

كما يصنعن الطواقى العادية ويقمن ببيعها وشراء شيء جميل للعيد. الطاقية كانت تستهلك كمية صغيرة من الدبلان و4-5 شلات من خيط الحرير والشلة تساوى 1.5 وتباع الطاقية بـ 20-25 قرشاً.

وكان في امدرمان قديما سوق كامل للطواقى بالقرب من الجزر. وفي هذا السوق كانت تباع الهبابات التى لا تستغنى عنها النساء الكبار في شهر رمضان أو شهور الصيف، ولها مقبض من الجريد مغطى بقماش أحمر أو أزرق

وهي من الحنقوق المشغول بخيوط الحرير ولها أشكال وألوان جميلة وتساوى 15-25 قرشا حسب الصنعة.

من هذا السوق يشترى الناس الوقايات التى توضع عليها جبنة القهوة وهى مكملة لفطور رمضان. والوقاية تساوى 7-15 قرشا حسب الصنعه والشكل والحجم وكمية السكسك.

السمر هو الشيء المكمل لمساء وليل رمضان ولأن الناس قديما كانوا يأكلون في مجموعات وفي بعض الأحيان خارج ديارهم، فما أن يقترب رمضان حتى يأتى أحد الكبار بلورى رمل يطرح على الناحية وتفرد بعض الأحجار حول الرمال لكى تكون مجلسا للفطور والصلاة والسمر إلى وقت متأخر والكل يحضر صينيته.

كثير من الناس كانوا لا يستطيعون أن يبلغوا دارهم في وقت الفطور ولم يكونوا يتحرجون في قبول دعوة الآخرين.

بعض الأخوة الأرتريين الذين حضروا للسويد كانوا يحكون للسويديين ، بأنهم لقلة المال كانوا يتحركون في الأسواق ويقبلون دعوة الناس للأكل بدون سابق معرفة بل كانوا يقولون بأنهم يأكلون أكثر في رمضان لأن الموائد كانت على الطرقات خاصة في امدرمان.. ولم يكن أي إنسان يهتم بأنهم مسيحيون مما كان يحير السويديين.

المقاهى كانت تمتلئ بشكل غير عادى في أيام رمضان وتنتشر الألعاب مثل النوامة أو الدوارة في أغلب المقاهى الشعبية .. وفي بعض المقاهى قد

توجد خمس نوامات.. وطبعا كان هناك الكنكان وهـو كنكـان عـشرة وسـتة المعروف بكنكان عتاله . وهنالك لعبة اسـمها «الـواح»وهـي مثـل ألبينقـو.. ألواح صغيرة من الموسونايت بأربعة أقسام في كل قسم رقم من واحد إلى مئة وعلى ظهره رقم للوح لكى يقوم المعلم بتسجيله بعـد دفـع رسـوم. وهنالـك كيس مربعات خشبية صغيرة اسمها البذورة يخرجها المعلم بعـد هـز الكـيس جيداً ومن تخرج أرقامه الأربعة قبل الآخرين يربح كل شيء بعد خصم نـسبة للمقهى .

البريمو لعبة مثل «الفلر» الذي ينتشر في كل العالم وهـي جلـه صـغيرة يطلقها الإنسان بياى لكى تسقط في حفرة لها رقم . ومن يتحصل عـلى الـرقم الأعلى يكسب.

ولكن الشيء المهم في المقاهى الشعبية هو الدردشة والنكات والالتقـاء بالآخرين. ولقد كانت فترة رمضان عبارة عـن فـستفال كـل ليلـة.. فيمتلـئ سوق الموية بالناس والجميع في حالة حبور وفرح. والـصغار كـانوا يجلـسون خارج المنزل تحت نور لمبة الشارع ولا يوبخهم أحـد فـالجميع سـعداء حتـى العداوات تختفى في ذلك الشهر الكريم.

العمل لم يكن يتوقـف في النهـار بـل أن كثـيراً مـن الـصناعيين كـانوا يكسبون ويعملون أكثر في رمضان أصدقائى الكهربجيه كانوا يعملـون أكثـر فأغلب المنازل أو المحلات يحتاج لتوصيل لمبة لخارج الدار أو خارج المحل. أو عمل توصيلة جديدة أو تركيب مروحة في السقف.. وقديما لم تكن المكيفـات

قد اكتشفت بعد في السودان ومروحة الطربيزة كانت تعتبر بذخا، وهذه الاشياء زائدا الثلاجات تحتاج لتصليح أو صيانة.

والجزمجية بالقرب من الملجأ كانوا يعملون إلى وقت متأخر من الليل . ويعملون طيلة النهار لا يرجعون إلى منازلهم إلا قبل الإفطار بعد غفوة في الدكان أو البرنده.

بالنسبة للخياطين فهذا أحسن موسم.. وتستمر السهرة في بعض الأحيان إلى قرب الفجر خاصة في يوم الوقفة والدكاكين التى ليس بها كهرباء كانت تمد خطا من الجيران.

عندما يشتد الحر تتغطى النساء بالثياب المبلولة . وقد ينادين أحد الصبية أو الفتيات لكى يقوموا برشهم بالماء عندما يجف الثوب فحتى الحركة تعتبر عبئا كبيرا ، والكبار كانوا يقولون «السعيد يحضر رمضان في الشتا» وكان هذا يبدو بعيدا، وفي الستينيات أتى رمضان في الشتاء وها هو الآن يجئ في الشتاء مرة أخرى.

الذين يسكنون بالقرب من النيل كانوا يقضون فترة بعد الظهيرة إلى العصر في الماء.. ونحن الصبية كنا نجتمع في منطقة النمر بالقرب من الطابية ونحضر معنا بعض الملاءات والعصى وننصب خيمة تزيد بعدد القامين. الأخ نصر جبارة رحمة الله عليه والذي توفى بعد رمضان الماضى كان مهندس تلك الخيمة بروحه الطيبة وجسمه الرياضى القوى. ولقد لعب للعباسية وكان صخرة دفاع الموردة . ولقد حدث مرة أن انشغلنا بالسباحة واللهو وصيد السمك. حتى نسينا وقت الإفطار ولم يذكرنا به سوى المدفع.

كان من العادة أن يستدعى أعيان أمدرمان أحد الوعاظ مـن القـاهرة لجامع أمدرمان في رمضان، وعندها كان يشرح الأسباب التى تبـيح الإفطـار ذكر كل الأسباب ثم قال مازحاً: «أو إذا كان الإنسان مـن سـكان أمـدرمان» نسبة للحر الشديد.

الجزء الرابع

كان للأسبوع الأخير من رمضان نكهة خاصة. فهو موسم الاستعداد للعيد ومن الواجب أن يكتسى المسكن والساكن بحلة زاهية جديدة.

الرحمتات من الأشياء المكملة لنهاية رمضان والأطفال كانوا يشترون القلل والأباريق الفخارية وبجانب لقيمات القاضى لأنها تكون كبيرة أكثر من العادة فهنالك التمر المبلول ونطوف على منازل الأهل فيصبون ماء البلح في القلل وبعض تمرات. والقلة الصغيرة كنا نشتريها بقرشين أو قرش ونصف.

عيد الفطر كان لا يكتمل قديما إلا بالكعك والبسكويت. ويبدأ البحث عن المنقاش الذي ينقش به الكعك أو القمع الذي يثبت في مفرمة اللحمة لتشكيل البسكويت ولم تكن الغريبه والأنواع البديعة الأخرى قد عرفت بعد . والمنين كان يصنع مع القرقوش للمسافر أو لشرب الشاي.. وفي فترة ما قبل العيد يرتفع سعر البيض من 8-10 قروش للدستة لكى يتعدى الأثنى عشر قرشا وقد يصل إلى الخمسة عشر قرشا.

وتخرج صوانى الصاج الثقيلة لكى يرص عليها الكعك وتبدأ طوابير الأولاد والبنات مشوار الطابونة ولقد كنا نحضر من شمال الهجرة إلى محطة مكى ود عرسه. وفرن ناصر الصياد اليمنى .. ونحن نحمل الصوانى على رؤوسنا بعد عمل وقاية جيدة من القماش على الرأس. وعندما نرجع بالكعك نجد بعض الجيران في انتظار الصوانى لاستعارتها.

الكعك والبسكويت كان يجد طريقه إلى الشنطة التى تصنع من صفيحه فارغة أو قد تكون مزدوجة من صفيحتين واحدة للكعك والأخرى للبسكويت تقفل بطبلة حتى لا يسطو عليها الصغار.

الكعك لم يكن ينجح في كل الأوقات ، لاختلال في الخلطة أو لأنه يتعرض لنار غير مناسبة في الفرن. وقد يحترق في بعض الأحيان وعندما احترق كعك احدى النساء في الفرن قالت لها صديقتها «نتقاسم كعكى».

من قصص الكعك أن أحد الضيوف لم يكمل كعكة واحدة بالرغم من اصرار صاحب الدار. وأخيراً قال الضيف «يا أخى كعكم قوى» فرد صاحب الدار غاضبا: «مالو ، ما كعك رجال».

بعض الصبية كان يكثر من أكل الكعك ساخنا في الطابونة حتى توجعه بطنه. الفران كان يأخذ قرشبن للصينية الكبيرة وقرش للصغيرة.. الكعك يكون في شكل دوائر أو هلال أو باقى الدائرة بع قطع الهلال. بعض المريخاب كان يرفض أكل الهلال. أو يصر بعضهم على قرقشة الهلال فقط من الكعك.

إصلاح الدار استعدادا لعيد رمضان كان يتركز في الطلاء . وطلاء الشبابيك والآثاث واصلاحه.. وكثير من البيوت كان أصحابها يستعدون لحفلات الزفاف بعد رمضان.. وفي نهاية الخمسينيات كان رمضان ينتهى في نهاية أبريل ومايوا هو شهر الزيجات.. ولهذا ظهرت الأغنية: «حريقه يا مايو».

من الحرفيين الذين كانوا يستفيدون كثيراً في نهاية رمضان، النقاشون

ويطلبـون في العـادة 250 إلى 300 قرشـا للغرفـة العاديـة، مـواد ومـصنعية والغرفة عادة 4× 4× 4 أمتار .

وللغرف العادية ثلاث شـبابيك وبـاب واحـد مـن الخـشب العـادى والسعر ثلاثة جنيهات لأن الشيش يشرب كثيرا من البوهيه وهو عادة بلـون أخضر إلا أن النافذة الداخليـة مـن الزجـاج تكـون بـاللون الأبـيض وهـذا يستدعى كثيرا من الدقة حتى لا يتلوث الزجاج.

الغرفة العادية تحتاج إلى كيلو جرام من اللون الذي يخلط بثلاثـة كيلـو جرامات مـن الاسـبداج الأبـيض. والكيلـو جـرام يـساوى عـشرين قرشـا للأسبداج أو اللون. وكيلوجرام من الاسبداج لعمل الجزء الأعلى من الغرفـة المعروفة بالوظرة. وزجاجة من زيت الأسفال الأسود لوقاية الجـزء الأسـفل من الحائط من الاوساخ والماء. والزجاجة تساوى خمسة عشر قرشا.. ولتثبيت الطلاء يحتاج الإنسان إلى رطل مـن الـصمغ المبـشور.. وتبـدأ العمليـة بـسد الفتحات والشقوق بالرمل المخلوط بالصمغ وتركهـا إلى اليـوم التـالى لكـى تجف. ومن العادة أن ينهى العامل الماهر الغرفة في أربع إلى خمس ساعات.

اللون الوردى كانت تصبغ به غرف النوم.. وهـو عبـارة عـن الاحمـر الإنجليزى الغامق مخلوطاً بالأسبداج.. والبراندات والصالات يطغى عليهـا اللون الزرعى إلا أن أكثر الألوان شيوعان هو اللون الأصفر. ولاتزال أغلب منازل أمدرمان تحمل هذا اللون.

السر في ذلك هو أن النقاش كان يقنع صاحب الدار بأن اللون الأصفر مناسب لكل شيء ومريح للعين.. ولكن الحقيقة أنـه بـدل الاسـبداج الـذي

يساوى 60 قرشا يشترى النقاش «جير أمدرمان» والشوال سعة 8 كيلو جرامات أو 10 كيلو جرامات بستة قروش ونصف ويقوم بعطنه في الماء لمدة يوم كامل وبعد الهرس باليدين يصفى بالنمليه ويصاف إليه ربع رطل من الزرنيخ وهو لون أصفر قوى ويساوى عشرة قروش والنتيجة مضمونة ورائعة ويسمع النقاش كلمات الشكر و«تفطر على خير يا اسطى».

البو ماستيك كان مقصورا على المنازل الفاخرة .. لم اتعامل معه بل كنت أترك هذه للأسطوات الكبار وأنا كنت أعمل بدون أجر.

كثيرا ما نلاحظ في عيد رمضان أظافر بعض الرجال والشباب ملوثة بالطلاء خاصة ما عرف بالجملكة. وهي عبارة عن السيبيرتو «كحول» زائداً مسحوق الجملكة والزجاجة تساوى 20 قرش..ويستعمل في طلاء الطقاطيق وكراسى الديوان ويستعمل القطن في شكل كرات صغيرة في عملية الصبغ.. وقديما كان الاثاث الوحيد الموجود في الديوان هو كراسى الجلوس من الخشب وكنبة بسيطة.. ولها جميعاً مساند عبارة عن حشيات من القطن وتفرش الأرض بالرمل الأحمر.

ثم ظهرت الكراسى الدبابة وهي مغطاة بألواح الموسنايت وصار الأسبداج يضاف إلى الجملكة لكى يصير لونها أصفر زاهيا وبهذا تكتمل زينة المنزل في نهاية رمضان لإستقبال العيد.

الأطفال يقومون بكسر الحصالة في نهاية رمضان التي هى عبارة عن كوز صلصة أو علبة فروته بفتحه صغيرة ومثبته في الجدار . ونحاول أن توفر تعريفه كل يوم من قروش الفطور لكى يضاف هذا إلى العيدية التى يعطينا لها الكبار.

يبدأ أصحاب الطبالى في الأحياء في شراء لعب الأطفال و«البالونات» لبيعها للصغار ويبدأ العجلاتيه في اصلاح العجلات فالعيد لا يكتمل بدون استئجار عجلة.. ونصف الساعة كانت بقرشين للعجلة الصغيرة وثلاثة قروش للكبيرة.

الكبار كانوا يستأجرون العجلة لزيارة الأهل والتحرك ليوم كامل وتسمى «ليليه» وتساوى عشرين إلى خمسة وعشرين قرشاً .. وللأطفال عشرة إلى خمسة عشرة قرشا.. وهؤلاء يكونو محبوبين في ذلك اليو م لأن كل الصبية يجرون خلفهم «أدينى سحبه، ادينى سحبه».

المراجيح كانت تنصب في نهاية رمضان أمام الطاحونة في أم سويقو بالعباسية أو في ساحة الليق في العرضة المكان الذي بنى فيه استاد الهلال وهذه كانت مراجيح بسيطه تدار بالايدى.

المشاطات يمشطن في نهاية رمضان، ولأن المشاطة لا تريد أن تفقد مخصصاتها من سجاير واكراميات فقد يحدث المشاط في الليل.

الحلاقون يعملون إلى منتصف الليل في نهاية رمضان ولا يتوقف سيل الزبائن. ويستعين الخياطون بكثير من الصبية لعمل العرواى والزراير.. هذا قبل أن ينشئ جبورة أول مصنع في امدرمان للملابس الجاهزة وكان يفتح حتى في صبيحه العيد حتى يجد المتأخرون فرصة للشراء.

بما أن السمك والفسيخ من الأشياء التي يتجنب الناس اكلها في رمضان فلذا تصير مرغوبة ومكملة لأكل العيد وترتفع اثمانها كثيرا. وتمتلئ الساحة أمام محلات العم سبكى وبشير شقيق لاعب الكرة المحينه في الموردة في يوم العيد.

المرات الوحيدة التى لا يكـون السـمك فيهـا محمـراً في الـسـودان هـي عندما يحضر في الصينية المدفونة.. وهذا يحدث في عيد رمضان ، فيضاف قمـر الدين والزبيب إلى السمك والبصل والطماطم ويوضع في حفرة يفـرش فيهـا الجمر وتغطى بغطاء نحاس ثم يوضع الجمر على الغطاء. وبهذه الطريقة تصنع الكنافة كذلك ، التى كانت تنز بالسمن البلدى.. ، وكنا عنـدما نأكلهـا تمتلـئ أفواهنا بالفول المبشور والسكر المرشوش.

هل سنرى هذا مرة أخرى. فما أجمل نهاية رمضان قديما!!

الفصل السادس

أمدرمان والآخرون

-غرباء – آخر الفرسان

-جامعة توتي – نيتنياهو

غرباء

ونحن في مدرسة بيت الأمانة، ولا نزال من زغب الحواصل، عيرنا أحد الطلبة من الأقاليم يحمل شلوخا ويتحدث بلهجة أهل البادية: بأنه بدوى متخلف فلفت الأستاذ فؤاد التوم نظرنا إلى أن أغلب أهل أم درمان أن لم يكن كلهم، قد هاجروا إليها من مناطق مختلفة في السودان «كما سنعرف في دروس التاريخ عندما نصل إلى السنة الرابعة» المدن السودانية الآن مليئة بمهاجرين من أماكن بعيدة. واذكر شخصا أرسله أهله من الرباطاب في الخمسينيات لشراء «ساقية حديد» ولم يرجع إلى الآن، وصار من اعلام امدرمان.

قبل الاغتراب إلى دول البترول كان عندنا اغتراب داخل القطر، يضطر المهاجر أو المغترب في العادة أن يتعود على أكل غريب أو عادات مختلفة وقيم ومقاييس جديدة. وفي كثير من الأحيان لغة غير مفهومة أو جديدة. ولا أستطيع أن أقول بأن مجتمع المدينة كان متسامحا مع الغرباء. فالفلاتة كانوا يسكنون خارج المدن في احياء تعرف بالرديف لأنها ملاصقة للمدينة . وعشش فلاتة في الخرطوم خير مثال لذلك. والفلانه ومهاجرو غرب أفريقيا في طريقهم للحج يستقرون في السودان وقد قدموا الكثير للاقتصاد السوداني.

أشقاؤنا من جبال النوبة تخصصوا في الخدمة بالمنازل: البوليس، الجيش والبلديات. والجنوبيون «خاصة النوير» قد حملوا على أكتافهم مواد البناء «كطلب» وبنوا كل المدن الشمالية. الذي كان يدفع أولئك الغرباء هو ما يدفعنا الآن نحن المغتربين والمهاجرين الذي نعيش بعيدا عن حضن الوطن. وإذا كنا نظن بأن ظروفنا صعبة فلنتاكد بأن ظروف الآخرين كانت اسوأ من ظروفنا. وقد كانوا يحملون احلاما وتطلعات وتوقعات ككل البشر . وإن لم نفكر نحن في هذا . بل أن بعض ضعاف النفوس كان يتلذذ بمضايقتهم. ولا أظن أن جهاز القمع في الدولة ومؤسساتها بمختلف أنواعها كانت تعطيهم فرصا متكافئة.

في 1958 كنت اقضى الإجازة المدرسية على ظهر «القندرانيات» لان خالى اسماعيل خليل قد فاز بعطاء نقل لمواد بناء حامية أكوبو وتصليح كوبرى فشلا الذي تحطم في حوادث 1955.

في احدى الرحلات كان معنا على ظهر القندرات اثنان من النوير في مقتبل العمر، في طريقهما لأكوبو. وبعد رحلة القطار لكوستى ، استقلا الباخرة لأربعة أيام لملكال ومنها كان على ظهر القندران، الشيء المهم أنهما كان مختلفين في هندامهما وثقتهما بنفسيهما ، مثيرين حسد الآخرين، بالمال الوفير وشنط الحديد التى ترقد بثقة تحت أقدامهما. لقد قال أحدهما: سأشترى بقرا كثيرا، واشار إلى الشنطة قائلا « بلد كله اسى مستنى شنطه ده» وتذكرت شنط المغتربين وكيف يتلقفها الأهل بلهفة، في مطار الخرطوم الآن.

نحن كمغتربين أو مهاجرين نتواصل مع الأهل بالتلفون والفاكس

يوميا ونرسل الطرود مع الذين يسافرون إلى الوطن ونتلقى الرسائل والوصايا بانتظام. ولكن المسحوقين الذين كانوا يأتون من الأماكن النائية إلى العاصمة لم يكن يتوفر لهم في غربتهم مثل هذا.

موسى كودى عمل معنا خادما الجزء الأكبر من حياته كرجل اتى من جبال النوبة اعطانا عمره وخدمتا بتفان وأمانة واختفى في ضباب الدنيا عندما شاخ. رجع إلى الجبال حيث يبنى الناس مساكنهم وسط الغمام.

لاحظت في طوافى في السودان بان، هناك مهن خاصة لا يزاولها إلا الغرباء والمهاجرون وعادة غير المتزوجين منهم. أنها مهنة مهمة جداً في المجتمع ولكن صاحبها لا يحظى إلا بالاحتقار لسوء الحظ، ولها عدة أسماء، وفي سجلات الدولة تدون كعامل صحة.

وفي أعالى النيل عندما لا يمارسها السجناء المسخرون يمارسها غرباء من الاستوائية أو بحر الغزال وفي الاستوائية قد مارسها النازحون من أعالى النيل. وفي النيل الأزرق تخصص فيها من نزح من جنوب دارفور وكردفان وفي امدرمان مارس هذه المهنة اشقاؤنا من جبال النوبة. والمهنة تحتاج لقوة بدنية لأن الجردل قد يفوق وزنه الخمسين كيلو جراما. لقد تعرفت وصافحت بعض هؤلاء واذكر منهم كوكو وأربعة حمير ويوى يوى. والأخيران كانا من المصارعين في ميدان الربيع. كما كان «عبدالعزيز جهاز» يتهم في القهو ة بأنه يؤدى هذه المهنة. وكان يثور غاضبا . وعرف بجهاز لأنه كان يردد جملة «أبو اى جهاز» وكان دائما حسن الهندام. وأهل هذه المهنة يلبسون الجيد من الثياب في النهار، وعادة يكونون عاطلين بالنهار ، ومرتبها نسبيا كبير.

العميد بابكر يدرى سّخر لهذه المهنة عندما كان مسجونا في سجن الشلال بعد هزيمة ود النجومى ، ذكر هذا في تاريخ حياته.

خلال سفرى باللوارى في السودان هنالك جملة واحدة كانت تفتح جميع الأبواب. وعادة يستعملها الناس عندما لا تتوفر لديهم الاجرة وسمعناهم يقولون «وصلنا يا ولدى ربنا يرد غربتك » فالسائق عادة ما يكون بعيدا عن دياره لذا فإن قلبه يرق للقائل.

ذات ربيع قضيت عطلة نهاية الأسبوع مع أخى فيليب دينق وزوجته وأطفاله الرائعين وهو من دينكا رمبيك «اقار» كان معنا الاخ مارتن الذي بدأ مشوار الهجرة بالقطار من واو مباشرة إلى الإسكندرية كى يلتحق بكلية الزراعة.

وحكى لنا عن سائح المانى كاد أن يموت من الحر في القطار وبعد أسبوع استيقظ يائساً في الصباح وقال : «ألا تزال في السودان ؟!!»

مارتن كان يعمل زراعياً في جنوب استوكهولم وكان يقول «ماكان أحسن لي أقعد في بلد الدينكا. هناك بقر هنى برضو بقر» وعندما مررت بالبحيرات الضخمة في جنوب استو كهولم تأملت جمال الطبيعة وسمعت طائر الغرنوق محلقاً بصوته المميز. فتذكرت الثمانينات عندما قال لى المستر سورنه مدير الفولفو «أن هنالك شيئاً مشتركاً بين السويد والسودان ، أنه الغرنوق فهو يقضى الشتاء في مناطق النيل الأزرق في السودان ويرجع للسويد في الربيع » وتذكرت الوطن والاهل بأمدرمان وصديق الطفولة والشباب

والكهولة سيد الرجال بله الذي لا يزال صامداً في العباسيه واوقفت السيارة وقلت هذه القصيدة. متذكراً فيها شهر «أمشير» الذي يقترن بالشتاء عندنا. وفكرت في أولادى الذي صار عددهم يكون فريقين لكرة القدم وهم ما يسميه أهلنا في السودان «الجنا قيد الهوان» وتذكرت موتانا واحبابنا الذين واريناهم التراب في امدرمان وتمنيت أن يتحقق هذا بالنسبة لى كآخر أمنية:

غرنوق السما في أمشير بتبرى الحر

سلم على الفريق وأهلنا فوق امدر

وليدكم شاب في بلد الكفر

واطى الجمروراجى قوله كر

قالوا الجنا شبع وانفخر ، فشر

وحات امدر عسل الغربة مر

يا بله كيف أمسيت في ده العمر

يا سيد الرجال الما بنفزر

الماسكنى بس قيد الهوان

وفي العباسية قدلة وان طال الزمان

عرفت الطرب ضميتنى خير الحسان

لكن في الملازمين مازال الكيان

ابروف حليل العرضه وين بانت

في البقعة تعود الحاله كيف كانت

مكى ودارو المورده الما هانت

ودنوباوى كررى الرجال بانت

بيت المال طروه يانفس ما بتنسترى

حليل هاشمابنا، اميده مابتنقدرى

مسالمة وحى العرب يجاورو البكرى

بس اكان ضمنا الرقدة في ود شرفى

آخر الفرسان

البارحة سمعت خبر وفاة الصادق بدرى. وهو الابن الأكبر للقاضى أحمد بدرى أول قاضى سودانى المعروف «بعوج الدرب» لأنه كان مقصد الجميع من حكام وعوام.

الصادق من نسيج خاص جداً. وهو أحد الذين بنوا الوطن بايديهم . وقد قضى جل حياته في المشاريع الزراعية وعلى يده قامت أكبر المشاريع وله طاقة خيالية لاحتمال المشاق وشظف العيش. كما كانت لديه مقدرة على الاستمتاع بالدنيا وبكل ما هو جميل. فبعد شهور من شرب ماء الترع وأكل البنى كربو كان ينتقل بسهولة للأكل بالشوكة والسكين والانضباط الحضارى. كما عرف بالكرم والشجاعة والوقوف مع الحق والصراحة الشديدة.. لقد كان فارسا بحق.

أي مشروع أو عمل قام به الصادق كان ناجحا لأنه يقف فيه بنفسه وعلى كل صغيرة وكبيرة. عكس المديرين الآخرين فقد كان يخلق علاقة قوية مع العمال والمزارعين. والشيء المهم أنه كان عمليا. فما أن يبدأ المشروع حتى يقوم ببنا «الحله» قبل المكاتب والكمبو. لأنه كان يقول أن العامل يذهب إلى الحله عندما يقبض مرتبه في يوم الخميس ولا يرجع إلا يوم السبت للعمل،

الحلة عادة بعيدة من المشروع، لذلك كان يقول: لماذا لا نحضر الحلـه للعامـل ونضمن وجوده؟

الصادق قدم الكثير وخدم الوطن وفتح مناطق لم تكن تـسكنها سـوى الثعابين وأنشأ عمرانا سيظل واقفا لعدة أجيـال. كـما واجـه أخطـر المواقـف وفض منازعات الأرض وأرضى الخصوم. لأن الجميع كـانوا يعرفـون أمانتـه وأنه يقف فقط مع الحق، ولم يكن يتعصب لرأيه وكأخيه الدكتور سلمان بدرى كان يحظى باحترام أعدائه قبل أحبابه كما يحترم مواقف الآخرين وهذه إحدى تعاليم آل بدرى. لقد سمعت سلمان بدرى وهو الانصارى يقول: « في حقـل زاخر البلد دى ما في زول بيجبها زى الشيوعيين».

وعندما هجم ثلاثة من صعاليك المزارعين على الصادق بدري ركز لهم ولم يتوقف عن القتال إلى أن صرعته ضربة عكاز واغمى عليه.

وعندما هرعت قوة البوليس لنجدة المـدير، قـال الـصادق مـا فى زول يدخل بينى وبين المزارعين.

عند استلام مايو للسلطة . حاول رجال مايو اسـتمالة المـزارعين . وفي أحد الاحتفالات وقف أحد المتسلقين متحدثاً عن العهد الجديد. وهو يجهـل الصادق بدرى.. فقال: أن عهد الصادق بدرى والاستعماريين قد انتهى. فقال الصادق للوزير «قـوم رد عـلى الراجـل ده» وعنـدما لم يتحـرك الـوزير قـال الصادق الجملة التى صـارت مـثلا «تـرد عليـه ولا أرد عليـه أنـا؟» وذهـب

الصادق من فوره إلى المنصة وسأل المتكلم إذا كان يعرف الصادق بدرى؟ وعندما رد بنعم صفعة واشبعه ركلا. ولما احتج الوزير قال الصادق «ماقلنا ليك حأرد عليه.. أنا ردى على زى ده كدا».

وعندما عرضت مايو على الصادق منصب محافظ الجزيرة، كان ذلك بسبب خبرته وأمانته وحبه للوطن وتفانيه في خدمته مع اقتناع بعدم مناصرته للنظام ، وعندما هم الصادق بركوب السيارة مع النميرى وبعض الوزراء قال الصادق كعادة الأنصار«يا مهدى الله» فقنت الوزير استخفافاً أو للفت نظر نميرى للأمر فقال الصادق: «ما أنا انصارى في زول ما عارف انى انصارى وهو ذاته عارفنى انصارى واشار إلى النميرى ».

عندما أصيب الصادق بجلطة ، اصابه شلل وظن الكل أن الصادق لن يقدر على المشى بعدها. ولكن شجاعته وقوة عزيمته جعلته يتغلب على مرضه وعاش حياة زاخرة بالرغم من صعوبة المشى مع احدى يديه التى تعطلت. وهو في هذه الحال كان يذهب مشياً إلى قبة المهدى لقضاء جميع الأوقات. وعندما توقفنا لأخذه بسيارة عمنا محمد بدرى رفض إلا أن يواصل المشوار للقبة فقال له محمد بدرى

تاعب نفسك ليه ما تصلى في جامع جدك! قاصداً بذلك جامع بابكر بدرى بالقرب من منزل الصادق فقال محتدا «لأنه جدى ذاته كان بيصلى في القبه».

وواصل الصادق مشاويره للقبه ولكن امدرمان كانت قد تغيرت

فدهسته سيارة واصابته بكسر عطل حركته أكثر. إلا أنه واصل المشاوير إلى أن دهسته شاحنة واصابته بعدة كسور ألزمته الفراش.

عانى الصادق كثيراً في آخر أيامه.. وأخيراً مات فارس البوادى وقاهر الأحراش، تاركا الدنيا الزائله.. أنه أحد صناع الوطن الذين لم يجلسوا خلف المكاتب يحيكون المؤامرات ويعقدون الصفقات.. بل كان يبنى بيده بينما الآخرون يهدمون.

سمعت مرة الشفيع يذكر زواج الصادق في الأربعينات كأهم الأحداث التى عاشها في أمدرمان وكيف استمر الحفل سبع ليال متواصلة من الغناء والطرب وشارك فيه أغلب الفنانون وكل أوركسترا الأذاعة . وكان العازفون يذهبون إلى الأذاعة بالقرب من مدرسة بيت الأمانة لتقديم الفاصل الغنائى ويرجعون للحفل.

والذين لم يشاركوا في اليوم الأول يأتون في اليوم الثانى وهكذا بالتناوب وكانت الملابس تؤخذ منهم وتغسل وتكوى من حينها وتعاد إليهم وهم في مجلس طربهم. كما كان المنزل مفتوحا للجميع، وأغلب أهل امدرمان حضروا ذلك الحفل الذي صار يؤرخ به.

وبعد ثلاثين سنة بالتمام والكمال وفي نفس المنزل كان حفل زواج قاسم بدرى على كريمة الصادق آمنة الصادق ولأن الصادق رجل متميز فابنته تعرف باسم أبيها على عكس آل بدرى. وقد شارك أغلب فنانى حفل الاربعينات وعازفى الأربعينات في زفاف أمنه وقاسم وغنوا نفس الأغانى.

على ود برى كـان بلطجيـا وركيبـا في قهـوة مكـى. المجـاورة لجـورج مشرقى، صادفنى في الستينات وكان يقول لى «ود عمك الصادق ارجل راجل شفته في حياتى » وكان قد عمل معه سائقاً في النيل الأزرق.

في أحد المجالس سمعت من قال «انحنا في الحج وفى الطواف سـمعت زول بيصرخ بأعلى صوته يالله يالله أنا ذنوبى كتيرة أنا جاييك بذنوب أربعـين سنة، وعندما التفت كل الناس لمصدر الصوت كان المتكلم الـصادق بـدرى» وقلت: «مافى زول عنده الشجاعة دى غير الصادق بدرى».

كعب تمام يازمان!

بتشيل آخر الفرسان؟!

أبكنو يا نسوان

ليه الأسود حيران

لى صادق ما فى مكان

في زمن دلالة الإنسان

ما بكوع في الديوان

شغله الخلا وبنيان

يا أشجع الشجعان

جارك مابييت جيعان

جامعة توتي

الأخ العلامة ود الريح قال في احدى «سنداته» ، بأن كل زول يجب أن يسعى مسجلاً، ويسجل من الكبار الحياة السودانية قديما، حتى لا تضيع الحقائق لتعرف الأجيال القادمة شيئاً عن حياتنا الحاضرة.. وهى فكرة عظيمة تشبه الأح ود الريح.

عندما كنت مع الدكتور قاسم مخير في منزله بدبى . تطرقت إلى والده عميد كلية الصيدلة ابراهيم قاسم ووالدته مدينة بدرى والعميد يوسف بدرى وكل الكبار رحمهم الله. فضحك قاسم قائلاً «يا شوقى الكبار ديل دلوقت انحنا» وله الحق .. وتذكرت تجربة عذبة في توتى.

في الخمسينات كنا نذهب لتوتى في الأعياد . وفي بعض الأحيان في شهر رمضان لشراء الليمون. المعدية كانت تساوى تعريفة، بينما معدية شمبات التى تسير بالمحرك تساوى قرشا واحدا وهذه الأسعار لم تتغير حتى نهاية الستينات.

تحت اقدام كبرى النيل الأبيض هنالك جزيرة تعرف بود دكين.. وبين هذه الجزيرة وجزيرة توتى تكونت جزيرة هلالية الشكل صارت جد كبيرة في الخمسينات وامتدت لعدة كيلو مترات.

الجزر حسب قانون الأراضى منذ الدول النوبية تتبع للسواقى في الشاطئ المقابل لها أو الشاطئ الأقرب إذا وجدت سواقى على الجانبين.

السواقى ف يتوتى انتهت منذ زمن طويل وتكونت لجنه «للباجور» أو الطلمبة التى يدفع لها أهل توتى بالحوض أو الحبل. والحبال كانت، أما ثمانيه أو سباعية 7 أذرع أو 8 أذرع والذراع يساوى 58 سنتيمتراً.

للجزيرة الهلالية ذيل رملى طويل وغطته شجيرات «الطرفه» في الوسط والطرافه شجيرات دائمة الخضرة لها أوراق شبه إبرية وترتفع أعلى من قامة الرجل . وفي بعض الأماكن تنمو أعشاب «الشديدة» بكثافة وهي أعشاب قاسية لا تصلح لأكل الماشية الا أنها تساعد في تماسك التربه. رأس الجزيرة الشمالى كان مرتفعا تغطيه طبقة صلصاليه.

جزيرة ود دكين كانت تتبع لسواقى الفيتحاب لأنه لا توجد سواقى في الجانب المقابل في الخرطوم. فقط حديقة المقرن . الجزيرة الأخرى لم يكن لها اسم ، وعرف الجزء الجنوبى المنبسط منها بـ «الطرح» أو الارض المنبسطة. الرأس الطينى عرف باسماء بعض السواقى القديمة كالسارة وام كيعان.

كان من العادة أن نقضى أغلب الاجازة الصيفية عند الطابية ونزجى الوقت في السباحة وصيد السمك أمام الصهريج الذي صار انقاضا،•هذه المنطقة تعرف بالنمر لأن هنالك مبان صغيرة من الطوب الأحمر بثلاثة أضلاع لقياس منسوب النيل. في هذه المنطقة كان يتجمع خيرة سباحى منطقة

العباسية تحت، السروجية ، والهاشماب منهم : عبدالعظيم مهدى عبد الرحمن الذي صار مديراً للكلية الحربية ، وعبدالله ناصر بلال الذي صار مديراً لنادى القوات المسلحة، محمد عثمان ابراهيم شوقى وشقيه عبدالرحمن المعروف بأزرق، الكوتش النعيم فرج الله وآخرون.

وكنا عندما نعبر النيل سباحة كان التيار يدفعنا بالقرب من الخور الذي يفصل توتى عن شمبات ونعود سائرين على الاقدام لكى نبدأ رحلة العودة إلى أم درمان من الجزيرة الهلالية وقد نقضى بعض الوقت للاستجمام في الجزيرة .

وفي إحدى الأجازات المدرسية وأنا وقتها في السابعة عشر من عمرى اقترب منا المزارع الذي يزرع الرأس الطينى وحيانا ورحب بنا وطلب منى أن انبه على اصدقائى أن لا يفسدوا الزرع وأشار إلى ما بدا لناعشبة غريبة قائلا «ده ما تطوه لا تقلعوه ده دخن» وعندما رأى دهشتنا واصل قائلا «ده دخن جزاير ما بتأكل بس بنزرعه نعرش بيه البيوت والرواكيب» وكان ذلك أول درس في زراعة الجزر.

لم يأخذ الموضوع سوى مقابلة أخرى وصرت ومبارك لا نفترق ووقتها مبارك كان في الخامسة والثلاثين وأب لبنتين وثلاثة من الصبية وهم : ميرغنى، وصلاح وعمر ولقد قضيت معه سنتين ونصف كانت من أكثر سنى حياتى سعادة وحصلت على كثير من الخبرة وتعلمت دروسا لا تتاح في

المدرسة... وعلى راسها تعلمت احترام البشر الآخرين بما هم بشر ولاخلاقهم.

في نهاية العطلة المدرسية في يوليو فضلت أن لا أرجع إلى المدرسة لأكمال السنةالرابعة أما فكرة دخول الجامعة كانت غير عملية بالنسبة لى فقد وجدت الجامعة التى تناسبنى . أنها جامعة مبارك بسطاوى والآخرين في توتى ولا اندم على شيء سوى أن اتصالنا قد انقطع وأنا المذنب.

بعد الفيضان ينخفض النيل في فترة الدرت أو الحر الشديد الذي يفسح المحال من بعده للشتاء. والجزر أول ما يظهر بعد الفيضان. ويقوم الناس بحش القش أو السعدة التى تباع كعلف للبهائم ولذا ينخفض سعر البرسيم في هذه الفترة من 20-25 قرشا إلى 15 قرشاً للرأس. والحصان يحتاج لرأس من البرسيم اليوم الواحد على الاقل زيادة على بعض الحبوب أو العلف.

الزراعة في المناطق الرملية تنحصر في البطيخ والعجوز ، والشمام والكوسه . وفي الطرح كان هنالك عدة مزارعين منهم خوجلى هارون رجلان شرف العملاق المعروف بحريقة ولونه يميل إلى البياض يهب لنصرة الضعيف، وكريماً بماله وهو شقيق زوجة الرجل الفيلسوف ومدرس الفنون في مدارس الأحفاد الأستاذ سيد أحمد المعروف بغاندى، وقد حدث أن خضت مشاجرة خلف شرف في سوق الخضار. وعندما يحتاج أحد المرضى

من أهل توتى لمتبرعين بالدم كان شرف أول المتبرعين. وفي المرات التى تبرعت فيها بدم لناس لا أعرفهم كنت أفكر في شرف حريقة. المؤلم أن كثيراً من سكان الخرطوم عادة ينظرون إلى أهل توتى كبشر متخلفين يركبون الحمير ويزرعون البرسيم والجرجير وأغلب سكان الخرطوم لم يضعوا أقدامهم في توتى.

في الجزيرة كان الجميع يبنون أكواخا لتقيهم برد ديسمبر ويناير وفبراير وحر الصيف ولكن عشة مبارك بسطاوى كانت عبارة عن صالون ضخم واذكر أنه في سنة 1964. تكدست فيها في وقت واحد حوالى الثلاثين شخصاً من كل انحاء أم درمان بعضهم من العازفين والبعض الآخر من الفنانين الهواة. وكانت رحلة ممتعة ما أزال اذكر وجوه أولئك الأصحاب حتى الذين غيبهم الموت. واثنان منهم قد ماتا مقتولين رحمهما الله. كنا نزرع الطماطم لأن زراعتها سهلة بعد الفيضان في أيام البرد ولذا يصيرالطماطم رخيصاً في الشتاء وقد ينخفض سعر القيراونه «أو الصفيحة 4 جالون» إلى ريال أو عشرة قروش . ومن الخضروات التى كنا نزرعها: الأسود والباميه وهذه تستمر في الانتاج إلى أن يغطيها النيل. كنا نزرع البطيخ والشمام والسلج وهو خضار لم يكن معروفا وقتها وهو نوع من السبانخ أو الورق وله بذور تنمو في شكل أصابع رفيعه كالفاصوليا، لا نقطفها إلا بعد ثلاثة أسابيع من القطفة الأولى. الاسود كنا نقطفه مرة في الأسبوع أما البامية فيمكن قطفها ثلاث مرات في الأسبوع وقفة البامية تباع بحوالى 40 قرشاً للحجم الصغير أما البامية

الكبيرة «فرك» فتساوى 35 قرشاً وتباع بالكوم بسعر القطاعى والكوم بقرشين أو ثلاثة قروش حسب حالة السوق مما يجعل سعر القفه جنيه أو حوالى ثلاثة أضعاف سعرها من المزارع.

ما إن تجف الأرض الطينية وتبدأ في التشقق حتى يصير من اللازم تركيب الشادوق أو «النبرو» وهذه عملية قاسية لا يقدر عليها الا المتمرسون من الرجال والعملية الوحيدة التى هي أصعب من النبرو هي الرى بالجوز. عبارة عن صفيحتين تحملان على الاكتاف بحامل خشبى.

وعندما كنت أعمل حمّالا في ميناء مالمو كنت اعتبر نفسى قادراً على أداء العمل بسهولة فأنا من خريجى جامعة توتى وهنالك تعلمت الصبر على العمل الشاق وكثيراً ما عملت في الميناء لفترة 18 ساعة متواصلة كما عملت في أحد الأيام 24 ساعة متواصلة.

بالقرب من مقاة حريقة كان لمبارك مقاة في الطرح والمقاة ولاتحتاج لكثير من العمل بعد أن ينموالبطيخ فقط المراقبة والعناية. في بعض الأحيان عندما تشترى بطيخا تجد بعض العلامات المرسومة على البطيخ في شكل دوائر مثلثات أو صليب... الخ، هذه العلامات كنا نضعها كشهادة ميلاد للبطيخة لتحديد وقت ولادتها ، نموها.. الخ. عرق البطيخ الذي يعرف بـ «الشلح» يرقد منجها نحو الغرب لكى يتعرض لشمس الظهيرة والنهار.. البطيخة الأولى في الشلح تعرف بالحجرية وهذه احلى البطيخ أو الشمام وكلما

بعدت عن رأس الشلح كلما قلت الحلاوه والحجرى يأكله المزارع ولا يبيعه .

البطيخ الأخضر العادى يسمونه الملك أو الملك فاروق لان التقاوى اتت للسودان من مصر في سنة جلوس الملك فاروق على العرش. والنوع المخطط المستطيل عرف بأبو العلا لأن آل ابو العلا اتوا بتقاويها ويعرفه المشترون بالروثيان لطوله والنوع المخطط المستدير عرف بـ «البطرسى» كنا نزرع كل الأنواع زائدا العجوز الذي كنا نزرعه في اسوأ المناطق لأن عائده قليل.

الكوسة أو ما يسميه أهل توتى بـ «كورا جيجه » بالجيم المعطشة فتزرع في نهاية الموسم عندما ينخفض النيل جداً وتظهر بعض الأراضى المنخفضة وكنا نحفر ما يعرف بالكونيه إلى عمق نصف رجل بـ «المسحه» والمسحه طورية عريضة جداً أقرب إلى الكوريك ويوضع «الماروق» في قاعها ثم توضع البذور بعد ردمها. ومن العادة أن يلتهم النيل هذه المقاة في الأول.

قديماً كان يقال لمن يسىء التصرف «ما عندك ذوق يا حمار الماروق» والماروق كنا نجمعه من المنازل في توتى فليس هنالك «بيوت ادب» محفورة كما هو الحال في امدرمان ولكن غرفة في المنزل مكشوفة بلا عرش. وتجمع الفضلات بعد أن تجف في ركن وكنا نذهب لاحضارها وعادة من منازل الموظفين لأن المزراعين يحتاجون لفضلائتهم واذكر أن المنطقة تسمى «الشكرتاب» وهم أكبر فخذ أو عائلة في توتى.

اذكر أن مبارك كان يراقب رجلا ضخم الجسم في المعدية. والرجل يمد يده إلى سلال الجرجير ويلتقط ربطه كاملة ويلقى بها في فمه مرة واحدة ثم يعيد الكرة والجرجير يربط في حزم صغيرة معدة للسلطة ويساوى تعريفه للربطة.

وعندما لم يتوقف مبارك عن التحديق في الرجل بإعجاب ، سألته فقال: «والله ده فيهو سماحة ماروق».

في بعض الأحيان يلاقى المرء شخصاً ويحس بأنه قد وجد أخا له من اللحظة الأولى هكذا كان احساسى، عندما التقيت مبارك بسطاوى، الشيء الغريب أنه تقبلنى ببساطة كأنه كان ينتظرنى ولم يوجه لى أي سؤال عن أهلى ومن أنا ولماذا اتواجد معه وماعملى وتقبلنى الآخرون كذلك، ولتواجد الحواته في المنطقة باستمرار فلقد التصقت بهم وكدت أن أكون واحداً منهم وأهلنى ذلك للاختلاط بالنواتة في المشرع.

الشرء الجميل في ذلك المجتمع أن الجميع شبه عراة طيلة اليوم فالملابس لا تتعدى السروال أو الشمارة. ولاشيء يميز الفرد منهم من مثل : الساعة، ربطة العنق الحذاء النظارة .... الخ فقط عطاء الرجل ومواقفه.

بالرغم من الظروف القاسية كانوا يتمتعون بشخصيات متفردة، واعتداد بالنفس تلك لعمرى حالة الرجل الذي لا يقيده مخدم ويتمتع بحرية مطلقة يدفع ثمنها من اعصابه فالنهر يجدد رزقهم كما أن الحظ يلعب دوراً كبيراً في حياتهم .. ولكن الحرية تعنى لهم كل شيء.

مبارك والآخرون عاشوا أحراراً كالطير في السماء بالرغم من أن أرزاقهم كانت في رحم الغيب... الريس ميرغنى والعم الغول وقرض الجواته، وشرف حريقة يصنعون الوطن، بعيدا عن الصالونات وتفاهة وسفسطة الآخرين . فالمدرجات والبروفسيرات مهما اجتمع فيها من الكمال . فإنها لا يمكن أن تعلم النيل والإباء والنقاء الذي هو مكمل لهؤلاء الرجال.. مبارك من المفروض أن يكون قد أكمل السبعين اليوم... له عظيم التحية والاحترام فهو لاشك استاذى في هذا الدنيا.

لقد حاولت أن أصور حياة الحواتة والنواتة في رواية صدرت قبل ثلاثة عقود ولا أظننى قد نجحت.

كانت لنا طراحة. وهي الشبكة المخروطية التى تطرح لصيد السمك وعلى أطرافها تربط أثقال من رصاص يصعب الحصول عليها ، وفي أحد الأيام بعد الرجوع من السوق وبيع الخضار. كانت الريح تذرو الشبكة لأن الأثقال قد اختفت ولا كثر من شهر كان الصيادون يتوقفون للتحية وابداء اسفهم لما حدث وكانوا يؤكدوا بأنهم لم يأخذو رصاصنا فتلك في عرفهم جريمة لا تغتفر.

الكوارة هي الاسماك الصغيرة ذات الذيل الأحمر ويصنع منها الفسيخ. والكأس أكبر قليلاً وله أسنان مرعبة، الترزه وخشم البنات متشابهان في الشكل إلا أن فم الترزه ليس طويلا أو معوجا كخشم البنات وفتحته تكاد أن

تكون سنتيمترا واحدا. والنوعان لا يتواجدان بكميات كبيرة . كما أنه لا يمكن تمليح الأسماك التى بدون القشور كالبياض والقرموط والشلبى ... الخ وبعض الأسماك التى تكون ذات القشور لا تملح كالبتكويه ، البلطى البنية ، والنوق. النوق في الحقيقة لا يتواجد بكميات إلا جنوب الخزان ولحمه غير جيد يميل إلى الصفار يستعمل عادة في سمك السندويتشات وكذلك التامبيرة التى تنتفخ و«البرد» يستطيع أن يعطى صدمات كهربائية.

لصيد الكواره يستعمل الصيادون شباكا طويلة بمئات الامتار تسحب بواسطة قارب مصنوع من خشب الحراز الخفيف ومزود بأربعة مجاديف خفيفة تسمى «الرشاش».

الصريمة هي خيط سميك بمئات الصنارات أولها ضخم يعرف بنمرة 4 أو صنارات شك وتشك فيها أسماك القرموط الصغيرة الحية لصيد أسماك العجل أو الكبروس وتلقى في وسط النهر وتربط في الشاطئ وتسحب في الصباح بعد قضاء الليل في الماء . ولقد اضطر الحواته في احدى المرات لسحب صريمتنا في الصباح لأنها كانت ستعيق شباك الكوارة إلا أنهم تركوا لنا أسماكنا وفيها اثنان من اسماك الكبروس الضخمة وهي أغلى ثمنا من أسماك العجل. الكبروس هو صورة طبق الأصل من البياض إل أن له شوارب ولحية وسنام ضخم ويقول الحواته انه ذكر البياض.

في أيام الدميرة كان مبارك وكثير من أهل توتى يمرون بفترة ركود

وكنت أنا اقضى الوقت في مقاهى امدرمان استمع إلى الكبار واسـامر النواتـه وما أن ينخفض الماء حتى أهرع إلى توتى.

في سنة 1963 كان مبارك محتارا فقد كان هنالك اثر لتمساح على الطين اللزج بل كان يبدو أنالتمساح قد عانى قبل أن يخلص نفسه من الطين ولم يرض مبارك أن يخاطر فذهبنا بحثا عن العم الغول شيخ الصيادين إلا أنه كان في جبل الأولياء فحضر في اليوم التالى تاركا عمله وقام بالكشف عن الاثر وشجيرات الطرفه وطمأننا بأنه «فرخ تمساح صغير» يقتات بالأسماك ولم يستقر بالجزيرة وأنه وحيد وضهبان.

عرفنى الصيادون «بالزول النضف الكواره» فمن العادة أن أحضر معى طعاما من أم درمان إلا أننا كنا نعيش على شوربة القرقور والسمك المشوى. وفي بعض الأحيان اتفنن في تحمير البصلة واضافة الصلصلة لحلة السمك وعندما عزمنا بعض الصيادين اردت أن أخرج أمعاء الكواره ونزع قشورها فضحكوا بمرح لأنهم يطبخون الكواره دون حاجة إلى تنظيفها ويأكلونها مع العصيدة. إلا أنهم كانوا يحبون طبخى أبو صلصة وبعد الحياة مع الحواته ليس هنالك طعام لا أستطيع أن آكله كما يمكنني النوم على أي سطح ناعم أو خشن وفي بعض الأحيان جالسا القرفصاء . كان من العادة أن أعوم بالصريمة في المغرب ولها حجر يساوى عدة كيلو جرامات وكان الجميع يتطيرون من نزولى إلى النهر في منطقة «الشيمه» أي الدوامات خاصةعند مغيب الشمس. وصائدوا الأسماك أكثر الناس تطيرا . وقد يحسبون كل

الصنارات في الصريمة عدة مرات للتأكد من أن العدد فردى وليس زوجياً.

أفتى كبار الصيادين بأن الصريمة قد تلتف حولى أو تتعلق الخطاطيف الكبيرة بجسمى أو يدفعنى التيار إلى منطقة الشباك المثبته. وهنالك نوعان: النوع الذي يثبت في القاع ويكون تحت الماء بصخور ضخمة ويعرف بـ «أم كبك» و«دق فوق» وهو أصغر شيئا ما ويطفو بواسطة الجوالين، الفلين والطرور. كان الصيادون يؤكدون بأن التمساح يمكن أن يغرق إذا وقع فيها. قررت مرة مع مبارك أن نشترك سويا في شراء طوف من الطرور، عرفنا أنه معروضا للبيع في زريبة ام درمان بسعر مجزٍ ثلاثة جنيهات.

فملأنا مقطفين بثمار السلج وقمنا ببيعه في سوق أم درمان بـ 180 قرشا بالرغم من أن أول دلال قابلنا خارج السوق عرض علينا جنيهين ووافق مبارك إلا أننى رفضت قائلا « إذا ده وش السوق.. جوه حنلقى أكثر» وعندما ابديت فيها بعد ألما وندماً قال لى مبارك « أوعك تندم على حاجة وما تفكر في الوراك، عاين كل الوقت لقدام».

من السوق ذهبنا من فورنا لزريبة الحطب وما أن رأى صاحب الطوف بنطلونى الذي أحضرته لي والدتى من لندن والقميص الأمريكانى، حتى رفع السعر إلى ثلاثة جنيهات ونصف. ولحسن الحظ كان رباطابيا وبعد أن تأكد من شجرة عائلتى دفعنا 280 قرشاً واعطانا حزمة إضافية من الطرور لإصلاح الطوف والحقيقة أن الطوف كان كبيراً جداً وصنعت له «قطافه» -

مجداف صغير – بمقبض من شجيرات الطرفه، وبدأ وكـأن كـل متطلبـاتي في الدنيا قد صارت متوفرة.

ونحن صغارا كان عمر العملاق هو ريس توتى وكنا نقول عن اقتنـاع أنه إذا غرق المركب فإن عمر يستطيع أن ينقذ كل الناس، وبعدها جاء ميرغنى الريس وهو مشلخ شايقى وأهله من ودرآوه.. كان هادئاً بشوشا وعـلى يـده تعلمت تشغيل المعدية . العم بسطاوى كان صاحب العطاء السنوى لتـشغيل معدية أم درمان ومعديتين صـغيرتين لنقـل العـمال والمـوظفين إلى الخرطـوم بحرى وكنا نسخر من الريسين اللذين يديران معـديات بحـرى لأن المجـرى ضيق وليس بالعمق الكافى وكل العمل يتم بالمـدراة فقـط إلى أن ذهبـت مـع مبارك وجرّبت ذلك العمل لعدة أيام وتأكدت بأن العمل بالمدراة ليس سهلاً وهم كذلك كانوا يسخرون منا قـائلين «شـغلكم ده شـغل؟ مـا بـس قـماش بتطووه وتفـروه في شـنو تـانى ؟» وتعلمـت هنـا أن لا أسـتخف بمـشاكل الآخرين.

العمل بالشراع سهل جداً عندما يكون الريح «مصرى» من الشمال إلى الجنوب خاصة بعد أيام أمشير والـبرد، في أيـام «برمهـات» . ولكـن عنـدما يكون الريح «عبادى» فلا يمكن استخدام الشراع ونقوم بسحب المركب مـن الموردة إلى «بر أبو البتول» الفكى الراقد بالقرب مـن مجلـس الـشعب وتمـتلى المعديـة بالـدواب، والـسلال وعـشرات البـشر خاصـة في منتـصف النهـار والصباح الباكر ونلقم النهر المجاديف بقـوة حتـى تنقـصم ظهورنـا لكـى لا يجرفنا التيار بعيدا عن المشرع .

الحبل الذي يجر به المركب يسمى «اللبان» ولا أدرى لماذا في هولنده يسحبون السفن في القنوات بواسطة الخيول. وكلما أشاهدها اتذكر حالنا في توتى.

في تلك الفترة القصيرة تعرفت بالكثير من أهل توتى أحدهم أبو دبوره وهو شخصية فذة وتربطه بأهل الموردة صداقات جيدة ويبيع خضار عادة في سوق الموردة ويردد عادة عندما يسأل عن حاله « الحمد لله بس القير ماكل راسنا » والقير هو البرد ويقصد برد المعدية والبنطون في الفجر.

دعوت لمنزلنا بعض الأصحاب من توتى لمأدبة أفطار في يوم جمعة فبالغت والدتى في التحضيرات واخرجت الشوك والسكاكين والأوانى الفضية التى كان ابراهيم بدى يستعملها لدعوة الحاكم العام وكبار الضيوف ولبس موسى كودى الزي الرسمى للقيام بالخدمة. ولم يقل مبارك شيئا ولكن الحاج الرجل المرح قال : « أنت يازول أكان كل يوم عندك الصفرة دى الجابرك شنو على الشقاوة ؟ وتانى أكان عزمتنا حديدكم ده ما تجيبو يشلغنا ساكت».

هنالك فكرة خاطئة عند الكثيرين بأن أهل توتى لا يرحبون بالغريب والعكس هو الصحيح . ولكن يجب أن نفهم أن المزارع العادى مثل مبارك يكدح بصورة فظيعة وينام لشهور في الجزيرة بعيداً عن أهله وليس هنالك أي ضمان أن يكسب قوته في السنة القادمة. فمن الممكن أن تختفى الأرض ويأتى

ابن المدينة ويخرب الزرع بكل بساطة وهنالك فترة «الـدميرة» الفيـضان التـى تتعطل فيها أعمال المزارع ويتساقط كل الليمـون في أيـام الخريـف ممـا يجعـل سعره بخسا ويبحث البشر عن أعمال أخـرى ولقـد حـاول مبارك أن يعمـل كجناينى في منزل أحد جنرالات الجيش وترك العمل بسبب زوجـة الجنـرال فبجانب قصارى الورد حاولت الزوجة أن تجعله يعتنـى «بقـصارى» أخـرى فأكل العيش ليس كل شيء بالنسبة لأمثاله.

عملية تحديد الحدود كل سنة كانـت تأخـذ وقـت طـويلا وتحتـاج إلى «قنايـات» طويلـة جداًتوضـع في عـدة نقـاط لكـى تكـون في خـط مـستقيم والاختلاف قد يكون بالقيراط وكل ذلـك نـابع عـن حـب فطـرى لـلأرض وماتعنى. مبارك كان ينظر إلى ملابسى ضاحك. وعنـدما يـسألنى عـن ثمـن بنطلون الصوف ويعرف أن ثمنه 6 جنيهات كان يقول سـاخراً «تـربط ليـك دلقان بآ 6 جنيهات ده أكل أولادى الشهر كله».

قررنا أن نبيع البطيخ في العيد للمتنزهيين في حديقة المقرن وأن نواصل البيع إلى حديقة الحيـوان فاسـتعنت بـصديقى عـثمان نـاصر الميكـانيكى مـن المورده، وبعنا مركبا كاملا من البطيخ في حديقة المقرن فقط. دون حاجـة لأن نذهب إلى حديقة الحيوان. وشاهدنا بعض النساء الأوربيات يسقن كلبـا مـن نوع البودل ولم يقتنع مابرك بأن ذلك المخلوق كلباً، الا بعد جهد.. تلك كانت أول مرة نشاهد فيها نساء يرتدين البنطلونات الضيقة ولم يكن هذا شيئا عاديا في الستينيات.

وعندما قلت لمبارك إن ذلك الكلب يذهب إلى الطبيب والحلاق بانتظام وله أكله الخاص سألني عن سعره فقلت أنه قد يصل إلى مائة جنيه وأنه قد احضر بالطائرة فصفق مبارك مستعجباً . أن هذا هو ما يعيش عليه وهو وعائلته لمدة سنة كاملة.

المركب تحصلنا عليه بعد أن فقد مبارك الطوف وأنا في أعالي النيل. وعندما رأي حيرتي وشعر بغضبي قال مازحا " ليك علي نشتري سرتق ناجح" وكلمة ناجح يصف بها مبارك أي شئ جيد فيقول «حمار ناجح، أكله ناجحه ، ريح ناجح» وعندما نصيد صيدا وافرا أو تكون اللقطة ناجحة ، يقول مبارك «نعمل عصيدة ناجحة» ومن العادة أن نحتفل بعصيدة الدخن وسعر الملوة كان يساوى خمسة قروش ورطلا من زيت السمسم الصافى ويساوى 7.5 قرشا لأن زيت البذرة يساوى 6 أو 6.5 قرشا ورطل السكر يساوى سبعة قروش في نهاية حكم عبود بعد أن كان يساوى أربعة قروش في بداية الاستقلال.

وما أن ينتهى مبارك من الاكل، حتى يسقط نائما لمدة قصيرة ، حتى إذا كان ذلك في وسط النهار، ونحن جلوسا نعمل في الشمس. لقد كنت أخاف عليه عندما يقود المعدية ليس فقط من السقوط في الماء فهنالك مخاطر أخرى. فقد أصاب حبل الراجع الذي يشد مؤخرة الشراع أحد سكان توتى في عينه عندما حرك الريح الشراع بقوة والراجع غير مربوط فقد الرجل عينه وحكى الذين شاهدوا الحادث كيف سقط المصاب يتلوى من الألم في قاع المركب.

السرتق كان من خشب الحراز وزودناه بشراع أبيض نظيف وعندما ذهبت إلى أوروبا، كان مبارك لا يزال يستعمل السرتق وعندما ودعنى لم يزد على أن ردد النصيحة الوحيدة التى كان يوجها إلى «بس يا شوقى أكان خليت عوّتك دى» أشارة منه لحدة طبعى. فأصبحت كلما انفجر غاضبا أتذكر نصيحة مبارك وأتمالك نفسى. ومن دروسه كان عدم التدخل في شئون الآخرين ولم يكن يسأل كثيرا واظنه قد ارتاح لى لأننى لم أسأله كثيرا عن شئونه إلى أن افترقنا. لم اسأله عن أذنه اليسرى التى لم تكن موجودة.

أولئك الرجال أعطونى أشياء لا تقاس بالمال : صداقة صافية وقلوب نظيفة وحب للعمل وتقبل للمصائب والصدق.

فكرت في شراء «مئة» من الليمون لتوزيعه على الأهل والمعارف في امدرمان، سالت الحاج لأنه على عكس مبارك صاحب جنينه فحدد السعر بأربعين قرشا فأعطيته المبلغ وترك الحاج الليمون في المشرع ولكن بعد يوم عرفت أن الحاج يريدنى لأمر هام فذهبت ابحث عنه وجدته ف الطرفه جنوبى توتى الجزء المقابل للقصر الجمهورى وهذه المنطقة يزرعها الشيخ حميده. الحاج كان يريد ن يرجع لى خمسة قروش لأن السعر كان قد نزل في ذلك اليوم ، بالنسبة لى كان الأمر غير مهم ولا يستحق المشوار. ولكن للحاج ولأمثاله كان الأمر مصيرياً فهو لا يريد أن ينام «وحق الناس في بطنه.. الدنيا ما معروفه».

اذكر أن مبارك نجح في تغيير حماره القمئ بآخر عال وتبدو عليه القوة ، إلا أن كرشه انتفخت وصار امتطاؤه غير مريح للساقين. ورفض مبارك أن يبيعه قبل أن يشفيه خوفا من أن يموت مباشرة بعد البيع. وكان يقول : أنه لا يريد أن يبتلى شخص آحر ببليته.. وهذا درس في الأمانة.

اقترح علينا البعض أن نعطِّس رأس الحمار تحت الماء لمدة تكفى ليتخلص الحمار من كل الغازات. وكان مبارك، يمسك برأس الحمار بينما كنت أنا اضغط على جسمه فقام الحمار بعض مبارك ورأيت وجهه يتغير إلا أنه لم يصرخ. لم تنجح الفكرة فاقترح علينا آخرون بأن نطعم الحمار الحنظل للتخلص من الديدان والطفيليات التى ملئت بطنه. وبعد جهد تحصلنا على الحنظل وشفى الحمار وصار سريع الحركة.

في المشرع تعرفت بالعم بدوى عم مبارك وشقيق العم بسطاوى وكان يخطو نحو الشيخوخة إلا أنه نشط الحركة ويميل إلى النحافة يتمتع بشخصية كاريزمية طاغية . يقابله الناس باحترام فهو أحد أبطال توتى. عرفت أنه في شبابه ، قبض على رجل له سُمعة أسطورية في الحرامية أظن أن أسمه الصوفى من «حلب» امدرمان تخصص في سرقة الأغنام والضأن من توتى. كان قويا سريعا في الجرى يتسلح فقط بالحجارة التى لا تخطئ ولكم شج حج رأس الكثيرين . يأتى في الليل بمركب يخفيه جيداً ويحمل الأغنام والضأن حتى كادت توتى أن تخلو منها فتربص به العم بدوى وقبض عليه ووضع السرج على ظهره وركبه كالحمار وألبسه «الحقو» التى تربط في وسط العروس واجبره

على الرقص على ايقاع الدلوكه ومن يومها ارتاحت توتى من شره. وكان ذلك درسا آخر في الشجاعة، العم بدوى كان في شبابه يركب بغلا لتنقلاته ولحمل الخضار.

عندما صار العمل شاقا والمركب يستعمل في نقل مواد البناء من امدرمان اضطر ميرغنى للاستعانة بأحد بلدياته وهو شاب قوى البنية مؤدب اسمه أحمد فبالرغم من أن توتى مليئة بالرمل، إلا أنه لا يصلح للبناء، وأهل توتى يستوردون الرمل من امدرمان وتستورد امدرمان الطوب من توتى. وكنت أرى أحمد يعمل في وسط النهار حتى يتصبب جسمه عرقا والابتسامة لا تفارق شفتيه. وعندما يخلص من نقل الرمل يعيد «قلفطة» المركب لأن الخرق التى تسد الفتحات بين الألواح تتأثر بالكوريك والصفيحة.

لقد كنت أقوم بهذا العمل . ولكن هنالك فرق بين أن تؤدى هذا العمل كنوع من التجربة وأن تؤديه كعمل ثابت لبقية حياتك .

الريس ميرغنى كان ينادينى قبل الدور الأخير للذهاب لأمدرمان. ولكن عندما يكون هنالك ما يستدعى تأخرى كنت اصرفه وارجع عائما لأمدرمان في الليل بالرغم من احتجاج مبارك . ولكن حريقه كان يرفض أن أرجع عائماً ويخيرنى بين المبيت أو البنطون عن طريق الخرطوم. وحريقه كان يغضب لاستهتارى وعدم احترامى للنهر. وكان يقول «انت من شدة رأسك ما قوى جنازتك ماتطلع في الجيلى تمشى لا ود الحبش» . وكان اهتمامهم بى صادقا وعن حب أخوى.

شرف حريقه وجد رجلا مربوطا في الشمس على «شاية » الحمار. وفي المناطق الرملية لأنه لا يمكن دق وتد فيها . فإنهم يدفنون جردلا أو بستلة قديمة لتستخدم كمربط للحمار.

السبب الذي من أجله ربط ذلك المسكين ، أن الرجل قطع غجورة «تيراب» فأطلق شرف سراح الرجل وقال «ده لا بيعرف تيراب ولا تراب».

العجورة التى تكون طويلة رفيعة ومستقيمة لا تقطع إلى أن يصير طولها يقارب المتر ويتغير لونها للأصفر وتنشر بذورها في الشمس لتجف وتباع بـ 25 قرشا للأوقية والعجورة تعطى عادة 3-4 أوقات. وكل المقاة قد لا تعطى عجورة تيراب واحدة.

شرف كان يقول كل الوقت «ربنا البقوم الزرع لو زول نفسه دخلت في حاجة يأكل بس ما يشيل ويبقى طماع لأنه هو مازرع الخدار».. وهذا شعار أهل توتى بالرغم من ظروفهم القاسية.

الرمال في مشرع توتى تتحرك باستمرار مما يحدث حفراً عميقة في الأرض الضحلة. وبينما أحمد يحمل جوالا من السكر والجوال يزن 225 رطلا يسقط في احدى تلك الكونيات «الحفر» والجوال يساوى13 جنيها وهذا أكثر من مرتب أحمد ورغم ذلك صاحب السكر لا يغضب.. وتعلمت درسا في الثبات.

فى المعدية كنت استمع لأحاديث أهل توتى وأعجب لإرتباطهم

واهتمامهم بمشاكل الآخرين . سألت مرة عبدالواحد شقيق الحاج إذا كان يعرف كل شيء يحدث في توتى ؟ فقال «أكان بت صغيرة طعنتها شوكة بنعرفها».

كانت هنالك لجنة في توتى للزواج من الكبار وحددت اللجنة المهر بثلاثين جنيها ولا يسمح بأن يزيد تكاليف الفرح عن ذلك . ويتم تحديد عدد المدعوين وما يصرف في الحفل. حتى لا يتضرر الذين تكون أمكانياتهم محدودة، وحتى لا يعزف الشباب عن الزواج وكل هذا ليس غريبا ولكن الغريب أن الجميع كانوا يلتزمون بهذا ولايقدر شخص أن يقول « أنا أعمل العاوزه» أو «ما فى زول يتدخل في حياتى» كما لا يحق للعريس بعد العرس أن يستضيف أكثر من 5 أشخاص لعدة شهور وهنالك لجنة تكبس عليه للتفتيش وهذا الدرس في الانضباط والتضامن والبعد عن المظاهر يحتاجه السودانيون اليوم، خاصة المغتربين.

بمناسبة الشايه.. عندما ودعنى مبارك في يوم الخميس 17 سبتمبر 1964 قال لى «يا شوقى ما تنسى أهلك، الحوته في البحر عندها شايه مربط بتلف وترجع» ولهذه النصيحة أو الدرس، لم أنسهم . إلا أننى ألوم نفسى لأنى لم اتصل بمبارك لأكمال المشوار. لكننى كاتبته من اليونان ومن يوغوسلافيا ثم براغ وتلقيت رسالة واحدة من مختار بسطاوى شقيقه الذي يعمل في البوسته وتوقفت خطابات توتى بالرغم من أننى كتبت كثيرا فلم يحدث أن سألت مبارك ما إذا كان يعرف القراء والكتابة.

الموج فاتِ الدير هكذا يقول النواته اشارة إلى أن الأمر قد فـات حـده، والدير هو حافة المركب . في أول أيام الدميرة «الفيـضان» . ألم بالمركـب ريـح قوى في شكل اعصاره وكلما ارتفعت المعدية وهبطت فات المـوج الـدير. وفي كل مرة «ينتر» الريح الشراع ويكاد المرسيم - وهو الحبل الطويل الذي يـربط حبل الشراع مع الكونيه - أن ينقطع فقال الريس ميرغنى «موت يا شوقى مع المرسيم» فلففت ساقى حول «الكونيه» احدى الألواح التى تقسم المركب إلى عنابر، وقبضت على المرسيم بيدى الاثنتين، مما أعطى الحبل نوعا من المطاطية.

لسوء الحظ كان هنالك بعض النسوة في المركب وبـالرغم مـن وجـود الريس إلا أن أحد شيوخ توتى هادئ تـولى الأمـر قـائلا «يارجـال فكـروا في النسوان أولاً، أكان حصل حاجة ، لا قدر الله ، تدوا الموج ضـهركم. الحمـير اكان ما حملوا عليها بتطلع الزول، بس تختوا ايدكم ساكت، وما تقعـوا المويـه مرة واحدة» وحدد كل رجل أو رجلين امرأة، ولم يبد الخوف على نساء تـوتى وجلس بثيات فقال احد الافندية واظنه لايعرف العوم «وأنا ...؟!!! ».

فقال له الشيخ بحزم «أنت كمان شنو يا .... اسكت !»

الريس ميرغنى كان يمسك الدفة تحت ابطه الأيمن ويقبض على حبـل الراجع الذي يشد الشراع بكلتا يديه يرخيه ويجذبه ، مفوتا على الـريح فرصـة التحكم في الـشراع، ووصـلنا بـسلام واسرع الافنـدى مبتعـدا وانتهـى يـوم عصيب لبعض أهل توتى، من أيـام كثـيرة قـد تكـون اسـوأ. فأنـا في الغربـة

سمعت بأن مركبا قد غرق في مشرع بحرى وكان يحمل جنازة فغرق الكثيرون وغرقت الجنازة رحمة الله عليهم جميعاً.

حوالى الساعة الرابعة مساء ذهبت إلى الماء لغسل الحلة والأطباق كالعادة لأن مبارك يكون مستلقيا فسمعت صراخا ورأيت ماحسبته رؤوساً بشرية في الماء تحت كوبرى النيل الأبيض في الجانب الأقرب لأمدرمان فناديت مبارك الذي افتى بأنها طيور الغطاس «تطارد الكواره» فاقتنعت بكلامه.

وفي نفس اليوم عرفنا بأن الكثيرين قد ماتوا غرقا والسبب أن الكوبري فتح لمرور كرين عائم ضخم فقام بقطع بعض الأسلاك مما عطل عملية قفل الكوبرى وذهب من توفرت لهم سيارات عن طريق جبل الأولياء لأن كوبرى شمبات لم يكن قد شيد بعد ، وسار بعض البسطاء الجزء الأول من الكوبرى ونزلوا في جزيرة ود دكين وهذا اهمال من سلطات البوليس، ونادوا على أحد الحواته الذي تبرع بنقلهم إلا أن الجميع كانوا جياعا ويودون الوصول لمنازلهم بأى ثمن فتكاثروا على القارب الصغير ووسط احتجاج الحواتى قام البعض بالقفز على القارب من أعلى فانخلعت بعض الألواح فغرق القارب وغرق الكثيرون، حتى بعض الذين أجادوا السباحة غرقوا. فلقد تعلق بهم من لم يستطع العوم. أحد الأقليميين وضع جزلانه بين أسنانه وابنه على ظهره وكان أول من وصل إلى الشاطئ الآخر. وبعدها بيوم كنت أردد ما سمعته في أمدرمان بأن صائدا للسمك قد طلب مبلغا كبيرا من كل راكب وأنه ملأ

القارب لجشعه، فانفجر أحد الركاب غاضباً لأن المقصود ابن عمه و أحد معارفي . وكان الدرس أن لأ أردد الاشاعات وأن لا افتح فمى بها لا أعرف وأن لا أظلم الناس، وأن هنالك وجها آخر للعملة.

الذي ظلوا ما سكين على القارب نجوا من الغرق فما أن قل العدد حتى ارتفع القارب مرة أخرى ولهذا يقول المثل «الحراز بمشى بين الموجتين» فهو خشب خفيف لا يغطس كليا.. الصياد ذهب إلى السجن فلقد كانوا يبحثون عن كبش للفداء والغلطة في المكان الأول غلطة البوليس ولا أدرى ما الذي حدث لأسرته فتلك السنة كانت اسوأ سنى الحواته. إذ لم يجدوا ما يسد رمقهم فرطل الكواره كان يباع بـ 18 مليما والذين يملحونه ويخزنونه، يبيعونه بـ عشرة قروض للرطل.. في تلك الفترة كان لحم البقر يباع بـ16 قرشا للكيلو والشرموط بـ 20 قرشا ولحم الضأن يساوى 24 قرشا وأسماك العجل تباع في الخرطوم في البقالات بـ 40 قرشاً للكيلو. والحواتى يبيع العجل بحوالى 15 قرشاً للكيلو ، والحواتى لا يأكل سمك العجل أو البياض لأنه غالى فأغلب الذي يربون الحمام يبيعونه لشراء الويكه، وفي كثير من الأحيان كان افطارنا أسماك الكواره المملحه بدون طهى، وهى ليست سيئة عندما يتعود المرء عليها.

وجد الحواته منافسة شرسة من النقادية الذين هاجروا من صعيد مصر كماكانت مصلحة مصائد الأسماك تطارد الحواتـه وتفرض ضريبة ورخصة لكل قارب حتى الصبى الذي يرافق صاحب الطراحه حاملاً الصفيحة طالبوه برخصة ، ولم يستمعوا لشكوى الحواتية.

من العادة أن يقول الناس «اتبرد كل يـوم أنـا أصـلى حـواتى» ولكـن الحقيقة الحواتى يكره الحمام أو «البرود» فالبشرة التى تتعرض للبلل باستمرار تفقد مناعتها وتتشقق وتصاب بالاكزيمة والحـك. وعمليـة النـزول إلى المـاء والتعرض للشمس المحرقة مع العرق تسبب كثـيرا مـن الأمـراض الجلديـة، الحواتى يتجنب الماء كلما كان ذلك ممكناً ويعالجون التشقق والجـرب بالزيـت والقطران في بعض الاحيان والقمل وهو أخف المشاكل. ولقد اضـطررت في احدى المرات لأن أغسل جـسمى بمـسحوق ال د.د.ت D.D.T وكـان الألم مخيفا، كلنا يعرف ما يسببه شتاء السودان من جفاف للبشرة خاصـة الأقـدام والأيدى . فهل تتصورون أن الحواتى الذي يجـبر عـلى نـزول المـاء في الـشتاء وتتحول بشرته إلى شيء يماثل بشرة التمساح أتكون له من شهية «للبرود»؟

في موسم 1963 اللعين فقد العم بسطاوى المـشرع لأن أحـد التجـار قدم عطاء بمبلغ 30 جنيها. وهـذا ضـعف مبلـغ العـم بـسطاوى، وبالنـسبة للتاجر فأن الأمر تجارة ناسيا أن المشرع كان مؤسسة كاملة.

حتى المركب الذي اتى به لم يكن مناسبا فلقد كان ضيقا ومرتفعـا ممـا جعل عملية ركوب الحمير قاسية ومملة. ورفض ميرغنى أن يعمل مع المالـك الجديد ، وذهب يبحث عن رزق آخر وأخذت أنا درسا في الولاء والصمود.

وفي نهاية السنة قدم العم بسطاوى عرضاً بـ 70 جنيها واستعاد المـشرع ، فرجع الريس ميرغنى لعمله. وعندما ودعته كنا نعرف بأننا لن نلتقـى مـرة أخرى، وكانت تلك آخر مرة – للأسف– اضع فيها قدمى في توتى.

المراكب المستعملة في النقل في السودان، تصنع من خشب السنط، وبعضها بعمر أكثر من الرجال. وتتوسطها سارية تعرف بـ «القرية» وتقف على مربع خشبى مجوف يعرف بـ «الشمعة» والشمعة تثبت على أقوى واسمك جزء من المركب «عمود البدن» وهو بمثابة السلسلة الفقرية للمركب . ويقسم المركب إلى كونيات أوعنابر بألواح أفقية سميكة جداً تربط المركب من الدير إلى الدير أو حافة المركب. القرية تثبت بحبال غليظة بيكرات من الخشب أو الصلب إذا وجد وتربط قمة القرية بالكونية والحبال تسمى «عيايير» جمع «عيار».

الشراع يكون في شكل مثلث بزاوية قائمة ويشد من الوتر إلى حامل خشبى ويثبت الحامل إلى القرية في وسطه بطريقة تجعله قابلا للحركة. الركن الاسفل من الشراع الذي لا يلتصق بالحامل يربط بحبل طويل يسمى «الراجع» يطلق ويشد حسب حالة الريح ويربط الحامل من اعلاه بحبل طويل جداً يكون مشدودا للكونيه ويعرف «بالمرسيم» وهذا الحبل مهم جداً.. الجزء الأسفل من الحامل يسمى المقدمة يشد بحبل قصير إلى احدى الكونيات، الراجع يحول من الشمال إلى اليمين حسب سير المركب وكذلك المقدمة إلا أن المرسيم لا يحرك ، وعندما يلط الريح يلف القماش أو الشراع الذي يصنع من الدمور الجيد ومن المفروض أن يعيش عشرة سنوات أو أكثر.

السفن الكبيرة جداً تزود بإثنين من الشعب الضخمة لوضع «القرية ».

عندما تنزل ولسوء الحظ أن كثيرا من القناطر والخزانات بنيت بدون أن يفكر الناس في المراكب التى طورت السودان ولاتزال تقدم الكثير . وهى لا تحتاج لمحروقات ولا تلوث البيئة ولا تهد الشواطئ أو تزعج الحياة البرية أو الطيور. وتكلف أقل كثيرا من الشاحنات ولا تحتاج لطرق معبدة والسفن الكبيرة تنقل نصف مليون طوبة بينما بنقل اللورى خمسة آلاف طوبه، وكما حطمنا السكك الحديدية التى تكلف 20٪ من الشاحنات حارينا المراكب ولقد شاهدت المراكب في الصعيد السودانى تسبق الوابورات عندما يكون الريح طيبا.

هنالك نوع آخر من الأشرعة وهو النوع المستطيل ويستعمل فقط في المراكب الصغيرة كسرتق الصيد ويثبت على رأس القرية بحبل في شكل العدد ثمانية وغابة «قنايه» في وضع أفقى في أعلى الشراع والركنين اللذين في أسفل الشراع يربطان براجعين بدل الواحد.

من أقبح التجارب «تمليص» المركب أو أخذ المعدات وهذا يحدث عندما يجنح المركب أو «يشرد» البحر ويترك المركب على اليابسة، وكأنه جثة عزيز. وتموت الاحلام ويصير قوت الصغار في كف عفريت ولحسن الحظ لم أحضر سوى عملية تمليص واحدة.

عندما طرحت فكرة التأمين نظر إلى الريس وكأننى اتحدث عن الغول. كان يقول : «يا ولدى التامين ده شنو ده كلام ما بنعرفه ، وديل ناس لا

بيعرفونا ولا بنعرفهم المفاهمه معاهم ذاتها ما بنعرفها، الله في » ويواصل قائلا: «انحنا حالنا أحسن من غيرنا في رجال غرقوا مع مراكبهم» . هل يا ترى لا تزال المراكب تنطلق بدون تأمين ؟!!

المثل يقول عزومة مراكبيه ولكن المراكبيه من أكرم خلق الله. وأكثر الناس تفهما وتقديرا لظروف الآخرين. ويقتسمون طعامهم مع الغريب ويقدمون المساعدة للغريب والزميل. ويخاطرون بحياتهم لنجدة الآخرين ، ويعطون المريض أو المصاب «عوده» أو نصيبه كاملا والنوتيه يتعرضون للابتزاز من المسئولين في الكبارى والخزانات ومفتشى الغابات وعمال المجالس البلدية والمشرع والنظا. والنواتى (غريب) في كل مكان، بعيد عن أهله وعند الاختلاف مع التاجر يجبر على الرضوح لأن التاجر في وطنه ويعرف الشرطه والقاضى وأهل السطوة والنواتى بالرغم من أنه يعيد عن داره فلا يعامل من الآخرين معاملة الضيف لأن المركب بمثابة المنزل. حسب رأى الآخرين .ليس هنالك أحلى من السمر مع النوتيه وقصصهم لا تنضب لأنهم قد شاهدوا الكثير ولاقوا كل أنماط البشر وأن كان بعضهم يجنح للمبالغة ويقولون «الكذب فلفل الكلام».

في الثمانينات رأيت رجالا على وشك الانطلاق بمركب من أمام الطابية في أمدرمان ، فنزلت مسرعا من السيارة وحييتهم بحرارة فنظروا إلى بتعجب ، وربما بسبب البدلة والكرفتة فقلت «نازلين تحت؟ مشواركم ما طويل.. روحتوا ريح الفجر. بعد ده ألا تمسكوا المويه حية العده دى ما حقت المركب ده.. القرية دى قصيرة والعياير رقيقة».

فسألنى أكبرهم : أنت ولد منو في الرجال؟ فقلت لهم بأننى قد عملت في المراكب فنظروا إلى بتعجب إلا أنهم صدقونى فمن العادة أن لا يفوت الريس ريح الفجر. ولانعدام الريح تأكدت من أنهم في طريقهم «سافل» أو تحت الصعيد فوق، وإذا كانوا في طريقهم إلى الصعيد لاجبروا على سحب المركب. وبعد الضحى سيضطروا للاستعانة بالتيار القوى وسط النهر «المويه الحية» «والمويه الميتة» بالقرب من الشاطئ . كانوا في طريقهم للشيخ الطيب وسيصلوها في المساء. وعندما فارقتهم كنت سعيداً جداً فللنهر سحر خاص ومن تعود عليه لن يشفى من حبه، بالرغم من الثمن الفادح . قبل ان أترك السودان كنت اعانى من آلام فظيعة. وبعد سنتين في أوروبا كنت اتبول دما ووضح بعد جهد في التحاليل اننى مصاب بالبلهارسيا واضطروا لإجرا عملية لى ـ للتخلص من مستعمرات البلهارسيا في جسمى . وأنا محظوظ بالمقارنة مع الآخرين في السودان الذين يصابون بأمراض تعتبر البلهارسيا بالنسبة لها زكاماً خفيفاً.

في فترة من الفترات كنت اتغدى بانتظام في فندق ساڤوى. وفي احدى المرات قرعت الجرسون لأنه قدم لى الماء المعدنى بشريحة من الليمون الاصفر بدل الأخضر. ثم بدأت افكر في غرابة الدنيا فشرف حريقه كان يقول: موية بحر أزرق حلوه ونضيفه لكن في الدميره. تشيل ليك هين تشبع من الطين. وكنت أشرب ذلك الماء بدون تردد.

هنالك مثل سودانى غير معروف «بحر أبيض القام بي جهلة يخلى

الغريب ويطرش أهله» والحقيقة أن من يشرب من بحر أبيض في بداية الدميره يتقيأ ولكن الغرباء لا يتقيأون.

البطيخ هو فاكهتى المفضلة واذكر انى توقفت عند بائع بطيخ «في المغتريبن» في طريقى لأمدرمان، وقلت له ادينى ثلاثه بطيخات سمحات بدفع ليك البتقولو بس ما تحاول تغشنى لأنه البطيخ ده أنا كنت بزرعة.. «فنظر إلى السيارة والسائق وادخل ثلاثة بطيخات في الضهرية» فاعطيته ثمن بطيخه واحدة فقط. وعندما احتج قلت له «لأنك اديتنى بطيخه واحده.. البطرسيات ديل واحدة عرقها ميت والتانيه قعر شلح».

عندما لا يتوفر الماء والغذاء في التربة للبطيخ يقوم بعملية اجهاض بأن يتخلص من بعض الثمار فيموت العرق الذي يغذى البطيخه، أما البطيخه في آخر الشلح فهى عادة تكون مسيخه.. وبعدها صار يقول البائع لي « أهلاً ود كارنا» أو ابن مهنتنا.

نتنياهو

عندما ذكر أن نتنياهو من أصل سوداني.. «ولد وعـاش في الـسودان» ابدى الجميع الدهشة . لقد كان 52٪ من سكان الخرطوم من الأجانب وكان للأرمن مدارسهم الخاصة وكذلك اليونانيون والإيطاليون. وعلامات المرور كانت مكتوبة بالعربية والإنجليزية واليونانية.

المؤلم أن بعض الأخوة العرب ابدى استغرابه وكأنما الـسودان لا يليـق بسكن البشرة . لقد تخرج الكثيرون من أبنـاء الـدول العربيـة مـن جامعـات ومعاهد السودان. بل لقد كنا نرسل بالخبراء والمدرسين إلى دول الجوار.

لا أظن أن نتنيـاهو سـوداني المنـشأ. لأنـه مـن أسرة إسرائيليـة غربيـة «اشكناز» وهو الشقيق الأصغر للضابط الإسرائيلي يوناتان الذي قتل في مطار عنتيبي في يوغندا أيام حكم عيدى أمين، عندما تعاون أعضاء الجـيش الأحمـر الياباني مع الفلسطينيين واختطفوا طائرة إسرائيليـة. وقـام رجـال الكمانـدو الإسرائيليين بتخليصهم ومات قائد العملية في آخر لحظة قبل دخول الطائرة.

نتنياهو لا يحتاج لان يخفي هويته كـسوداني لأن الـسودانيين يتمتعـون بسمعة جيدة في إسرائيل. أولاً لشجاعتهم في حرب فلسطين ولأنهم احـسنوا التصرف نحـو الاسرى اليهـود بـالرغم مـن أن منـدوب إسرائيـل في الامـم

المتحدة في سنة 1948 م ذكر العم زاهر بالاسم وهو والـد الـدكتوره خالـده زاهر.

ونحن كمسلمين لا نحمل اى كراهية وحقداً نحو اليهود أو المسيحيين بسبب دينهم. فهم كالصابئة أهل كتاب. ولقد قال الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: «وأن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إلـيهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا أولئك لهم أجرهم عند ربهـم وان الله سريع الحساب» صدق الله العظيم . سورة آل عمران.

هذه الآية نزلت عند موت النجاشى ملك الحبشة، وقال صلى الله عليه وسلم للمسلمين «أخرجوا وصلوا على أخ لكـم مـات». وكـبر النبـى أربعـة مرات وصلى على روح الملك النصرانى.

نحن ضـد سياسـة إسرائيـل وضـد الـصهيونية التـى تجعـل العـرب والمسيحيين والآخرين مواطنين من الدرجة الثانيـة في وطـنهم ، كـما لا نعتـبر اليهود أمة واحدة لأن مقومات الأمة هي الأرض المشتركة ، اللغة ، التاريخ، الاقتصاد ، التركيبة النفسية المشتركة وهذا لا يتوفر لكل اليهود. فالفلاشـة لا يمكن أن يفكروا أو يتمتعوا بنفس التركيبة النفسية كـاليهودى الأمريكـى أو الاسكندنافى. كما نرفض بشد فكرة شعب الله المختـار ونـرفض قتـل العـرب وتعذيبهم وقصف المدنيين من نساء وأطفال وترويع الـشيوخ «وأن الله يغفـر كل شيء إلا أن يشرك به».

إن في إسرائيـل تمثـيلا لأغلـب شـعوب الأرض ولقـد اتـى الجميـع

لأسرائيل بأخلاقهم وتقاليدهم ومقاييسهم الخاصة، فاليهود من باكستان والهند يحبون أكل الأرز والكرى ويفكرون كالهنود. واليهود اليمنيون يفكرون بالضبط كبقية اليمنيين وهم اليوم أكبر أقلية أو مجموعة عرقية في إسرائيل. يأكلون المرق اليمنى واللحوح اليمنى ويضيقون الحلبة لكل شيء ويمضغون القات. ويقسمون أنفسهم إلى شراعيه من شرعب عدنيين، صنعانيين ، تعزيين.. إلخ ويفضل الشرعبى أن تتزوج ابنته بشرعبى. ويرقصون الدعسه اليمنيه في حفلاتهم ويغنون الأغانى اليمنية العربية أمثال «جينا نفرح معكم ياجماعة».

ويفضل اليهود من الأصل اليمنى السكني في حوارى تكفا بين الأزقة الضيقة والنساء خلف المشربيات يصرخن ببعضهن البعض والكل يعرف الجميع. وتكفا حى تكون خارج حيفا قبل أن تخلق تل أبيب وهو الأن جزء من تل أبيب ، كما يجد اليمنيون صعوبة في التعامل مع يهود المغرب، لأنهم متفرنجون ومتأثرون بالحياة الفرنسية يذهب فتياتهم للبارت ويعملون في الملاهي والهوتيلات ويتظاهرون في بعض الأحيان بأنهم فرنسيون. ولقد وضح أن أغلب اليهود الذين هاجروا أخيراً من الاتحاد السوفييتى ليسوا يهوداً ، ولم يكونوا مختونين كأبسط متطلبات اليهود. وهذا ما يسمى عندهم بالعهد بين الله وسيدنا ابراهيم ولقد ختن سيدنا اسحق بعد ولادته مباشرة أما سيدنا اسماعيل فلقد ختن وهو صبى نسبة لغياب والده.

تحريم أكل الخنزير فرض على اليهود أولا عندما خرجوا هاربين من رمسيس الثانى في صحراء سيناء ولأن لحم الخنزير لحم سيئ يفسد بسرعة.

فلقد مات ومرض بعض الذين اكلوه في سيناء. وحتى اليوم لا يحتفظ الأوروبيون بلحم الخنزير مجمدا أكثر من ستة أشهر. على عكس لحم البقر والحصين الذي يمكن الاحتفاظ به لمدة طويلة.

كما يصلي اليهود خمس صلوات في اليوم أربع منها طويلة وصلاة واحدة قصيرة، ولا يأكلون الأسماك التى تلتصق بالقاع وكذلك المحار وبعض الحيوانات البحرية والأسماك التى بدون قشور كالقرش. ولا يخلطون الجبن والحليب مع اللحم. ولا يصبون الطحين في اناء تم وضع لحم فيه إلا بعد الغسل الشديد. ويتشددون في الذبح ويكشفون على غدد الذبيحةوامعائها بواسطة حاخام مدرب وعند اكتشاف اى مرض يحرم أكل الذبيحة ويغسلون اللحم عدة مرات للتأكد من خلوه من الدم.

التوراة يسمح لليهود بالزواج بأربع زوجات ولكن اليهود غيروا هذا القانون في دولة إسرائيل وحرموا الزواج بأكثر من زوجة والآن يوجد أفراد في إسرائيل في السجن لعدم انصياعهم لهذا القانون لأنه من وضع البشر.

عندما صار أبوحصيرة المغربى شخصية دينية كبيرة في إسرائيل تقصده النساء لمباركتهن ومنحهن اطفالا ويقصده الرجال كى ينجحوا في حياتهم ، كان لليمنيين زعيمهم اليمنى ، شرعبى.

وبما أن اليهود الغربيين «الاشكناز» هم أهل السطوة والمال في إسرائيل خاصة الامريكان واليهود الألمان الذين استلموا ومازالوا يستلمون

تعويضات ضخمة من ألمانيا، فإت تفسيرهم للتوراة وممارساتهم الدينية ، تختلف وتتعارض مع اليهود الشرقيين «سفر عتيق».

والغربيون يجلسون في بورصة الأوراق المالية وبورصة الالماس والمعادن الكريمة في رامادقان ويسكنون في الأحياء الفاخرة خارج تل أبيب أو يادى الياو الذي تفصله عن حوارى تكفا شارع أقل من عشرين متراً ويشترون ملابسهم من الحوانيت الفاخرة في شارع «اللنبى» ويرسلون بناتهم إلى مدارس داخلية فاخرة مثل مدرسة رعنانه خارج تل أبيب.

أن المجموعة اليهودية التى هاجرت من السودان هي مجموعة صغيرة جداً بالمقارنة مع المجموعات الأخرى. إلا أنهم كانوا على قمة المجتمع الذي اتوا منه وكانوا أهل علم ومال. وفندق الهيلتون الفاخر في جنيفا كان ملكا لسودانى يهودى هو العم قون. وكان السودانيون يجدون أحسن معاملة في فندقه وتخفيضاً في الأسعار ، بل أن بعض أعمامنا من رجال الأعمال الذين يعرفون المالك كانوا لا يدفعون بتاتا. ولقد أقام حفلة زواج ابنه بفندق الملك داود في تل أبيب كان حدثاً تسير به الركبان، على مستوى زواج الحردلو في السودان. وتعامل يهود السودان مع رجال أعمال سودانيين وباعوا القطن وبترول ليبيا. ولم يجدوا في السودان سوى المحبة والاحترام.

عندما عرف صاحب مطعم في تل أبيب ، اننى سودانى رفض أن يأخذ«نقودى» وفرَّجنى على مطبخ المطعم. وأفهم الجميع انى ضيفاً في كل

الأوقات. وأن لم أتمتع بهذا الكرم الفياض. فكان يقول لى: «انتم السودانيون خيرة الرجال».

إذا كان ناتنياهو سودانيا لافتخر بهذا الأن كل الأجانب الذين كانوا بالسودان، يكنون حبا جما للسودان. اليونانيون الذي رجعوا لأثينا يعيشون مع بعضهم بالقرب من المطار وكانوا يقولون لنا أن اليونانيين سيئون وغير أمناء مثلنا «نحن السودانيين » وعندما تخلو داراً يحجزونها ليونانى سودانى.

في سنة 1987 دخلت مقهى مع صلاح الأمين مبارك زوح سفيرة الدنمارك في هرارى زمبابوى وفجأة أنتفض صاحب المقهى وهو عجوز في منتصف السبعينيات، عندما عرف بأننا سودانيين وبدأ في البكاء والعويل كطفل . فقد أثرنا فيه شجون سودان الأربعينات والخمسينات وبالرغم من إلحاح زوجته لخدمة الزبائن رفض وجلس يحدثنا عن السودان.

الإخوان طاسا صنايعيون أغنياء في تل أبيب وعلى صدر مكتبهم توجد صورة كبيرة لوالدهم عندما حضر من اليمن.. كان يرتدى جلباباً متسخاً حافى القدمين ويحمل برشا تحت ابطه.

الحاجة كوكب والدة زوجة الضابط المعروف كسباوى قابلت أول سفير لإسرائيل في القاهرة، في ردهة أحدة الهوتيلات. وأبدى السفير فرحا شديدا وحفاوة بها مبالغة. وبعدها واجهت تحقيقات الأمن المصرى. وعندما سالوها عن صلتها بسفير إسرائيل قالت «ده ولدى شلته في صفحتى واتربى مع أولادى».

هنالك اقتناع خاطئ بأن موشى ساسـون السـفير الثـاني لإسرائيـل في القاهرة سوداني الجنسية وآل ساسون يهـود سـوريون مثـل الجاسـوس «آلى» الذي كاد أن يصير وزيرا في دمشق. وموشى ساسون عاش 7 سنوات في مصر اخترق فيها كثيراً من المنظمات المصرية حتى بعض الجماعات الإسلامية وكـان في المنصة عندما قتل السادات وأصيب حارسه الخاص في الحادث.

الياهو بن أليسار السياسى المحنك تخرج مـن جامعـة الخرطـوم وكـان عضوا في الحزب كما كان بارعاً في تحريك الماكينات والمناشير بـسيارته. وكـان مناضلا ضد الدكتاتورية العسكرية الأولى.. أن اليهـود الـسودانيين لـشديدو الفخر بأصلهم لأن السودان كان وطنا حقيقياً لهم.

وليس غريبا أن يـترك اليهـود والارمـن واليونـانيون الـسودان فلقـد أصبح بلدا طارداً، لا يستطيع الأحرار من أبنائه أن يعيشوا فيه.

أن اليهود كانوا ولا يزالون جـزءا مـن الـشرق الأوسـط. والـسموءل صاحب حصن الابلق الذي يضرب به العرب المثل في الوفاء يهودى. ويقـال «اوفى من السموءل» لأنه رفض أن يسلم دروع امرئ القيس التى تركها عنده وعندما خيره المطالبون بين قتـل ابنـه الـذي أسروه خـارج الحـصن وتـسليم الدروع رفض تسليم الدروع.

اليهود الذين سكنوا معنا في امدرمان كانوا محل احترام الجميع . العـم داود سليمان منديل. من أسرة منديل سكنوا بالقرب من مكى ود عروسه وهو الذي أصدر الجريدة التجاريـة ونـشر الـوعى الاقتـصادى وعنـدما انـدمجت

الجريدة التجارية مع مجلة حضارة السودان صار اسمها «ملتقى النهرين» وكان العم منديل صاحبها ومحررها وعمل معه الشاعر التجانى يوسف بشير.. كما اهتم العم منديل بالتراث السودانى وهو أول من طبع الدوبيت السودانى كما طبع راتب المهدى وطبقات ود ضيف الله وكثيراً من الأدب السودانى . وهذا ليس بغريب في سودان الأمس، الذي كان لا يعرف سوى المحبة.

والشاعر المسيحى صالح بطرس ألف أجمل القصائد بمناسبة العام الهجرى كما ألف قصيدة عصماء يحث فيها المسلمين على اكمال بناء جامع امدرمان العتيق الذي تأخر بناؤه.

آل إسرائيل العينى احدى عوائل امدرمان المحترمة سكنوا في المنطقة المحصورة بين مركز البوليس جامع الخليفة ومستشفى الارسالية لم يقدموا إلى الوطن الا لباة في شكل نساء ورجال في عزم الاسود يقطرون وطنيه ورجولة.

كلنا يذكر العم محمد الفضل مدير عام السكك الحديدية وخال المناضلة فاطمة أحمد ابراهيم والشاعر صلاح والمهندس مرتضى، الرشيد والهادى، ان ابناء محمد الفضل هم الدكتور فيصل زوج آمال الدرديرى وعديل الدكتور أحمد عبدالعزيز زوج سيدة الدرديرة.. والدة أبناء محمد الفضل هى وردة إسرائيل وهي والدة أعظم البشر فاروق فتحى فتحية وفائزه.

من آل إسرائيل السيدات سميرة وفريدة وتربطهما بشقيقاتى صداقة

وطيدة، وعندما كانت السيدة كلثوم العبيد سكرتيرة للنميرى كانت السيدة ليلى إسرائيل سكرتيرة لأقوى رجل في النظام والذي يمسك باقتصاد البلد د. بهاء الدين.

السيدة محاسن عبدالعال وجدت مضايقات في مطار الخرطوم وقال لها أحد رجال الأمن «أنت مش من ناس اسرائيل» وعندما قالت له «قصدك إسرائيل العائلة ولا البلد» قال لها «نفس الشيء» وهذا خطأ والذى يجمع السيدة محاسن بآل إسرائيل هي علاقة النسب فهى ابنة خالة فاطمة أحمد ابراهيم.

آل كنعان كذلك كانوا من يهود امدرمان ومنهم الخالة نعيمه كنعان، التى اشتهرت في امدرمان كخياطة.

آل بسيونى وجدوا في السودان لقرون وكان بابكر بدرى يؤجر منهم دكانا في المهدية كما استدان مرة مبلغ 500 ريال من صديقه اليهود ليفى في بداية عمله التجاى في المهدية . كما كانت محلات التجار اليهود تحتل المربع الذي يبدأ من ميدان المحطة الوسطى ومحلات الطوخى وأماكن أخرى.

آل بسيونى اشتهروا وارتبطوا بالطب والعم بسيونى كان دكتورا ماهرا... إسحق بسيونى وموسى بسيونى كانا يديران أعمال الخليفة في المهدية.

كما أجبر اليهود والمسيحيون لإعتناق الإسلام وخيروا بين الموت والإسلام في المهدية، بل أن المسلمين الذين لم يؤمنوا بالمهدى ضرب عنقهم

وهذا خطأ لأن النبى صلى الله عليه وسلم عاش بسلام مع اليهود والمسيحيين في المدينةز كما تزوج بصفية بنت حى بن اخطب وريحانه بنت زيد بن عمر زعيم بنى النضير. وكان سلمان الفارسى المسلم والذي حفر الخندق للدفاع عن المدينة عبدا لبنى قريظة اليهود. كما كان المسلمون يأكلون طعام اليهود. لأن أحد اليهود أرسل زوجته باللحم المطهى إلى اسماء بنت أبى بكر الصديق عندما أحس انها اشتهت اللحم. واسماء كانت محل احترام النبى صلى الله عليه وسلم لدرجة أنه كان يركبها ناقته ويقود الناقة في المدينة.

ليس هنالك دولة مواجهة بمشاكل مثل إسرائيل إلا أنهم يحلون مشاكلهم، فأبناء يهود الغرب يحاولون أن يعيشوا بعشائرية اليهود الشرقيين عندما يصادقونهم في أيام التجنيد الاجبارى، ويثور الشباب على القيم القديمة ويأكلون لحم الخنزير. وعندما يكثر اليهود الغربيون من الحديث عن مذابح أوروبا يقول لهم بعض الشباب «ولماذا لم يقتلوك يا عمى حتى نرتاح من سماع هذا الكلام» كما كان بعض اليهود يقول: لماذا يحضرون يهودا من الاتحاد السوفييتى ؟ لماذا لا يحسنون أحوالنا نحن في الأول؟ فأن الغلاء لا يزال يطحن إسرائيل لدرجة أن الطماطم كان يستورد من أوربا لأنه أرخص. وشراء شقة صغيرة يعتبر رابع المستحيلات بالنسبة للكثيرين. وكثير من اليهود يرفضون أن يؤمنوا بدولة إسرائيل لأنها من صنع بشر ولا يزالون ينتظرون المسيح الدجال الذي سيبنى المعبد في مكان المسجد الأقصى ولهذا حاول أحد اليهود أحراق المسجد. كما يؤمن اليهود كذلك ينبى الله الخضر ويسمونه «الياو».

وبما أن اليهود قد وعدوا بالرجوع إلى أرض الميعاد على ظهر النسر فلهذا كان بن جوريون يصر على احضار يهود اليمن بالطائرات أو نسر الحديد ونفس الشيء حدث بالنسبة للفلاشا . كما كان بن جوريون الذي كان «امباشي» في الجيش الإنجليزى برتبة اعلى من زميله ابا ايبان ، يحلم بأن يرى أحد اليهود اليمنيين في رتبة جنرال لأنهم كانو جد متخلفين. وهم الأن أكبر مجموعة في الجيش منهم الجنرال توبيا قولان المسئول عن أمن المناطق المحتلة، وزوجته «المدعى العام» لتل أبيب. وكان مستشارا لهايلاسلاسى لسنين طويلة.

لقد اندهش الاسرى الإسرائيليون عندما شاهدوا كيف احتفظ المصريون بالسنقوقة أو معبد اليهود نظيفا مرتباً في سنة 1973.

ونذكر أن العم يوسف كان مسئولا عن المعبد في الخرطوم.. ارجو أن لا يكون رجال الجبهة قد اساءوا إليه لأنه بيت الله. وبعض المسلمين يتصرفون بطريقة تسيئ إلى الإسلام وبعض الأخوة الصوماليين يزعمون بأن الإسلام ينادى بكراهية المسيحيين ومضايقتهم ، وهذا خطأ.

المحتويات

الأهداء	5
تقديم	7
الفصل الأول – أم درمان زمان «جزء أول»	11
الفصل الثانى – أم درمان زمان «جزء ثان»	69
الفصل الثالث- أمد درمان زمان	105
– ناس ام درمان – كلام أم درمان – الريح ود أمدرمان	
الفصل الرابع: حكاوي أم درمان «خمسة أجزاء»	153
الفصل الخامس – رمضان في أم درمان «أربعة أجزاء»	191
الفصل السادس: - أم درمان والآخرون	215
– غرباء – آخر الفرسان – جامعة توتي – نتنياهو	

إصدارات الشركة العالمية للطباعة والنشر

م	اسم الكتاب	اسم المؤلف	سنة الطبع
١	النوبي	إدريس علي	٢٠٠٨
٢	خور رحمة	حسن نور	٢٠٠٨
٣	أنين لغة الضاد	سلطان	٢٠٠٨
٤	كوبر هاجن	خليل إلياس	٢٠٠٨
٥	من ثقافة وتاريخ النوبة	فؤاد عكود	٢٠٠٨
٦	انتشار وأثر الإسلام في الجنوب الأفريقي	السماني النصري	٢٠٠٨
٧	مذبحة رمضان	سميرة كرار	٢٠٠٨
٨	اجوك طفلة المطر	عاطف عبدالله	٢٠٠٨
٩	السودان في مواجهة العولمة الاقتصادية عبر التكتلات الإقليمية	الفاتح الأبوابي	٢٠٠٨
١٠	كرة القدم الساحرة	طارق الشيخ	٢٠٠٨
١١	وادي النيل الروابط والوشائج	إبراهيم محمد عثمان	٢٠٠٨
١٢	حكايات أمدرمان	شوقي بدري	٢٠٠٨
١٣	ثم ماذا بعد؟	عبد القادر محمد إبراهيم	٢٠٠٨
١٤	حكايات وذكريات في الحركة السياسية في جنوب السودان	إسماعيل سليمان	٢٠٠٨
١٥	جقلا .. نشيد المطر	عزت الباهري	٢٠٠٨

توزيع الشركة العالمية للطباعة والنشر

م	اسم الدار	اسم الدولة
١	دار الحوار	سوريا
٢	دار خطوات	سوريا
٣	دار الغرقد	سوريا
٤	دار الفارابي	لبنان
٥	دار ثوبقال	المغرب
٦	دار العلوم	مصر
٧	دار مصر العربية	مصر
٨	الدار العربية للطباعة	مصر
٩	الدار العالمية للطباعة والتوزيع	مصر
١٠	مركز الحضارة العربية	مصر
١١	دار آفاق للطباعة والتوزيع	مصر
١٢	المنظمة العربية للعلوم الإدارية	مصر


الشركة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع





Bibliotheca Alexandrina
06666152



العالمية
للطباعة والنشر